المجلس الأعلى للثقافة

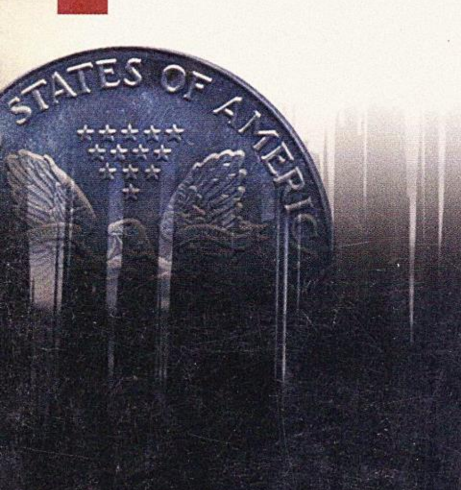
إريك هوبسبوم



القرن الجديد

(محاورات مع أنطونيو بولينو)

المشروع القومي للترجمة



942



ترجمة: وجيه سمعان عبد المسيح

المشروع القومى للترجمة

القرن الجديد

[محاورات مع أنطونيو بوليتو]

تأليف : إريك هويسبوم

ترجمة : وجيه سمعان عبد المسيح



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٩٤٢
- القرن الجديد (إريك هوبسبوم محاورات مع أنطونيو بوليتو)
- إريك هوبسبوم
- وجيه سمعان عبد المسيح
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

The New Century

Eric Hobsbawm

In conversation with

Antonio Polito

Translated from the Italian by Allan Cameron

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E-Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

تعريف 7

مقدمة 11

الفصل الأول : الحرب والسلام 17

الفصل الثانى : انحطاط الإمبراطورية الغربية 39

الفصل الثالث : القرية الكونية 65

الفصل الرابع : ماذا بقى من اليسار 93

الفصل الخامس : الإنسان الكونى 113

الفصل السادس : ١٢ أكتوبر ١٩٩٩ 135

خاتمة : أمال المستقبل 149

تعريف

إريك هوبسبوم مولود فى الإسكندرية عام ١٩١٧ ، وتعلم فى ڤيينا وبرلين ولندن وكامبردج، وهو زميل بالأكاديمية البريطانية والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم. ظل يتنقل فى جامعات عديدة معلمًا ودارسًا للتاريخ الحديث حتى تقاعده.

وقد كان العضو الوحيد من بين مجموعة المؤرخين البريطانيين المنتمين للحزب الشيوعى البريطانى الذى لم يقدم استقالته من الحزب فى عام ١٩٥٦ عقب أحداث المجر؛ إيمانًا منه بضرورة وجود حزب قوى لإحداث التغير الاجتماعى من ناحية، ولنزاهته الفكرية وعمق إيمانه وتمسكه بقضايا العدل الاجتماعى وتحرير الإنسان من الاستغلال الرأسمالى على نحو ما يوضحه خلال حواراته الخصبة الخلاقة فى ثنايا هذا الكتيب الوجيز من جهة أخرى، ومع ذلك فهو لم يكن عقائديًا متزمتًا.

يعد هوبسبوم من أشهر وألمع المؤرخين الأوروبيين المعاصرين تخصصًا فى تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، له إسهاماته المهمة فى التاريخ العمالى البريطانى وفى دراسة التمردات الفلاحية وهبات المزارعين فى الفترة السابقة على العصر الصناعى، وهو من الرواد الذين درسوا التاريخ فى حركته بين الجماهير العادية وعامة الناس الصانعة لأحداث التاريخ وهو ما يعبر عنه بدراسة التاريخ "من القاع".

كاتب غزير الإنتاج، خصب القريحة، رفيع الثقافة، تصفه المراجع العلمية بالصانع الماهر. وقد أكسبته ثلاثيته الشهيرة التى قدمت صورة بانورامية ممتدة الآفاق بعيدة الأغوار للأحداث التى هزت أوروبا و بريطانيا فى القرن التاسع عشر مكانة علمية مرموقة جعلته يتربع على عرش التاريخ الأوروبى، وقد شملت هذه الثلاثية :

- عصر الثورة ١٧٨٩ – ١٨٤٨
- عصر رأس المال ١٨٤٨ – ١٨٧٥
- عصر الإمبراطورية ١٨٧٥ – ١٩١٤

وقد أكملها برائعته الأخيرة "عصر التطرف – القرن العشرون القصير ١٩١٤ – ١٩٩١" حيث يحدد أن انهيار الاتحاد السوڤيتى وضع نهاية مأساوية للقرن العشرين الذى بدأ – فى تقديره – بانفجار مروِّع تمثل فى الحرب العالمية الأولى التى يعتبرها البداية الحقيقية لِما أسماه القرن القصير، وما بين البداية المروعة والدامية والنهاية المأساوية غاص المؤرخ فى أعماق القرن لسبر أغوار ما اعتمل فيه من تيارات متباينة على كافة الأصعدة الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد أثار الكثير من الجدل والنقاش ولاسيما تحديده بأن الانتصار فى الحرب العالمية الثانية تحقق بفضل التحالف الذى نشأ بين الرأسمالية الليبرالية والشيوعية السوڤيتية وبأن المفارقة الأساسية فى القرن القصير تمثلت فى أن الثورة الروسية التى استهدفت إلغاء النظام الرأسمالى هى التى أنقذت خصمها العنيد وعدوها اللدود الذى حاول تحطيمها و وأدها فى مهدها قبل أن يتدعم كيانها، ومن جهة أخرى فإن هذه الثورة حفزت الرأسمالية بسبب المخاوف التى أثارتها على اتخاذ العديد من الإجراءات والتدابير الإصلاحية التى أفضت إلى تحقيق العصر الذهبى الذى بلغ نهايته مع الأزمة العالمية الشاملة التى بدأت طلائعها تخيم على العالم مع مطلع سبعينيات القرن الماضى.

وفضلاً عن هذا، ثابر على تحرير المقالات والتواصل مع عصره وأحداثه عبر ما كتبه عن نضالات العاديين من البشر – رجالاً ونساءً – الذين يطلق عليهم اسم "الأناس غير العاديين"، وقد جمع تلك المقالات فى كتابين مهمين أولهما "الثوار" الذى يغطى جميع جوانب الثورة التى يعتبرها وسيلة للتغيير الاجتماعى، وثانيهما "الأناس غير العاديين المقاومة والتمرد والجاز".

وفى هذا الذى نقدمه للقارئ العربى، يجيب المؤرخ الكبير فى إيجاز بالغ وتركيز شديد على الأسئلة المطروحة عن القرن الجديد متعرضًا لمختلف القضايا وشتى

المعضلات فى جميع مجالات الحياة، والتى تواجه إنسان هذا القرن سواء أكانت على الصعيد الدولى وتداعياته وتطوراته وصولاً إلى العولمة وتوابعها ومؤثراتها أو اقتصرت على الصعيد القومى، وما يعتمل فى داخله من نزاعات قومية متعصبة وتطرف عنصرى أفضى إلى عمليات تطهير عرقى إثنى، وجاء كل ذلك من خلال تفاعل فكرى وحوار مبدع وخلاق وخصب مع مراسل صحيفة لاريبابليكا الإيطالية فى لندن : أنطونيو بوليتو.

وجيه سمعان عبد المسيح

مقدمة

يعد التساؤل الذى نطرحه على أنفسنا عما يفضى إليه المستقبل جزءاً من الحياة والعمل، ونحاول جميعًا القيام بذلك حيثما أمكن. بيد أن التنبؤ بالمستقبل لابد وأن ينهض بالضرورة على معرفة الماضى، فأحداث المستقبل يجب أن تكون ذات صلة ما بأحداث الماضى، وهنا يأتى دور المؤرخين الذين لا ينشدون تحقيق ربح ما، بمعنى أنهم لا يستغلون معارفهم لضمان الحصول على مكسب، ويستطيع المؤرخون أن يكشفوا عن العناصر ذات الأهمية التى ينطوى عليها الماضى وأن يحددوا الاتجاهات والمشاكل.

وهكذا يتعين علينا أن نحاول القيام بعمليات تنبؤية - وإن يكن مع بعض التحفظات - ويتعين علينا أن نعي خطر تقليد العَرَّاف، ويجب أن نفهم أن الكثير من المستقبل لا يمكن التنبؤ به تمامًا سواء من الناحية العملية أو من حيث المبدأ، ومع ذلك فإننى أعتقد أن أحداثًا منفردة أو معينة هى تلك التى لا يمكن التنبؤ بها، بينما المشكلة الحقيقية بالنسبة للمؤرخين تتمثل فى فهم مدى أهميتها أو إمكان أن تكون كذلك، ويمكن أن يبين التحليل فى بعض الأحيان أنها ذات شأن وفى أوقات أخرى أنها ليست كذلك.

وعلى سبيل المثال، من غير المهم بالنسبة لشركة تأمين أن تعرف ما إذا كان هذا المنزل الذى نجلس فيه ونتحادث سوف يحترق تمامًا الأسبوع القادم، وكل ما يلزم للمُؤمِّنين أن يعرفوه لكى يمارسوا مهنتهم على نحو مربح هو الاحتمال العام لحرائق المنازل. ومن الناحية الأخرى فمن الأكثر أهمية بالنسبة لى بكل وضوح وجلاء أن أعرف بصفتى مالكًا للمنزل ما إذا كان سوف يحترق فى غضون الأيام القليلة القادمة، وفوق ذلك فإذا ما ذهب عشرون شابًا وعشرون فتاة إلى معسكر تصييف، فمن المرجح

للغاية أن تنشأ صداقات وعلاقات فيما بينهم، وما قد يهم الشباب والشابات هو معرفة من سيذهب مع من، غير أن ذلك قد لا يكون له أهمية على الإطلاق عند المؤرخ أو عالم الاجتماع؛ لأن ما يتعين أن يؤخذ بعين الاعتبار هو احتمالية حدوثه، وثمة أحداث قد لا تكون لها أهميتها أحيانًا فى عملية التنبؤ بالنسبة للمؤرخ، ولكن قد تكون فى أحيان أخرى لها أهميتها وعلى نحو مثير للغاية، وتلك هى حدود عملية التنبؤ.

وما نستطيع أن نفعله فى هذه المحادثة هو أن نناقش المشاكل كما تتبدى اليوم وأن نحدد بعض الاحتمالات، وستكون هذه الاحتمالات قوية حينًا بينما يمكن أن تتلاشى وتذروها الرياح بفعل أحداث غير متوقعة على الإطلاق، وإذا أخذنا ضرب السفارة الصينية بالقنابل فى بلجراد فمن المؤكد أن ذلك الحدث له أهمية من الناحية التاريخية ، حتى ولو لم نعرف بعد مدى هذه الأهمية، لكن مما لا ريب فيه – أيضًا – أنه لم يكن متوقعًا البتة.

لقد اشتهرت بتعريفك للقرن العشرين بأنه "القرن القصير" بحيث بدأ متأخرًا فى ١٩١٤ مع الحرب العالمية الأولى وانتهى مقدمًا فى ١٩٩١ مع انهيار الاتحاد السوفيتى، فإذا كان تحديدك الزمنى سليمًا فإننا نعيش بالفعل فى القرن الجديد منذ عقد، فهل يتوفر لدينا ما يكفى من الأدوات لكى نحاول تخطيط معالمه ؟ وهل القسمات المميزة للحقبة الجديدة يمكن تحديدها ، أو مازلنا نعيش فى مرحلة انتقالية ذات نتائج غير مؤكدة؟

إن تحديدى لعام ١٩٩١ كنهاية للقرن القصير هو اختيار قمت به (وعلى أى حال كان من الأيسر تحديد بدايته فى عام ١٩١٤) ولم يكن ذلك هو الإمكانية الوحيدة عندما قمت بتأليف الكتاب فى ١٩٩٤[١]، وقد اخترت هذا التاريخ لأسباب تتعلق بمدى الملائمة والتوافق، و دائمًا ما تكون التواريخ الدقيقة مسائل متصلة بمدى الملائمة من

(١) إشارة كتابه المرجعى المهم عن تاريخ القرن العشرين : age of Exteremes: The short Twentieth century 1914-1991 .

الناحية التاريخية أو التعليمية أو الصحفية ومثال ذلك الحرب في كوسوفا، فمن الممكن بكل تأكيد تحديد بدايتها مع مساء أول يوم قام فيه الناتو بإلقاء القنابل - ومع ذلك - فنحن نعلم أن أزمة كوسوفا ترجع إلى سنوات عديدة، وفي ١٩٩٢ علمنا بالفعل أنها ستغدو خطيرة وسوف تؤثر على مصالح الولايات المتحدة.

وأخطرت واشنطن يوغوسلافيا رسميًا بهذه المصالح ، ولإضفاء المزيد من الوضوح فإنها أرسلت قواتها إلى مقدونيا، وعندئذ فإن أزمة البوسنة ألقت بظلالها على كل شيء، ولكن - مرة أخرى ، ومع نهاية تلك الأزمة - فإننا نستطيع إذن تحديد موعد انطلاق الحرب مع بدء "التطهير العرقي" الصربي ونشوب الثورة المسلحة بقيادة جيش تحرير كوسوفا.

وبقول آخر فإن تمييز أو اختيار موعد معين هو مسألة اصطلاحية وليس أمرًا يكون المؤرخون على أهبة الاستعداد لخوض معركة من أجله.

وهناك مؤشر واضح وواحد فقط على نهاية النهاية للقرن القصير، فنحن نعلم أن الاقتصاد العالمي دخل منذ ١٩٧٣ مرحلة جديدة، وإذا كنت تؤمن - كما أنني أؤمن - بنظرية كوندراتيف Kondratieff[1] عن الموجات الطويلة التي كان من المُقدَّر أن تنتهي في وقت ما من التسعينيات، لكن متى على وجه الدقة ؟ ذلك لم يكن جليًا تماماً، وأعتقد أنه عند مستهل العقد فإن انهيار الاتحاد السوفيتي، الذي تزامن مع أزمة خطيرة تمثلت في الكساد الذي خيَّمَ على اقتصاد البلدان الغربية، شكَّلَ تاريخًا معقولاً لحدوث تغيير في الحقبة، بيد أنه قد يكون من الجلي - أيضاً - أن الأزمة الاقتصادية اللاحقة التي سادت عامي ١٩٩٧ و ١٩٩٨ هي التي ميزت نهاية القرن، فمن الممكن - فقط - أن تعرف متى انتهت فترة ما ومتى قد انتهت لفترة طويلة من الزمن.

وعلى سبيل المثال، يمكن القول إنه طرأت على الاقتصاد العالمي فيما بين ١٩٤٥ وأوائل سبعينيات القرن تقلبات ضئيلة نسبياً، بينما وجدنا أنفسنا ثانية منذ ١٩٧٣

(١) كوندراتيف (١٨٩٢ - ١٩٣٠) اقتصادي روسي أبرزت أعماله وجود دورات طويلة الأجل (٢٥ سنة) تشهد فيها البلدان الرأسمالية فترات تتناوب فيها الأسعار بين الارتفاع والانخفاض وذلك منذ القرن الثامن عشر. (م).

فى فترة اتسمت بصدمات وضربات قوية للغاية : أزمات (١٩٨٠ - ١٩٨٢) و (١٩٩٠ - ١٩٩١) و (١٩٩٧ - ١٩٩٨) . ومن الممكن أن يدخر لنا المستقبل اتجاهاً مماثلاً ؛ مما يجعل من الشاق تحديد تاريخ دقيق للانتقال من حقبة إلى تلك التى تليها، ومن الجلى كذلك أن آثار انهيار الاتحاد السوفيتى قد ثبت أنها خطيرة ودائمة.

وقد اعتقدت وكتبت أنها ستكون مشكلة ذات شأن بالغ، غير أننى - أيضًا - هونت من جسامتها وإذا كان علىَّ أن أعيد كتابة "the age of extremes" حاليًا فسوف أكون أكثر حذرًا وحرصًا فى التنبؤ بتوسع عالمى مفاجىء للاقتصاد الرأسمالى فى المستقبل القريب، ونتيجة لانهيار الاتحاد السوفيتى، فإن هذا التطور يمكن أن يتوانى بأكثر مما تنبأت به فى كتابى، وكل هذا يجعل من الشاق للغاية معرفة ما إذا كنا قد خرجنا بعد من القرن العشرين "القصير".

وعلى الرغم من هذا ففى ظنى أننا نعرف بالفعل شيئًا ما عما سوف تشبهه الحقبة الجديدة؛ لأن بعض قسماتها السياسية والاقتصادية جلية حقا، ومن مناحٍ عديدة نستطيع أن نزعم بلا أدنى ريب أننا نعيش فعلاً فى القرن الجديد، ومن حيث السياسة الدولية والإيديولوجيات فمن الواضح تمامًا أن زوال النظم الشيوعية فى الشرق شكَّلَ انكسارًا تاريخياً، وعالم اليوم تتحكم فيه آثار تلك الأحداث، ومن ثم فإنه فى وسعنا أن نحاول قول شىء ما عن هذه الحقبة الجديدة.

- من أين يأتى هذا الاعتقاد فى التاريخ ؟ هذا الطموح فى أن تكون قادرًا على قراءة المستقبل المُتَنَبَّأ به من الماضى.

لقد جذبنى التاريخ - فى المقام الأول - من واقع قراءة كارل ماركس، وأعنى أن ماركس قد زودنى بالوعى بأنه أدة لا نستطيع بدونها أن نفهم ماذا يحدث فى العالم؛ لقد اقتنعت بفكرته القائلة إن التاريخ يمكن رؤيته وتحليله ككل ، وله.... لا أود أن أقول قوانين؛ لأن ذلك يذكرنا بالوضعية قديمة الطراز إنما له بنية ونمط ، وتلك قصة تطور المجتمع الإنسانى عبر فترة طويلة من الزمن.

ويتعين عليَّ القول إن المعلمين في فترة شبابي لم يكن لديهم الاهتمام بهذا النوع من التاريخ. غير أنني بدأت دراسة هذا الفرع العلمي الذي ثبت أنه ملائم على نحو معقول في حد ذاته، ومن ثم فقد أحطت به.

كما استطعت دراسة السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا - موضوعان يرتبطان كذلك بتطور المجتمعات - .

وأزعم أنني تعلمت الكثير من ميكائيل بوستان Michael postan ، مدرس في كامبيردج هاجر من أوروبا الشرقية؛ لأنه كان الوحيد الذي ألمَّ ببعض الشيء عن النقاش الذي كان دائرًا عن القارة والأدب الأوروبي القاري، كما كان على دراية بتعاليم أتباس مثل ماركس والمؤرخين وعلماء الاجتماع الروسي. وبطبيعة الحال - ولأنه من المهاجرين الروس - فقد كان معاديًا للشيوعية بشراسة ولكنه كان يعرف مادته . وفي السنوات العشر التي أعقبت الحرب قام جيلنا بدرس تاريخه في حلقات دراسية منتظمة أدارها مؤرخون أصدقاء وأعضاء في الحزب الشيوعي البريطاني أو ما يسمى بمجموعة المؤرخين الشيوعيين : كريستوفر هل c. hill وموريس دب m. dobb وثومبسون e.p. Thompson ومؤرخ العصور الوسطى روني هيلتون r. Hilton وأنا وآخرون. وفي أعقاب الحرب - أيضًا - دارت مناقشات مع مؤرخين كثيرًا منهم من الفرنسيين ومن غيرهم، وقد تعاطفت كثيرًا مع مدرسة الحوليات[1] وإن اختلفت معها في أمر واحد إذ آمنت هذه المدرسة بالتاريخ الذي لن يتغير أبدًا وبالهياكل والبنى الدائمة للتاريخ بينما أؤمن أنا من الناحية الأخرى بالتاريخ الذي يتغير.

لم تكف البتة عن الاعتراف بفضل ماركس. فمم يتكون في نهاية الأمر التفسير الماركسي للتاريخ ؟

(١) فريق من المؤرخين الفرنسيين تجمع حول مجلة حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، أسسها في ١٩٢٩ كل من Bloch و Febvre . وقد رفضت هذه المدرسة التفسير السائد للتاريخ باعتباره سرد الوقائع والأحداث التاريخية وفضلت النظر على الماضي المدى البعيد والانفتاح على العلوم الإنسانية الأخرى كالجغرافيا والاقتصاد ثم الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا ووضعها في الاعتبار عند كتابة التاريخ، وقد اهتمت في مرحلة لاحقة بتاريخ العقليات (م).

قبل كل شيء فإن التفسر الماركسي يفترض أن المجتمع البشرى ، وعلى أساس إدراك أن مرحلة تاريخية معينة ليست دائمة ، هو بمثابة بنية ناجحة؛ لأنه قادر على التغير، ومن ثم فإن الحاضر ليس هو محطة وصوله النهائية، وثانيًا فإنه يمكن للمرء أن يدرس طريقة عمل المجتمع modus operanation أى سبل عمل نظام اجتماعى معين ، ولماذا ينتج أو يخفق فى إنتاج قوى التغيير. وعلى سبيل المثال، ولكى يمكن تحليل الاقتصاد الصينى عبر عدة قرون فالمرء يحتاج إلى فهم ما الذى حال فى هذا البلد دون التغيير أو إعاقته، وما الذى عمل على استقرار المجتمع بدلاً من زعزعة هذا الاستقرار، وذلك بالرغم العديد من عناصر التقدم الاقتصادى والتكنولوجى. بينما فى الغرب فإن المشكلة تتمثل فى أن تفهم عكس ذلك تمامًا، وذلك هو السبب فى أن التاريخ الذى يهمنى هو تاريخ تحليلى، أى التاريخ الذى يشيد تحليل ما حدث بدلاً من إزاحة الستار عنه وكشفه، ولا أعنى بذلك أنه يمكن استخدامه لكى يفهم المرء تمامًا لماذا تطور العالم بطريقة معينة، بل يستطيع إخبارنا كيف تجمعت واحتشدت عناصر شتى داخل مجتمع ما لكى تخلق ديناميكية تاريخية أو تخفق – على العكس – فى أن تحدث ذلك.

الفصل الأول

الحرب و السلام

- لقد انتهى القرن العشرون بحرب ، تمامًا كما أن القرن القصير بدأ بكارثة الحرب، وكما لو أن الزمن لم يتغير فقد انفجرت المسألة القومية ثانية ووضعت القوى العظمى على المحك . وهكذا، فهل التاريخ يكرر نفسه ؟ وكيف انتقلنا من نهاية الحرب الباردة إلى عودة "الحرب الساخنة" وكيف يمكن أن يوجد الآن عدد من اللاجئين أكثر مما وجد فى نهاية الحرب العالمية الثانية.

- من الحقيقى ومن بعض النواحى فإن الحرب فى البلقان كانت حقا وفعلاً حرباً بكل أمارات حقبة مضت وانقضت فهى استمرار لحروب البلقان - وبوجه أعم - فهى استمرار للحروب التى أفرزها نظام الدول فى القرن العشرين ، وقبل ذلك فى القرن التاسع عشر. ويمكن القول - إن أردت - إن حرب البلقان هى النتيجة الأخيرة والحصيلة الثانوية الأخيرة للحرب العظمى، حيث شهد هذا الصراع انهيار الإمبراطوريات السابقة على البورجوازية والمتعددة القوميات، وأفرزت نهاية إمبراطورية هابسبورج والإمبراطورية العثمانية الخريطة القومية لجنوب شرق أوروبا ، بينما حافظت ثورة أكتوبر على الوحدة التى كانت تمثلها إمبراطورية القياصرة .

ومع انهيار ذلك النظام أيضًا فإننا نشهد حاليًا بروز نتائج مماثلة فى تلك البقعة من العالم.

وأعتقد أنه من الأكثر أهمية أن نحلل الكيفية التى تغيرت بها الطبيعة العامة للحرب والسلام مع انقضاء القرن العشرين، وتعد الطبيعة العامة للحرب مشكلة أكثر

دلالة ومغزى من أسبابها المحددة، وتلك - مثلاً - أكثر أهمية من التساؤل عما إذا كانت - أو لم تكن - حرب كوسوفا حربًا عادلة حيث تَبينت بوضوح كمشكلة مُلِحَّة وجسيمة بينما كانت أوار الحرب مشتعلة فى ربيع ١٩٩٩ . غير أنه بالنسبة لمؤرخى المستقبل الذين سيدرسون الحروب فإن أسئلة أخرى سوف تلوح أكثر أهمية بكثير. لأنها تحدد القسمات المميزة لنهاية هذا القرن، وتدل بقدر ما على القرن المقبل.

إن ما يهمنى أكثر من غيره هو كيف تغيرت الحرب بالمعنى السياسى والتكنولوچى على السواء؟ وهل مازال من الممكن أن تنشب حرب بين القوى الكبرى فى العالم ؟ والإجابة بلا مادامت أمريكا هى القوة العظمى الوحيدة . ومن الممكن - إن عاجلاً أو آجلاً - أن تبلغ الصين القوة العسكرية التى تؤهلها لكى تنافس الولايات المتحدة الأمريكية على نحو فعال، ولا أريد القول ما إذا كان ذلك سوف يحدث أو لن يحدث، غير أن ما يلوح مؤكداً هو أن نشوب حرب عالمية جديدة أمر غير محتمل إلى أن يحدث ذلك.

وثانيًا: هل اندلاع حرب نووية ممكن ؟ من ناحية إن عدم احتمال قيام حرب عالمية يجعل نشوب حرب نووية غير مرجح الحدوث، بيد أن استخدام الأسلحة النووية فى الحرب ما يبدو ممكنًا وغير مستبعد لأن التكنولوجيا قد زادت باطراد من إمكانية الحصول عليها ، وجعلت من الممكن إنتاجها على نطاق أوسع ونقلها على نحو أسرع، ومن ثم فإن استبعاد خطر نشوب حرب عالمية لا يستبعد مخاطر الحروب التى قد تستخدم فيها أسلحة نووية.

وثالثًا: هل مازال ممكنًا قيام حروب أكثر تقليدية بين الدول مثل تلك التى اعتدنا عليها ؟ والجواب هو أن هذه الحروب لم تتوقف أبداً، إلا فى المناطق التى حدثت فيها مواجهة مباشرة بين القوتين العظيمتين، حيث كانتا حريصتين للغاية على تفادى خطر وقوع كارثة نووية . لقد وجدت صراعات فى جنوب آسيا بين الهند وباكستان ونشبت حروب فى الشرق الأوسط بين إيران والعراق، ومن ثم فإن الحروب استمرت حتى إبان فترة الكابوس النووى، ولذلك فإن إمكانية قيام حروب أخرى ليست بعيدة، ولكن هناك مناطق معينة فى العالم من غير المرجح إلى حد بعيد للغاية أن يحدث فيها ذلك،

ونميل إلى أن ننسى أنه توجد مناطق مثل أمريكا اللاتينية، حيث لم يعبر فيها أبداً أى جيش حدود دولة معادية على مدار القرن العشرين – اللهم – باستثناء الحرب التى دارت بين بوليفيا وباراجوى (١٩٣٢-١٩٣٥) وعرفت باسم حرب الشاكو chaco(١) لقد حدثت كثرة من المذابح والحروب الأهلية لكن لم تنشب حروب بين هذه الدول، ولا نعلم إلى أى مدى سوف يصدق ذلك – أيضًا – على أوروبا فى القرن الحادى والعشرين . وعلى أى حال فإن هذا النوع من الحروب لا يمكن أن يكون وارداً فى عالم المستقبل ومع ذلك ربما لن تكون مهمة كما كانت فى القرن العشرين.

وأعتقد أن ما هو جديد فيما يتعلق بالوضع فى البلقان، هو أن الخط الفاصل الذى يميز بين الصراعات الداخلية و الصراعات الدولية قد اختفى أو فى سبيله إلى الاختفاء، مما يعنى أن الفرق بين الحرب والسلام – بين حالة الحرب و حالة السلام – قد تقلص أيضًا. والوضع اليوغوسلافى حالة نموذجية. وعلى الرغم من أنه ينبثق من خصومة وعداء ، وهو ما يعتبره الصرب مسألة داخلية، فقد حدث أيضًا تدخل خارجي، وهو أمر كان مستحيلاً تمامًا فى القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب الباردة، وأعنى عبور الجيوش الأجنبية الحدود لكى تحل صراعًا داخليًا فى نطاق دولة ذات سيادة، وفى هذه الحالة فإن أحد طرفى النزاع رفض حتى الاعتراف بنشوب حرب ما .

ويلوح من المتعزر إنكار أن ضرب دولة أخرى بالقنابل يشكل عملاً حربيًا، ومع ذلك لم يعلن رسميًا اندلاع حرب، ولذلك يزعم بعض الناس أنه لم توجد حالة حرب، وتلك هى الجدة المذهلة لهذا الوضع .

ومن الجلى أننا نتعامل مع إحدى نتائج نهاية الحرب الباردة وإبان تلك الفترة، فإن الاستقرار النسبى الذى شهده العالم نهض أساسًا على القاعدة الذهبية للنظام العالمى، لا أحد يعبر حدود دولة أخرى ذات سيادة ، لأن النتيجة ستكون اختلال التوازن، ومنذ نهاية الحرب الباردة فقد شهدنا نهاية التحديد الذاتى.

(١) نسبة إلى السهل المنخفض الممتد على حدود كل من الأرجنتين وبوليفيا وباراجواى فى أمريكا اللاتينية (م.).

ومن غير الواضح تماماً ما إذا كانت الحروب التى دارت فى كل من وسط إفريقيا ويوغوسلافيا وكوسوفا و العراق هى حروب أم غير حروب، وفى الواقع فإن وجود نقاش واسع النطاق عما إذا كانت هذه الحروب عادلة أم غير عادلة، إنما يعبر بطريقة أخرى عن حيرتنا وارتباكنا فى مواجهة ظاهرة جديدة كلية، وكان الفيلسوف الإيطالى بوبيو Bobbio منطقيًا تمامًا بقوله إنه لا يريد حتى طرح هذا السؤال؛ لأن السؤال الحقيقى الذى ينبغى طرحه هو ما إذا كانت حرب كوسوفا قانونية طبقًا لقواعد الماضى والجواب بلا، فالقواعد القديمة للحرب و السلام التى ميزت بين الصراعات الداخلية والصراعات الدولية تآكلت، ولا يبدو من المحتمل على الإطلاق أنه سوف تتم استعادتها فى المستقبل القريب.

كما أنه ثمة اختلافات فى الطريقة التى تجرى بها الحرب، وتلك اختلافات جسيمة يمكن التنبؤ ببعضها ، ويصعب ذلك بالنسبة للبعض الأخر، وأولها تحول الحرب الذى أحدثته التكنولوجيا المتقدمة، وقد خشينا فى البداية من أن تكون سببًا فى نزاعات أكثر دموية وتدميراً.

ولكن علمنا – منذ حرب الخليج – أن التكنولوجيا المتقدمة تحدث قوة تدميرية أكثر دقة و تمييزاً، فالقنابل الذكية قادرة على انتقاء أهداف معينة و تفادى أخرى، وإذا نحينا جانبًا الحوادث المرتبطة بالعمليات الحربية ومخاطر "نيران الأسلحة التى تطلق خطأ"، فإن هذه الحقيقة الجديدة لها أهميتها لأنها تستعيد التمييز بين المحاربين وغير المحاربين ، الذى اختفى فى القرن العشرين عندما كانت الحروب توجه باطراد صوب المدنيين ، مما أتاح لحلف الناتو القول إنه لم يكن يستهدف المدنيين فى حرب كوسوفا على سبيل المثال ، ولكنه يستهدف القوات المسلحة و منشآتها من حيث المبدأ على الأقل.

ومن ناحية أخرى فإن هذا الوضع يجعل من الممكن الاتجاه الأرعن المتكرر على نحو متزايد إلى التدمير، وإذا كنت تعتقد أنك قويًا بما يكفى لكى تستطيع أن تختار بدقة ما تبغى تدميره ، فقد يعزيك ذلك على حل مشاكلك باستخدام القنابل كما حدث فى العراق .

وبهذا المعنى فإن التكنولوجيا المتقدمة تزيد من مخاطر النزاعات المسلحة - على الأقل من قبل الدول المتوفرة لها - و فضلاً عن هذا فإنها تبخس قدر مخاطر ما يسمى بـ "الضرر الملازم أو المصاحب" ولا أعنى الأفراد الذين يقتلون عن طريق الخطأ ، وإنما ذلك الضرر الجسيم الذى يصيب المرافق والبنى الأساسية التى تعتمد عليها جماعة معينة فى معيشتها وإنتاجها. و بالنظر إلى عدم وجود خطر بقتل أعداد كبيرة للغاية من البشر فقد يتبادر إلى ذهنك أن تلك طريقة متحضرة للغاية فى شن حرب ما، بيد أنه ثمة تقديرات بأن الاقتصاد الصربى عانى خلال أسابيع قليلة تدميراً أكبر مما عاناه طوال الفترة التى استغرقتها الحرب العالمية الثانية، ولم تقتصر الآثار على الاقتصاد الصربى وحده : فتدمير الجسور الواقعة فوق نهر الدانوب - مثلاً - أضر ضرراً بالغًا باقتصاد المنطقة بأكملها، والتى تمتد من جنوب ألمانيا إلى البحر الأسود وما ورائه.

وأخيراً، فقد نشأ تباين جسيم - على مستوى أدنى - بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون الحصول على التكنولوجيا المتقدمة بين الحرب التى تشنها الطائرات على ارتفاع خمسة عشر ألف قدم مستخدمة قنابل متطورة للغاية وبين الحرب البرية، حيث يقتل الناس بعضهم بعضًا باستخدام المدى والسكاكين ، كما حدث فى إفريقيا الوسطى وهو ما اتضح بجلاء فى كوسوفا حيث دارت الحربان المختلفتان فى وقت متزامن دون أن يوجد أى تلاحم بينهما. وفى الماضى كان يتسلح رجال "حرب العصابات" بالبنادق والرشاشات ، أما الآن فلديهم قاذفات الصواريخ والأسلحة المحمولة المضادة للطائرات، وذلك إفراز آخر من إفرازات الحرب الباردة ، التى غمرت العالم بقدراتها على إنتاج الأسلحة. وبرغم أنه لم تنشب حروب فعلية بين الدول فى تلك الفترة ، فإن صناعة الأسلحة كانت تعمل بكامل طاقتها، كما لو كانت هناك حالة تعبئة فعلية. ومن الواضح أن نهاية الحرب الباردة أتاحت على الفور تلك الترسانة المهولة وجعلتها فى المتناول وعلى سبيل المثال، فإن انتهاء الحرب الأهلية فى السلفادور طرحت فجأة كميات ضخمة من البنادق الأوتوماتيكية فى الأسواق والتى كان يمكن شراؤها على الحدود بحوالى مائة دولار لكل قطعة سلاح، ثم تنقل إلى كولومبيا لإعادة بيعها.. بخمسمائة دولار، وكانت تلك تجارة رابحة لبعض الناس. والعالم الآن ملىء بالأسلحة؛ مما يخلق وضعًا جديداً

تظهر فيه جماعات مسلحة حرة طليقة أو " مرتزقة " لا تكون مرتبطة بالضرورة بحكومة ما، لكنها على أتم الاستعداد للقتال.

واعتبر ذلك علامة تغير أخرى : أى العلاقة الناشئة التى تربط الحروب بين الدول أو الحركات المنظمة بالحروب الخاصة بين الأفراد أو المنظمات الخاصة، وينطوى ذلك على إمكانية حدوث تغير أساسى و جوهرى، و قد افترض إبان القرن الذى انقضى أن النزاعات المسلحة - مع استثناءات قليلة - جرت بين دول أو من قبل منظمات شبه حكومية (حركات المقومة فى إيطاليا أو يوغوسلافيا) المؤتمر القومى الإفريقى ، حركات التحرر القومى وهى لم تنظمها هيئات أو مؤسسات خاصة ، كما حدث فى إيطاليا (خلال القرنين الرابع عشر والسادس عشر) إبان عصر **condottieri** (قادة المرتزقة)(١) أو بمعرفة قادة جيوش المرتزقة. وكان فى استطاعة الدول الأوروبية حتى القرن السابع عشر أن تستأجر الجيوش، وفى حرب السنوات الثلاثين كان والنشتين **wallenstein** آخر المقاولين الذى أجر جيشه للدول المتصارعة(٢).

ونشهد اليوم عودة إلى المشروع الخاص فى الحرب، وذلك جلى تمامًا فى بقاع العالم التى تتحلل فيها الدول - كما فى إفريقيا - وحيث تستخدم عصابات المرتزقة حينًا من قبل الفصائل المتحاربة وحينًا آخر بمعرفة الحكومات.

(١) قادة المرتزقة الذين كانت تستخدمهم المدن الإيطالية أو الأمراء فيما بين القرنين ١٤ و١٦ ثم بدأوا يعملون لحسابهم حالما قويت شوكتهم وشرعوا يستولون على الأراضى، وقد شرع هذا النظام فى الاختفاء مع بدء القوات الأجنبية واستخدام أساليب جديدة فى الحرب فى أواخر القرن ١٥ (م) (١)

(٢) حرب الثلاثين عامًا دارت رحاها فيما بين ١٦١٨ - ١٦٤٨ وشملت عده دول أوروبية، السويد و فرنسا ثم هولندا وإيطاليا وشبه جزيرة إيبيريا. وكان مسرحها الرئيسى ألمانيا، وبدأت بالصراع الذى نشب بين الأمراء الألمان البروتستكانت الذين شكلوا الاتحاد الإنجليزى فى ١٦٠٨ من جهة والسلطة الإمبراطورية الكاثوليكية ممثلة فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة وآل هابسبرج من جهة أخرى، وانتهت بعقد صلح وستفاليا وأصفرت عن تمزيق ألمانيا و اضمحلال الإمبراطورية الرومانية المقدسة وآل هابسبرج. وخرجت فرنسا أقوى دولة فى أوروبا وكان والنشتين (١٥٨٣ - ١٦٣٤) رجل أعمال وواحد من كبار القادة العسكريين فى تلك الحرب. جند جيشًا وضعه فى خدمة الإمبراطور فرديناند ٢، وقد جعل من الحرب شبه مشروع خاص، وانتقل من معسكر لآخر مغيرًا تحالفاته. وقد اتهم بالخيانة العظمى ومات مقتولاً بأيدى أحد ضباطه، وبأمر من الإمبراطور الذى تخلص منة خوفًا من طموحة. (المترجم).

و فضلاً عن هذا ، علينا أن نضيف الاتجاهات الأخيرة فيما يتعلق بالحروب ذات صلة مباشرة بالحكومات ، مثل تلك النزعة الدامية إلى إلغاء التجنيد الإلزامى العام حتى فى بلدان يعتمد جيشها حتى الآن على الخدمة الوطنية، و يرمى الاتجاه العام إلى التركيز على استخدام عسكريين محترفين مؤهلين للغاية، و مما لا ريب فيه أن هذه العملية تفسح المجال أمام المشروعات الخاصة، وحتى فى أكثر البلدان تقدماً هناك الآن منطقة رمادية حيث يعمل جنباً إلى جنب عسكريون متخصصون للغاية وشركات أعمال خاصة توفر خدمات الأمن. وفى بريطانيا العظمى يحصل الجنود من وحدات الكوماندو sas[١] عند تقاعدهم على وظائف مماثلة فى الشركات التى توفر الخدمات الاستشارية والعملياتية للحكومات فيما يتصل بالنزاعات المسلحة ومقاومة الإرهاب .

وهناك بالفعل دراسات عديدة عن الاحتمالات المتوقعة للقوات المسلحة الخاصة فى حروب المستقبل ، مثل تلك التى أصدرها معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن ، ويعتقد البعض أن هذه الاحتمالات ليست كبيرة خاصة ، وإن تلك الخدمات لا يمكن التعويل والاعتماد عليها. ولكننا لاحظنا – من ناحية أخرى – فى حالة حرب الخليج ، الاستخدام الواسع النطاق للمشروع الخاص فى تقديم الدعم اللوجستى اللازم للنزاع الحربى.

وهو ما يشبه – إلى حد ما – ما حدث فى القطاع المدنى إبان الفترة التى حكمت فيها تاتشر، حيث خضعت الخدمات التى كانت تقدمها الحكومة من قبل لعطاءات خارجية، وأعتقد أن الذخائر والأعتدة الحربية والمؤن والملابس اللازمة للقوات الحربية سوف تعرض أكثر فأكثر على الشركات الخاصة لكى تقوم بتوفيرها.

– كما حدث فى مقدونيا حيث تأتى شركة أمريكية فى أعقاب قوات الناتو لكى تقدم الخدمات اللوجستية.

– تماماً. وتلك ظاهرة جديدة تتعلق بالقرن العشرين، وهى حالة نموذجية لحقبة جديدة نشأت من التفكك النسبى لقوة الدولة فى بعض بقاع العالم، وقد بعثت من الرقاد

(١) القوات الجوية الخاصة البريطانية.

شخصية " لوردات الحر " التى لم توجد فى أوروبا منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد كان لدى هؤلاء الأشخاص القدرة على التأثير على الأحداث السياسية؛ لأنهم قاموا بإنشاء وتنظيم الجيوش الخاصة بهم.

وهو ما يذكرنى بالوضع فى الصين لمدة خمسين عامًا خلال الفترة الواقعة بين انهيار الإمبراطورية وقيام الثورة ، حيث لم توجد حكومة فعلية وإنما هناك سلطان أو نفوذ كفلته جيوش لوردات الحرب، وكان بعضهم من قطاع الطرق السابقين مثل شان تسولن chan tso lin الذى حكم منشوريا وحول نفسه إلى قائد عسكرى (جنرال). إننى أشعر أن الوضع الراهن – وهو مزيج من الحرب الخاصة والحروب بين الدول – يعنى أن هذه الظاهرة ستكون محتملة أيضًا فى المناطق التى تتفكك فيها الدولة على نحو ملحوظ .

ويتدعم ذلك بعامل جديد أخر: الثروة الهائلة المتاحة حاليًا للكيانات الخاصة. ويستطيع اليوم الأفراد أو الشركات امتلاك أقوال كثيرة مثل تلك التى تمتلكها الدول، ويرجع ذلك جزئيًا إلى نمو التجارة غير المشروعة مثل الاتجار فى المخدرات وتهريبها. وفى حدود علمى فإن جيش تحرير كوسوفا لم تموله أى حكومة، وهو ما يرجع فى اعتقادى إلى أخر ما تريده الحكومات الغربية هو إنشاء دولة مستقلة فى كوسوفا، ولا أعتقد أن الحكومة الألبانية قد ساعدت فى ذلك على نحو مهم؛ لأنها ليست فى مركز يتيح لها منح أى مساعدة مالية لأحد، ولذلك فمن المؤكد – تقريبًا – أن جيش تحرير كوسوفا جرى تمويله من جانب التجارة غير المشروعة التى تمارسها المافيا الألبانية والكوسوفية ، كما حدث فى الشيشان، ولا أقول إن هذه الأموال أنفقت على قضية غير عادلة، غير أننى أود أن أقول إن هذه الجماعات – التى ما كان يمكن لها أهمية سياسية بخلاف ذلك – قد اكتسبت هذه الأهمية باللجوء إلى موارد لم تكن متاحة فى الماضى ، وهو ما يتضح بجلاء فى كولومبيا ؛ حيث فقدت الحكومة عمليًا السيطرة على مناطق شاسعة من البلاد ؛ لأن الجماعات التى تهيمن على هذه المناطق لديها التمويل الكافى للقتال والمقاومة، ولا يوجد فعلاً نقص فى الموارد فى العالم فى الوقت الراهن.

وإننى أرى أن هذه القسمات سوف تتزايد أهميتها فى حروب المستقبل ومن اليسير لميليشيا جيدة التسليح مكونة من ثلاثمائة فرد ، ولا تخضع نظريًا لأى حكومة أو دولة أن تسيطر على مساحات شاسعة تنهب ما فيها وتطهرها من "الأعداء". وكما رأينا فى كوسوفا فلن تحتاج إلى كثير من الرجال لحرق المنازل والقرى وإجبار سكانها على الفرار، وكلما كانت النزاعات المسلحة أقل تنظيمًا وخضوعًا للدولة كلما أصبحت أكثر خطورة على السكان المدنيين، ومن هنا العدد الهائل من اللاجئين فى عالم اليوم.

وقد اخترتنى سيدة من بين أولئك الذين عملوا لسنوات مع الأمم المتحدة فى السودان ، الذى تمزقه حرب أهلية منذ أمد طويل إنه كان يتعين عليهم فى البداية أن يمتثلوا لأوامر قادة حركة التحرر ؛ ليتمكنوا من القيام بالأعمال الإنسانية فى مناطق الجنوب، ولكن بعد برهة من الزمن فإن الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها تفتت إلى ولايات أو إمارات يحكمها جنرالات أفراد أصبحوا - أيضًا - سادة يتحكمون فى مصير اللاجئين، ويتعين على الأمم المتحدة الآن أن تتفاوض مع كل واحد منهم على حدة لتتمكن من مساعدة اللاجئين.

ولحسن الطالع - آنذاك - كان لدينا التليفزيون ؛ لكى يطلعنا على معاناة اللاجئين.

لا يمكن أن يكون هناك أدنى ريب فى أن الدور الجديد للرأى العام يعد حاسمًا فى تغيير طبيعة الحرب، وهو ما يمكن أن نحدده أو نسميه بـ "تأثير (القناة الإخبارية) cnn"، حيث تصبح الأخبار المختارة مما حدث و وقع متاحة على الفور ومباشرة، وتلك نتيجة أخرى من نتائج انتهاء الحرب الباردة ، الآن السيطرة الحكومية ورقابتها على المعلومات أقل بكثير مما كانت فى الماضى بل مستحيلة أحيانًا، ولم يكن الأمر كذلك أثناء حرب فيتنام ، وظل أقل إبان السنوات التى أعقبتها مباشرة . إن السيطرة الهائلة للتليفزيون قد جعلت من المستحيل فى الوقت الحالى على الحكومات إدارة الأزمات الدولية بالطريقة التى كانت معتادة عليها، غير أنه أداة - أيضًا - تحت تصرفها تستخدمه فى تعبئة الرأى العام بسرعة لم تكن تخطر على البال فى غابر الأيام.

ولننظر فى كمية الوقت التى استغرقها حدث مثل غرق الباخرة lusitania أو حادثة خليج تونكن[١] لكى يكون ذلك داعيًا إلى إغلاق الحرب.

ويمكن رؤية ذلك فى الطريقة التى سمح بها كل من صدام وميلوسيفيتسن لفرق التليفزيون المنتمية إلى البلدين التى كانا فى حرب معها أن تقيم وتصور ما أراد أن يطلع عليه ويشاهده الرأى العالم الغربى ، بينما كان رد الفعل الطبيعى من قبل هو التعتيم بالطريقة الستالينية المعهودة وهو ما ترك آثاره المهمة على سياسة الحرب.

– لقد وصفت الخصائص الجديدة التى تنزع الحرب إلى أن تتسم بها فى نهاية القرن القصير، بيد أن هذه الخصائص تشمل بروز مفهوم "الحرب العادلة" و"الحرب غير العادلة"، فهل من العدل فى رأيك أن تشن الدول الديمقراطية الحرب على الديكتاتوريين باسم حقوق الإنسان العالمية ؟

تنتابنى هنا بعض الشكوك . إذ لا يبدو لى أن الحكومات تخوض حربًا؛ لأنها عادلة أو غير عادلة، ومن الطبيعى أنها تحاول تبرير ذلك بغرض حشد مساندة عامة بزعمها أنها عادلة، ومن الأهمية إقناع الرأى العام، ومن الأمور الحاسمة تقديم الحرب بطريقة يتصور بها الناس أنها مشروعة وعادلة، غير أنه من العسير للغاية أن نجد أمثلة تاريخية لحكومات شنت حربًا لسبب آخر غير مصالحها القومية.

ومن الجلى أنه ثمة استثناءات لذلك ، ومنها النظم الثورية أى تلك التى جاءت تعبيراً عن ثورة والتى قد تخوض – أحيانًا – حربًا لأسباب أخرى قوامها المثل الأخلاقية أو الأيديولوجية أو التحرر الوطنى، لكن حتى هذه النظم ما أن تحقق الاستقرار حتى

(١) Luai tamia سفينة بريطانية أغرقتها غواصة ألمانية قبالة سواحل إيرلندا فى ٧ مايو ١٩١٥ وكان على متنها ١٢٠٠ جندى من بينهم ١٢٠ من الأمريكيين، واكتفى ويلسون بتوجيه احتجاجات إلى ألمانيا. واقتضى الأمر وقوع أحداث مماثلة واشتعال حرب الغواصات وما استتبع ذلك من مضاعفات اقتصادية لكى تدخل الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، أما حادث خليج تونكن فقد تمثل فى هجوم السفن الحربية الفيتنامية على المدمرات الأمريكية الموجودة فى الخليج، وكان ذلك فى عام ١٩٦٤ أى قبل أن تبدأ الولايات المتحدة حربها فى فيتنام (المترجم).

تتبنى سياسات خارجية مماثلة تماماً لسياسات الدول وتشرع فى العمل على أساس من المصالح القومية.

وفى هذا الصدد علينا أن نتذكر دائماً أن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل - إلى حد ما - قوة إيديولوجية نشأت - مثلها مثل الاتحاد السوفيتى - من ثورة ولهذا تشعر بالحاجة إلى أن تقود العالم بما يتمشى مع مبادئها، كجزء رئيسى من سياستها الخارجية.

ويمكن أن يكون ذلك بالغ الخطورة . ولا ينتابنى أدنى شك فى أن الولايات المتحدة تود أن تغير العالم وإن حماية حقوق الإنسان جزء من طموحاتها، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن أن يتبادر إلى ذهنى - ولو لمرة واحدة - أن - الولايات المتحدة ذهبت إلى الحرب مدفوعة فقط بفعل الخير دون أن يكون ذلك منطوياً على مصالح قومية مهمة.

واليوم يدور جدل أصيل - بلا أدنى ريب - حول أهمية حقوق الإنسان من أجل تأكيد إلى أى مدى يمكن ضمان الدفاع عنها باستخدام القوة المسلحة، لكننى مازلت مقتنعاً بأنه لا الولايات المتحدة ولا حلف الأطلنطى (الناتو) فكرا جدياً فى خوض الحرب كليةً على أساس من المبادىء والقيم الأخلاقية، بل إنه حتى الحرب العالمية الثانية لم يتم خوضها من أجل هذه المبادىء . وحقا كان الحلفاء على صواب وأنقذ انتصارهم العالم من النازية، ولكن هتلر هو الذى جر الديمقراطيات الغربية والاتحاد السوفيتى إلى هذه الحرب كما جرت اليابان الولايات المتحدة.

لقد مررت بتجربة معاداة السامية فى ألمانيا، بسبب أصلك اليهودى، وبالنسبة لك لم يكن يوم ٣٠ يناير١٩٩٣ هو - فقط - اليوم الذى أصبح فيه هتلر مستشار الرايخستاج ؛ لأنك تتذكره أيضاً بوصفه "أصيل شتاء فى برلين" عندما كنت فى سن الخامسة عشرة عائداً إلى المنزل مع شقيقتك الصغرى من المدرسة فى wilmersdorf ، وشاهدت أثناء سيرك فى الطريق عناوين الصحف، وأنت مازلت تستطيع قراءة هذه العناوين ، كما لو كانت حلماً تقريباً" فهل تشعر أيضاً مثل Elie wisesel[1] أنه لابد من وقف الكراهية

(١) كاتب أمريكى معاصر حاصل على جائزة نوبل للسلام ومن أشد الأنصار المتحمسين لدولة إسرائيل - المترجم.

العنصرية (الإثنية) حتى ولو اقتضى ذلك استخدام القوة ، قبل أن يستفحل ضررها ؟ هل تعتقد أن " التطهير العرقى " لميلوسيفيتسن يشكل جريمة إبادة جماعية ، تقارن بالمحرقة (الهولوكست) ؟

لا أظن ذلك، فقد أفرط فى استعمال تعبير "الإبادة الجماعية" ولذلك فقد بعضاً من معناه، كما حدث شيء مماثل لكلمة "الفاشية"، فالإبادة الجماعية عبارة عن خطة لاستئصال جماعة إثنية (عرقية) بكاملها وعلى نحو ما فهى امتداد منطقى ومتطرف للتطهير العرقى، وعلى سبيل المثال، برزت معلومات – حاليًا – تشير إلى أن التطهير العرقى فى سريبرينتشيا قارب الإبادة الجماعية. ومع ذلك، فثمة خلاف جوهرى بين إقصاء الناس وإبعادهم عن أرضهم وأن تخبرهم : "اذهبوا بعيداً إلى مكان آخر" وبين ممارسة القضاء التام عليهم، لقد قتل النازى الرجال والنساء والأطفال اليهود وما حدث فى التطهير العرقى هو ترحيل النساء وكبار السن من الرجال والأطفال وانتفاء من هم فى سن القتال من أجل سجنهم والقضاء عليهم جسديًا، وهذا لا يقلل بأى حال من الأحوال الخطورة الأخلاقية للتطهير العرقى، غير أننى أعتقد أنه يتعين علينا أن نكون قادرين على إجراء هذا التمايز فى التحليل، فالتطهير العرقى ظاهرة تحدث بدرجات متفاوتة من الخطورة ويمكن أن يصل إلى حد الإبادة الجماعية، وهو عمل خسيس وحقير فى حد ذاته بحيث لا يحتاج إلى جعله أسوأ عن طريق اعتباره مماثلاً أو مطابقًا للإبادة الجماعية، والحق أن الجنرالات والسياسيين – وإن كان لا يود أحد مناقشة ذلك علنًا – لا يترددون فى أن يؤكدوا فى أحاديثهم الخاصة أن التطهير العرقى قد ساعد تاريخيًا – فى أحيان كثيرة – على تبسيط المشاكل، وهذا سبب آخر يجعلنى أتشكك فى البواعث الأخلاقية للحرب فى كوسوفا، وإذا لم يكن الألمان قد طردوا من سلوفينا فهل كان من الممكن أن يكون هذا البلد هو المكان الهادئ المسالم الذى نعرفه اليوم ؟ وفى النهاية فإن النزاع فى البوسنة انتهى إلى فصل السكان المختلفين النين عاشوا فى بقاع مختلفة من هذا البلد، وأعتقد – من الناحية الشخصية – أنه كان من الخطل السماح بحدوث هذا ، حتى ولو كان الأمر مسألة مبدأ، ولا ينبغى حتى مناقشته باعتباره حلاً نظريًا أو ممكنًا، ولكننا نعيش فى عالم عنيف للغاية ، وقد يحدث.

وإذا لم يكن يوجد واجب أخلاقى يدفع حلف الأطلنطى للقيام بذلك فما هى المصلحة - إذن - التى دفعت البلدان الأعضاء فى الحلف إلى ضرب صربيا بالقنابل ؟

لقد كان الهدف بالنسبة لبعض بلدان الحلف عدم فقد المصلحة مع الولايات المتحدة.. وكان ذلك وضع بلدان مثل بولندا التى ليس لها أى مصلحة محددة فى كوسوفا، ومن المؤكد أنها لم تفكر أن عليها أن تشارك فى حرب بعد أن انضمت إلى الحلف، وبلدان أخرى كثيرة كانت لديها جداول أعمال (برامج) معينة مثل إيطاليا وفرنسا. وبالنسبة لبريطانيا العظمى فإن المبدأ التقليدى لسياستها الخارجية الذى تتمسك به وتفكر بمقتضاه، هو أن عليها أن تظل منحازة مائة فى المائة إلى الولايات المتحدة، ولم أقل أن الباقى كان رياءً ونفاقًا؛ لأن هناك من يعتقدون بإخلاص فيما يقولون، لكن من المؤكد أنه ليس دافعًا جديًا للحرب.

وفيما يتعلق بالأمريكيين فإن الحرب فى كوسوفا مسألة أكثر تعقيداً بكثير، وبداية فإن الأمريكيين اهتموا بالبلقان ، لأن أوروبا أخفقته على نحو دراماتيكى فى جلب الاستقرار إلى المنطقة فى مستهل تسعينيات القرن الماضى، ولذا تعين على الأمريكيين أن يتدخلوا؛ لأنهم فهموا فى ذلك الوقت - بوصفهم القوة العظمى الوحيدة - أنه لا يمكنهم أن يظلوا بعيداً عن تطورات الأحداث وذلك لأن جزءًا - على الأقل - من البلقان يعد منطقة استراتيجية لها أهمية بالغة من الناحية الجغرافية لبنية حلف الأطلنطى بحيث لا يمكن تجاهلها، وفى الحقيقة كان الأمريكيون أول من أرسل قوات مسلحة إلى مقدونيا منذ عام ١٩٩٢ ، وأعربوا صراحة فى عهد بوش (الأب) عن مصلحتهم الاستراتيجية فى يوغسلافيا بما فى ذلك مصير كوسوفا، وفعلوا ذلك لأسباب عديدة ليس أقلها إدراك أن الأمم المتحدة لن تكون قادرة على مجابهة أزمة البوسنة وإيجاد حلاً لها، بما أنها ليست قوة مستقلة وإنما تنص على أساس السلطة التى تخولها إياها القوى العظمى، وهكذا وجدت الولايات المتحدة نفسها بعد انتهاء حرب البوسنة فى وضع لا تستطيع أن تتحلل منه ، وإن كان لا يمكنها أن تتصرف بمفردها دون مساندة الحلف. وفى رأيى أن الولايات المتحدة رأت - أيضًا - فى أزمة البوسنة فرصة متاحة؛ لكى تخلع على حلف الأطلنطى دوراً جديداً ، وتمنحه غاية ومغزى جديدين عقب انتهاء الحرب الباردة ،

وهو طموح لم أفهمه وأتبينه تمامًا بعد، واليوم تعتبر الولايات المتحدة نفسها قوة تقع عليها مهمة تحقيق استقرار العالم وأن تلجأ - عند الضرورة - إلى عمليات الشرطة الدولية وبذلك عليها أن تثبت أن قوتها تستطيع - إذا لزم الأمر - التدخل فى أى بقعة على الكرة الأرضية؛ لكى تقهر الأعداء المحتملين خارج منطقة الناتو.

إن مستقبل حلف الأطلنطى هو السبب الحقيقى لتدخل الحلف فى الحرب، ولا يجب أن يغرب عن البال أنه عندما عدَّد كلينتون الأسباب التى دعت إلى اتخاذ قرار حرب صربيا بالقنابل، كان أولها هو الدفاع عن مصداقية الحلف والوثوق به وبالتالى بالولايات المتحدة، ولا أعتقد أنه تصرف تصرفًا حسنًا للغاية و حقق نتائج باهرة ، غير أنه من الجلى أن الحلف شعر بضرورة أن يعمل شيئًا ما، ولكى يمكن حل الأزمة الإنسانية فقد كانت توجد أفعال أخرى كثيرة كان يمكن القيام بها.

- وما الذى يمكن عمله لوقف ديكتاتور يستطيع أن يأتى ما يشاء بشعبه هل يستبعد مسبقًا التدخل العسكرى ؟

- هناك استثناءات بطبيعة الحال، ومن الواضح أن البوسنة تمثل حالة وثيقة الصلة بالموضوع، ومن الناحية الأخرى ثمة عدة معايير يتعين اتباعها، وهناك مثالان مهمان على التدخل العسكرى الذى أوقف بنجاح جرائم ضد الإنسان ، وطرد حكامًا ديكتاتوريين متوحشين، المثال الأول هو غزو فيتنام لكمبوديا للإطاحة بنظام بول بوت ، والمثال الثانى هو تدخل تنزانيا فى أوغندا عندما كان يحكمها عيدى أمين، وأعتقد أن هذين التدخلين كان لهما ما يبررهما، لكن السبب الحقيقى الذى لا يجعلنى أبدى أية تحفظات على هذين الحربين هو نجاحهما وفعاليتهما فى تحقيق أهدافهما وفى فترة وجيزة نسبيًا، وأحد التحفظات لدىَّ على التدخل فى كوسوفا، هو أنه لم يتم بهذه الطريقة؛ لأنه كان واضحًا منذ البداية أن إسقاط عدة قنابل على صربيا سوف يعمل على أن تسوء أوضاع اللاجئين وتتفاقم أحوالهم، وعَلَىَّ أن أضيف أن الولايات المتحدة والصين استمرتا لسنوات - بعد قضاء فيتنام على نظام حكم بول بوت - فى تقديم مساعدة لقوات الديكتاتور، مما يبين بوضوح أيضًا أن سياسات الدول والقوى لا تحددها

فى المقام الأول الاعتبارات الأخلاقية ، وبالطريقة نفسها فإننى أرى أن التدخل الإنسانى فى البوسنة لم يتم تصوره وإدارته بالفعل على هذا النحو، وبذلك لم يكن فعالاً، فقد أعلنوا أنهم سوف يحمون المقاطعات أو الأقاليم المحصورة ، لكنهم لم يتخذوا أى إجراء يمكن أن يكفل تحقيق هذا الهدف.

وإننى أعتقد أن التدخل فى الشئون الداخلية لدولة ما، وعلى وجه التحديد لسبب الاندماج الجديد بين السياسة الداخلية والسياسة الدولية، يجب أن يستجيب لقواعد ومعايير محددة بوضوح تام، ويستلزم الأمر إجراء نقاشين حول هذا الموضوع، وما هى القواعد الجديدة لنظام القوى الدولى؟ ونحتاج إلى العودة إلى وضع لا يستطيع فيه أحد أن يقوم بعمل عسكرى دون وجود توافق واسع النطاق ودون أن يستند إلى مبررات جادة ولا يستطيع العالم أن يسير ويعمل إذا ما كان فى وسع أحد أن يقول فقط : "إننى قوى بما فيه الكفاية لكى أفعل ما أريد ، ولذلك سوف أقوم به".

– لقد حارب الصرب دفاعاً عن سيادة الدولة القومية (الأمة – الدولة) وتمرد ألبان كوسوفا؛ لأنهم ينتمون من الناحية العرقية (الإثنية) إلى أمة أخرى، ومن المفترض أن العولمة بشرت بنهاية الدولة القومية ، ومع ذلك فهى موجودة – أيضاً – تلفها على نحو متزايد كذلك غلالة من التبريرات العرقية والدينية ، ترجع جذورها التاريخية إلى العصور الوسطى. فماذا يحدث ؟

– يتعين علينا أن نميز بين معنيين لمصطلح الدولة القومية (الأمة – الدولة) وهى تعنى فى التعريف التقليدى دولة ذات أراضى إقليمية يتمتع الشعب الذى يعيش فيها – الأمة – بسلطة سيادته، ذلك هو معنى القومية (الأمة – الدولة) الذى انبثق من الثورة الفرنسية وجزئياً من الثورة الأمريكية، وذلك تعريف سياسى للدولة ولا يعد تعريفاً عرقياً أو لغوياً :

فالشعب هو الذى يختار حكومته ويقرر العيش بدستور معين و قوانين معينة، وبالمقارنة فإن المعنى الآخر الذى اتخذه هذا المصطلح أكثر حداثة، ويتكون من الفكرة القائلة: إن كل دولة إقليمية تنتمى إلى شعب معين ، تحدده خصائص وسمات معينة

عرقية ولغوية وثقافية وهو ما يشكل الأمة، و وفقًا لهذه الفكرة فإن أمة واحدة - فقط - هى التى تعيش فى الدولة القومية ويعتبر الآخرون أقليات تعيش فى المكان نفسه لكنهم لا يشكلون جزءًا من الأمة، ويعيش كلا النوعين من الدولة القومية فى أزمة ، غير أنه يتعين علينا أن نميز بينهما، وما نجده فى يوغوسلافيا هو انهيار دولة تعايشت فيها أمم شتى بالمعنى الإثنى للكلمة، حيث نشهد تحولها إلى دول عديدة تعمل كل منها على إقصاء الأمم الأخرى وحرمانها التمتع بحق المواطنة.

وبقدر ما أستطيع أن أرى هناك إمارات ضئيلة للغاية فعلاً من الضغط الجماهيرى من أسفل؛ لكى يتحقق انتهاء الدول المتعددة القوميات - على الأقل - فى ظروف عادية، وقد رأينا ذلك مؤخرًا فى حالة إسكتلندا و ويلز، فهذان الشعبان يشعران بوضوح بعدم انتمائهما إلى الإنجليز ولن يجيزا اعتبارهما كذلك ، لكن حتى الآن ومع وجود حركات قومية الطابع وقوية وحتى مع وجود انفصاليين فى هذين البلدين ، فمازالت هذه الحركات منتشرة بين أقلية من سكانها، وحتى اليوم لا أعتقد أنه يوجد مثال واحد على انفصال تقرر بموجب تصويت ديمقراطى أصيل، ولا أقول إن ذلك من المستحيل ألا يحدث، وإنما أقول إنه برغم كثرة الحديث عن حق تقرير المصير فلم يحدث فى الواقع أبداً، وعندما نتحدث عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها علينا أن ندرك حقيقة أننا لا نتحدث عن حركة قوية من أسفل (شعبية). ومن الطبيعى أنه حالما يحدث انفصال فى الواقع ومهما كانت أسبابه التاريخية فمن اليسير أن تجد أغلبية مناصرة له ، بل أغلبية كبيرة أحيانًا، وحالما تنقسم الدول متعددة القوميات وتتحطم فعندئذ - وعندئذ فقط - تضطر الجماعات الإقليمية إلى أن تجد ارتباطات جديدة وتختار ولاءات جديدة.

ويوغسلافيا خير مثال على ذلك فقد كانت دولة متعددة القوميات، ولم يوجد أى مبرر معقول - فى رأيى - يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت سوف تتفتت نتيجة للضغط السياسى الذى تمارسه مكوناتها القومية ، كما لم يوجد أى مبرر للاعتقاد بأن الاتحاد السوفيتى كان سوف ينفجر بسبب الضغوط الداخلية للقوميات، وحتى فى حالة إمبراطورية هابسبورج لم يوجد خطر حقيقى للتفتيت التام، على الأقل ليس قبل اندلاع الحرب نفسها.

وإن أكثر ما يمكن قوله إنه وجدت ضغوط تحررية وجدوية[١] للانفصال والانضمام إلى أمة أخرى بالنسبة لبضع قوميات كانت تضمها الإمبراطورية، وعلى سبيل المثال فيما بين الأقليات الإيطالية والرومانية التى شجعها القرب الجغرافى من الدول التى تنتمى إليها قوميتها، والحقيقة إنه عندما تزول الإمبراطوريات - لأى سبب كان - فإن القوميات تضطر إلى أن تبتدع الحلول البديلة ، لمجرد أن تجد تبريراً لما حدث.

كيف اخترع التاريخ مبررات قومية ، لكى يخلق توافقًا وإجماعًا من حول نظام معين ؟ وكيف يمكن لهزيمة عسكرية فى القرن الرابع عشر أن تتحول إلى أسطورة مؤسسة لقومية حربية جديدة بعد بستة قرون؟

تعد الأساطير القومية مجالاً آخر يتعين عليك أن تميز فيه بين ما يأتى من أسفل وبين ما يفرض من أعلى، فالأساطير القومية لا تنشأ عفويًا من الخبرات والتجارب الفعلية للشعب ولكنه يكتسبها من أشياء أخرى أو أشخاص آخرين: من الكتب ومن المؤرخين ومن الأفلام وحاليًا من أولئك النين يصنعون التليفزيون، وهى لا تشكل بوجه عام جزءًا من الذاكرة التاريخية أو الموروث الحى ، باستثناء بعض الحالات الخاصة ، حيث يكون ما قد يصبح فى نهاية الأمر أسطورة قومية هو ثمرة من ثمار الدين، وهناك حالة اليهود ، حيث يشكل الطرد من أرض إسرائيل والعودة المؤكدة إليها جزءًا من الممارسة الدينية والأدب، وضمن حدود معينة فإن هذا يصدق - أيضًا - على الصرب لأن خسران الدولة الصربية فى العصور الوسطى أصبح جزءًا من الطقوس الدينية الأرثوذكسية وأضحى جميع أمراء الصرب - تقريبًا - رموز الإيمان الأرثوذكسى، وتلك حالة خاصة، ولكن هنا أيضًا فإن الأمر لا يتعلق بشعب يتذكر دائماً، فهو يتذكر لأن هناك من يذكره باستمرار.

والمثال المتطرف - وهو تصوير بارع لهذه العملية - هو حالة إسرائيل ولا يمكن أن يوجد أدنى شك فى أن الأسطورة التاريخية للطرد من فلسطين وحلم العودة إليها

(١) إشارة إلى مبدأ سياسى ينادى بتحرر المقاطعات المتصلة تاريخيًا أو عرقيًا بوحدة سياسية ما (والتى تخضع فى حينها لوحدة أخرى) وجمعها فى نطاق هذه الوحدة الطبيعية (م).

لم يتم تصورها كبرنامج سياسى قبل نهاية القرن التاسع عشر، والحق أنها تأسست بمعزل عن المصائر التاريخية للشعب اليهودى، ولم تعتبر العودة إلى إسرائيل - بقرون - هدفًا عمليًا ، لأن اليهود اعتقدوا أنهم لن يعودوا إلى القدس قبل أن يأتى المسيح وبطبيعة الحال فإن اليهود اعتقدوا ومازالوا يعتقدون أن المسيح لم يأت بعد، والحق أنه فى ١٩٦٧ فقط - وللمرة الأولى - وجد اتجاه داخل الديانة اليهودية لقبول دولة إسرائيل ، على أساس أن الانتصارات التى تحققت فى حرب الأيام الستة تتسم بطابع إعجازى للغاية ، بحيث تشير إلى أننا ندخل فعلاً فى الفترة التى سيأتى فيها المسيح، وقد كانت أحداث التاريخ التى جاءت مصادفة هى التى جعلت من الممكن للإيمان التقليدى (الأرثوذكسى) أن يتقبل ما كان يرفضه كليةً حتى ذلك الوقت.

وفى الواقع أن الصهيونية قد عارضتها دائمًا وبشراسة الديانة اليهودية التقليدية (الأرثوذكسية). وعلى أى حال فإن إسرائيل وجد اليوم، وإن إسرائيل ليس لها أى أساس تاريخى، وعلى النقيض تماماً فهى تتعارض مع مجمل "تاريخ الشعب اليهودى ، بدءًا من الإمبراطورية الرومانية حتى نهاية القرن التاسع عشر"، وإن التاريخ الوحيد الذى تستطيع إسرائيل أن تستخدمه لتبرير نفسها هو التاريخ الذى يبلغ عمره ألفى عام على الأقل، وكل شىء آخر حدث فى غضون ذلك يجرى حجبه والتغاطى عنه؛ لأنه لا يبرر الأساس الذى تقوم عليه إسرائيل والحروب التى خاضتها تلك الدولة. وحقيقة أن المعبد أقيم فى القدس قد تحولت إلى حقيقة سياسية حديثة؛ لكى يمكن زعم أن القدس كانت دومًا مركز الديانة اليهودية وبالتالى عاصمة الشعب اليهودى (وفوق ذلك لا معنى للحديث عن العواصم فى فترة سابقة على الإمبراطورية الرومانية ، لكن تلك مسألة أخرى) وعلى أى حال فقد استخدم اليهود حجة المعبد؛ لكى يبرروا ليس فقط الأساس الذى تقوم عليه دولتهم ، بل قيام القدس كعاصمة لهم.

إن هذه الحجة تماثل بدرجة أو أخرى تلك التى استخدمها الصرب فى كوسوفا، وبهذه الطريقة يتم تبرير وضع سياسى راهن بما لا علاقة له بالحاضر، لكنه كان حقيقيًا منذ ستة قرون أو ألفى عام، ويستخدم لإعادة ترتيب كل ما حدث فى الفترة

المتخللة بينهما، وبذا يخلق تاريخ مناضل وبطولى على نحو كاف، وهو ما كان مناسبًا لإسرائيل فى ١٩٤٥ أو لصربيا اليوم، وأفضل مثال على ذلك هو ما أصبح نوعًا من الشعيرة أو الاحتفال التاريخى ومحوره صخرة أو قلعة المسادا (مسدة) masada[١] ووفقًا لعلماء الآثار القوميين فإن مسدة هى المكان الذى قاوم فيه تسعمائة يهودى الحصار الرومانى حتى النهاية، مفضلين الانتحار الجماعى، وقد تحولت هذه الحادثة إلى شعيرة قومية يشارك فيها كل شاب إسرائيلى فى مكان يزوره السياح الأجانب، وقد أنجزت هذه العملية عبر الزمن وعلى وجه الإجمال مع إخفاء تلك الجوانب من القصة التى لا تلاءم الهدف القومى، وإسرائيل مجرد مثال واحد ، وإن يكن مثالاً دالاً، إن علم الآثار الإسرائيلى الذى اصطبغ بصبغة سياسية بالغة منذ البداية ، قد أهمل - تقريبًا - جميع الجوانب الأخرى المتعلقة بالآثار المحلية بغرض التركيز على تبرير الأسس والدعائم التى تنهض عليها إيديولوجية وطنية قومية.

ويصدق الشىء نفسه على اليونان القديمة، وعندما أصبحت مستقلة فلم تكن أثينا عاصمتها بأى حال من الأحوال، ولم تصبح فى واقع الأمر عاصمة لليونان على الإطلاق، وقد كانت مدينة مهمة للغاية فى العصور الوسطى القديمة الكلاسيكية، بيد أنها اختيرت كعاصمة من قبل أولئك الذين احتاجوا - كما حدث فى إسرائيل - العودة إلى ماض جديد له صلة محدودة بالواقع التاريخى، وفضلاً عن هذا فإن ٥٠٪ من سكان أثينا كانوا من الألبان، وقد غدت ما قد أصبحت عليه عندما أعاد تشييدها الملك البافارى الجديد فى أسلوب نيو كلاسيكى ، بحيث يمكنها البداية فى التشبه بما زعموا أنها كانت عليه دومًا : عاصمة اليونان قديمًا الموحدة، وبقول آخر فإن الماضى أعيد تصميمه ، على نحو يشبه قليلاً تصميم الأزياء الفاخرة؛ لكى يمكن إضفاء هدف سياسى معين

(١) قلعة المسادا تقع فى فلسطين بالقرب من البحر الميت لجأت إليها طائفة يهودية بعد استيلاء الرومان على أورشليم، وقد حاصرها الرومان لمدة عامين. وفضل سكانها الانتحار الجماعى على الاستسلام، وعندما دخلها الرومان وجدوا سبعة أحياء فقط، وقد أصبح هذا المكان مرارًا سياحيًا. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن هذه المجموعة عبارة عن عصابة من القتلة عرفت بلجوئها إلى الاغتيال السياسى وقد تتم طردهم على أيدى اليهود أنفسهم وهلكوا فى أعلى المسادا. (٢) عام ١٨٣٠ م.

فى ملبس أنيق بحيث تستطيع الصفوات والأقليات المثقفة التى تحكم فرص رؤيتها للتاريخ والأدب على بقية الشعب.

ووقت الاستقلال (١٨٣٠) لم يفكر اليونانى العارى البتة فى فكرة اليونان الحديثة كوريث لليونان القديمة وأثينا وبيركليس، ولم يشترك اليونان فى القتال لاستعادة العصور القديمة الكلاسيكية وإنما على الأرجح؛ لأنهم شعروا أنهم كانوا يقاتلون دفاعًا عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الأتراك ومن أجل الإمبراطورية البيزنطية ضد من أوقعوا بها الهزيمة، وكانت بيزنطة والعقيدة الأرثوذكسية هما الموروث الحى الحقيقى لليونان.

وبطبيعة الحال عندما تنشأ دولة جديدة بنظام تعليمى جديد فإن الشعب يتعلم إن عاجلاً أو آجلاً، ويتأثر إلى حد ما بعملية الاستعادة والتعمير التاريخية هذه، وفى حالة اليونان فقد حاولوا إيجاد لغة أدبية جديدة أقرب إلى اللغة الكلاسيكية.

وهناك عامل آخر قوى صالح فى كل مكان وليس فقط عند تأسيس الدول الجديدة ، وهو الاحتياج إلى"الدائم" و "الأساسى" أو "الأصلى" ويكتسب ذلك أهمية سيكولوجية عظمى عند الأفراد والجماعات على السواء ، ولا سيما فى النصف الأخير من القرن العشرين ، حقبة التغير وعدم الأمن المطرد وحتى فى المناطق التى لا يمكن العيش فيها فى انعزال ، مثل الولايات المتحدة حيث تأتى موجة وراء موجة من القادمين الجدد بغرض الاستقرار، فإننا نستطيع أن نرى بروز الحاجة إلى أن تكون لك الأولوية أو الأسبقية ، وأن تكون قادرًا على القول "نحن هنا، وتلك أرضنا، ولا آخرين أتوا لاحقًا أو بعدنا، فنحن الذين كنا هنا دائمًا وأبدًا" وذلك نوع من الرواية الدنيوية للأبدية.

وهو ما يذكرنى بالمثال الفريد للحركات السياسية للهنود الأمريكيين، ويتفق دارسو ما قبل التاريخ عامةً على أن الجنس البشرى وصل إلى أمريكا عن طريق وصول المحيط الهادى من شمال شرق آسيا إلى ألاسكا ، ثم استعمر القارة تدريجياً، وحدث ذلك مؤخرًا نسبيًا ، أى منذ حوالى مائة ألف سنة. وبالنسبة للنشطاء فى حكومة السكان

الأمريكيين الأصليين[١] فإن هذا يعد لبعض الأسباب نظرية غير مقبولة تمامًا ، لأنها تجعلهم أحدث أو أصغر سنًا أكثر مما ينبغى، وهكذا من الممكن أن تجد خبراء يقولون "نحن لأنهم بما يقولوه ما قبل التاريخ، فقد كنا هنا دائمًا ونحن هنا قبل أى أحد أخر فى العالم" وتوحى إلىً عدم معقولية هذا الزعم بأنه لابد وأن تكون له جاذبية عاطفة صادقة وقوية للغاية، وهو ما يصدق بصفه خاصة على أولئك الذين ليس فى وسعهم - لأسباب أخرى - أن يكونوا متأكدين من فرادتهم الاستثنائية أو من بقائهم دائمًا حيث هم ، لأنهم تعرضوا لامتزاج متواصل وتحركات مستمرة حول الكرة الأرضية.

ويعتبر - لبعض الأسباب - ميزة من زاوية علم النفس الاجتماعى- أن يكون فى وسعك أن تتباهى بتاريخ ممتد، ولهذا السبب فإن النزعة القومية برغم كونها ظاهرة حديثة تزعم دائمًا أنها قديمة للغاية، وذلك لأن العصر القديم المهيب يشبع الحاجة الديمومة وحقوق التقدم والسبق على الآخرين، وبناء عليه فتلك ظاهرة بالغة التعقيد ، ولا نستطيع تفسيرها إلا من خلال عمليات التقريب ولا توجد تفسيرات وحيدة مقنعة.

(١) ابتداء من الخمسينيات استخدام مصطلح mative بدلاً من الهنود الأمريكية وأصبح سائدًا منذ سبعينيات القرن الماضى، ويفضله البعض باعتباره أكثر دقة للدلالة على السكان الأصليين لأمريكا وربما كان أكثر تحديدًا من مصطلح الهنود الأمريكيين (م).

الفصل الثانى

انحطاط الإمبراطورية الغربية

إن الانفجارات ذات الطابع القومي - التى حللتها آنفًا - رافقتها - مع ذلك - انحلال الدول فى بقاع كثيرة من العالم وانهيار المؤسسات والنظم القانونية والاستعاضة عنها بحكم العصابات العنيفة والجماعات الإثينية (العرقية). وعلى النقيض - مما سبق - فإنه يمكن أن يستعاض عنها ببساطة ، كما فى حالة الملاذات الضريبية بمجالس إدارية للرأسمالية الكونية. فما هو مستقبل الدولة بوصفها مؤسسة فى القرن القادم؟

- أعتقد أننا نواجه عكس العملية التى امتدت لقرون الموجة التاريخية الطويلة التى تحركت صوب التشييد والدعم التدريجى للدول الإقليمية أو الدول القومية (الأمة - الدولة) بالمعنى السياسى لهذا المصطلح، وهو اتجاه هيمن على العالم المتقدم على أقل تقدير منذ القرن السادس عشر إلى حوالي - فلنقل - ستينيات القرن العشرين. والأمر المثير للاهتمام أن هذه العملية تطورت كليةً فى معزل عن الطابع الأيديولوجى للدول، خاصة منذ القرن الثامن عشر، وانطبق ذلك على جميع نظم الحكم ، بغض النظر عما إذا كانت الدولة ليبرالية أو محافظة أو فاشية أو غير ذلك، وغدت الدولة قادرة أكثر فأكثر على تحديد المنطقة التى تحكمها والسكان الذين تحكمهم، وتزودت بقدر هائل ومتزايد دومًا من المعلومات المتصلة بسيادتها ، وأضحت أكثر فعالية فى أداء واجباتها الإدارية. ويقول آخر، اكتسبت مسئولياتها ومجالات تدخلها، وعندما بلغت هذه العملية أوجهًا فى منتصف "القرن القصير"، لم يبق إلا النذر اليسير لم يكن خاضعًا لسيطرة الدولة.

ولعلك تتذكر نظرية المواطنة التى قدمها توماس مارشال عالم الاجتماع الإنجليزى، إذ تأتى فى المقدمة المواطنة المدنية والقانونية ومواطنة الحقوق ، ثم المواطنة السياسية التى تنطوى على المشاركة، وأخيراً تأتى المواطنة الاجتماعية، وبالنسبة للدولة فهذا يعنى أنها تولت احتكار القانون وحولته إلى قانون دولة، ثم أصبحت السياسة سياسة قومية وخضعت لها جميع الأشكال الأخرى للسياسة أو غدت تعتمد عليها. وأخيراً وسعت الدولة مجال نشاطها.

بدءاً من فرص سيطرتها على جيشها ، منذ القرن السابع عشر على الأقل وانتهاءً بإدارة الصناعات ، وتخطيط الاقتصاديات بأكملها بحث لم يظل أى شىء – تقريباً – خارج نطاق سيطرتها، ولا أشير هنا إلى نظام الحكم الشمولى ولو كانت المملكة المتحدة أكثر دولة ليبرالية فى مستهل القرن الثامن عشر بالغة القوة فعلاً، ليس فقط فيما يتعلق بمعرفة ماذا كان يحدث داخل أراضيها، بل أيضاً فى إدارتها والتحكم فيها.

وحتى القرن التاسع عشر لم يكن فى استطاعة أى دولة أن تضطلع بإجراء تعداد دقيق للسكان، وقبل ذلك كان من المستحيل فعلياً وجود نظام فى وسعه أن يراقب عملياً سكان الريف. حتى أنه كان من الصعب معرفة الأوضاع الدقيقة للحدود الإقليمية للسيادة القومية، وبالرغم من وجود جبال البرانس التى تشكل حداً فاصلاً بكل وضوح ، فلم يتم ترسيم الحدود بين فرنسا وإسبانيا على نحو تفصيلى إلا بموجب معاهدة ١٨٦٨م، وهذا الاتجاه لدى الدول الإقليمية لزيادة تدقيقها ومعارفها وقدرتها التكنولوجية وسلطتها وطموحها استمر دون انقطاع – تقريباً – حتى أثناء الفترة التى سادت فيها الاقتصاديات الحرة التى رفعت شعار "دعه يعمل"، وتواصل إلى نهاية عقد الستينات.

ومثالان على ذلك : أحدهما هو النجاح الفائق الذى حققته الدول الرئيسية فى العالم إبان القرن التاسع عشر فى مجال نزع سلاح شعوبها، وبمعنى آخر منحت وكالاتها وهيئاتها احتكار وسائل القهر والقمع، وقبل ذلك كان نزع سلاح الفلاحين أيسر من نزع سلاح النبلاء، وقد ناقش مكيافيللى هذه المشكلة باستفاضة.

وفى القرن التاسع عشر، فإن مقدرة غالبية الدول على منع السكان من التجوال مسلحين جديرة بالملاحظة حقا، وتعد الولايات المتحدة من الاستثناءات النادرة، حيث اختارت ألا تفعل ذلك، برغم أنها كانت تستطيع القيام به، وهو ما فعلته كندا مثلاً، والمثال الآخر هو الحفاظ على النظام العام، الذى يعد جزءًا من الظاهرة نفسها. وكان مستوى النظام العام فى البلدان المتقدمة فى أوروبا حدثًا تاريخيًا خارقًا للعادة تماماً.

وهناك عامل آخر لم يتحقق مع مقدم الديمقراطية بقدر ما تحقق مع انغماس الناس العاديين فى العملية السياسية، وهذا العامل هو الولاء التطوعى وخضوع المواطنين لحكوماتهم، وهذا الولاء ليس للنبلاء أو الأرستقراطيين وإنما للدولة والأمة، والحروب التى قامت على أساس التجنيد ما كان ممكنًا أن تفشى دون هذا الولاء.

وربما تتذكر ما كتبه توماس هوبز "إن الأمر الوحيد الذى لا تستطيع أى دولة، ولا حتى الطاغية الديكتاتورية، أن تقوم به هو أن يجبر الناس على القتل وأن يكونوا راغبين فى أن يقتلوا" ومع ذلك، فإن الدول الحديثة تمكنت من أن تفعل هذا على وجه الدقة وأن تقوم به مرارًا وتكرارًا.

وعلى الرغم من أنها فعلت ذلك مرارًا عن طريق التجنيد، فإنها نجحت فى ذلك - أيضًا - عن طريق مناشدة المواطنين وإقناعهم بأنه إذا كان عليهم أن يتحدوا مع الجماعة فعليهم أن يكونوا مستعدين للقيام بذلك الفعل السامى وهو التخلى عن حريتهم وحياتهم.

واعتبرت الطاعة الاختيارية للدولة عنصرًا أساسيًا فى المقدرة على تعبئة السكان، وأيضًا فى تحقيق الديمقراطية. لقد تطورت هذه العملية عبر القرون وبلغت أوجهها فى ستينيات القرن العشرين، حالمًا جرى تنظيم جميع البلدان - بما فى ذلك أكثرها رأسمالية - كدول تتمتع بسلطات ضخمة. وهو ما صدق على الولايات المتحدة أيضًا أكثر من غيرها.

ويبدو أن هذا الاتجاه بدأ يتوقف، ولست أدرى ما إذا كان قد ارتد على أعقابه وإن كان من المؤكد أنه فقد زخمه منذ ستينيات القرن العشرين. ولنكن واضحين فى هذا الصدد، إذ لا يعنى أن سلطة الدولة غدت مقيدة محدودة نظريًا على أقل تقدير. والحق أن مقدرتها على أن تكتشف ما يحدث داخل أراضيها - وإن تراقبه - مازالت أعظم مما كانت فى أى وقت مضى، فالدولة الآن قادرة على التصنت على أى محادثة بالفعل، حتى ولو كانت على قمة جبل، ونحن نشهد نموًا هائلاً فى استعمال كاميرات الفيديو التى تعمل طوال الوقت وبلا توقف، وتراقب كل مكان عام، وأصبحت درجة المراقبة الممكنة حاليًا أكبر وأكثر تغلغلاً ونفاذًا مما كانت فى أى وقت فى التاريخ، ولذلك لا أستطيع القول إن الدولة فقدت سلطتها.

ومع ذلك فقدت الدولة إلى حد ما، على سبيل المثال احتكارها لوسائل القمع. وهو ما يرجع - جزئيًا - إلى التيسير الهائل فى بعض أنواع الأسلحة حاليًا، كما يرجع أيضًا إلى تضاؤل عزوف المواطنين عن الاستخدام، وهو ما أعتقد أن له أهميته الخاصة. وبقول آخر، فإن التغير يتمثل فى أن المواطنين أضحوا أقل استعدادًا لطاعة قوانين الدولة مما كانوا عليه فى الماضى، ومن أهم الأمثلة على هذه الظاهرة أحداث ١٩٦٨ . وإذا ما تمت المقارنة بين سلوك الطلبة من اليسار الجديد والراديكاليين فى المحاكم الأمريكية وبين الموقف السابق للمدعى عليهم من الشيوعيين، فإننا نلاحظ إنه برغم أن الأخيرين رفضوا تقديم معلومات عن أنفسهم استنادًا إلى المادة الخامسة المعدلة من الدستور الأمريكى (التى تتيح رفض الإدلاء بالشهادة المسيئة إلى النفس- المترجم) فإنهم تصرفوا بما يتمشى - تقريبًا - مع القوانين السائدة التى قبلوها فى مآل الأمر، ولكن اليسار الجديد - من الناحية الأخرى - لم يتمش مع القوانين السائدة، رافضًا الإجراءات بكاملها، وتصرف كما لو لم يعد يعترف بالمبادئ الأساسية التى تنظم إدارة الشئون العامة، والتى اعتبرت من قبل واجبًا على كل مواطن.

ومثال آخر هو النظام العام، ففى سبعينيات القرن العشرين أبلغ قادة الشرطة البريطانية الحكومة أنه لم يعد ممكنًا ضمان السلم الداخلى والنظام العام اللذين جرى

الحفاظ عليهما وكفالتهما حتى الآن، وكانت المظاهرات التى نظمت ضد حرب فيتنام مثالاً آخر: حيث غدت أشبه بالانتفاضات منها بالمظاهرات السلمية، وقد بلغت قوة الدولة الحديثة ذروتها عندما كان الاحتجاج الاجتماعى يتم فى نطاق مؤسسى بطريقة أو أخرى كجزء من العملية السياسية العادية، كما لو كان شعيرة تقريبًا. وقد انتهى ذلك أيضًا فى أوروبا فى السبعينيات من القرن العشرين.

وتمثل الدليل الواضح على هذه الظاهرة فى عدم المقدرة - عبر فترات طويلة من الزمن - على التخلص من القوى المسلحة المنظمة الموجودة داخل الأراضى الإقليمية التابعة للدولة القومية حتى فى ظل وجود حكومات قوية وعلى سبيل المثال فإن منظمة "I R A" الأيرلندية مثلت لمدة ثلاثين عامًا التعايش فى أيرلندا الشمالية بين إدارة حكومية عادية وعناصر لحكومة إقليمية خاضعة للسيطرة، وحدث هذا برغم حقيقة أن منظمة "I R A" يتوفر لديها عتاد ورجال أقل إلى حد بعيد مما هو متاح للدولة، ويمكن أن يكون هذا الأمر ظاهرة مؤقتة غير أن ما هو مؤكد أنه تقوى منذ السبعينيات من جراء تشبع الحكومات بعقيدة لاهوتية تؤمن بتفوق الأسواق الحرة، التى ينصب اهتمامها بوضوح على معاداة الدولة بغرض إضعافها مع العمل على عكس الاتجاه التاريخى عن عمد والمتمثل فى الدور المتزايد فى قوته للدول فى المجال الاقتصادى ومسئوليتها الأخرى بالحاجة.

ولا يعنى هذا تحلل الدول، وعلى الرغم من أنه قد تعين على بريطانيا العظمى أن تعيش فى وضع يشبه - تقريبًا - الحرب الأهلية بين فصائل مختلفة لمدة ثلاثين عامًا فإن سلطتها لم تتحلل برغم أنها يمكن أن تكون قد ضعفت. بيد أننى أود أن أؤكد على حدوث تغير فى العلاقة بين الدولة وبين الأنشطة غير الخاضعة لدولة والتى تتم داخل حدودها الإقليمية.

ويتمثل الجانب الآخر للمشكلة فى تلك المناطق التى تتجه فيها جميع أشكال الدولة إلى زوال وتوجد الآن (وهو أمر جديد تمامًا على ما أعتقد) مناطق شاسعة فى إفريقيا وأجزاء ضخمة فى وسط آسيا وغربها، حيث يتعذر من الناحية العملية الحديث عن دولة وظيفية، وربما يصدق ذلك على البلقان. ومن غير الواضح إلى أى مدى نستطيع أن

نتحدث اليوم عن دولة وظيفية فى ألبانيا. والتباين صارخ، لأنه وجدت دولة فى ألبانيا حتى نهاية الشيوعية تمامًا كما وجدت فى شمال القوقاز، وإن لم يعد لها وجود، وأعتقد أن هذا الانعكاس فى عملية تقوية الدولة القومية (الدولة -الأمة) التى امتدت لقرون عديدة والتحلل والزوال العملى لبعض الدول إنما يرتبط بفقدان سياسة الدولة على الاحتكار الفعلى لقوة القهر والقمع، وفى بعض الأحوال لم يعد للدولة وجود كما فى أفغانستان، وحل محلها العداء المستحكم بين الفصائل المسلحة بدرجات مختلفة والتى ترتبط بدرجة أو أخرى بملاك الأرض والأرستقراطيين، وتتفائل هذه الفصائل بغية التوصل إلى نوع من التوازن كما حدث مع إقطاع القرن الخامس عشر. وفى أماكن أخرى، كما فى إفريقيا مثلاً، لم يصل الوضع إلى هذا النحو.

وأعتقد أن تحلل الدول فى هذه المناطق من العالم يعد بصفة أساسية ثمرة انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية ونهاية الحقبة التى سيطرت فيها القوى الأوروبية الكبرى على قطاعات واسعة من العلم، حيث وجدت مجتمعات غير محكومة بدول عليها قدرًا من النظام الداخلى والخارجى، وهو ما يسرى - أيضًا - على الأراضى التى فتحتها روسيا بعد ١٨٠٠ م، كما فى القوقاز، وقد اتضح الآن أن هذه العملية لم تكن فى حالات قليلة فقط أكثر من مجرد عملية فرص من الخارج، وفى ألبانيا مثلاً ، حيث لم تقم دولة قبل ١٩١٣ ، بسبب عدم وجود ألبانيا، فإنه لا يمكن أن يوجد أدنى شك فى أنه نهضت دولة وظيفية فى ظل الحكم الشيوعى، حتى ولو كانت ثمرة حل وسط فيما بين قوى لا يضمها إطار دولة ما، لكن حالما زال هذا القطاع فى الواقع، ارتدت ألبانيا إلى نظام أشبه بحرب العشائر، كما حدث فى الشيشان.

ويلوح لى أن ما حدث فى هذه البقاع من العالم يماثل من بعض النواحى ما حدث فى أوروبا عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية، فلم تعد توجد أى سلطة مركزية وتوفرت فى بعض الأحوال سلطات محلية تمكنت من أن تمارس مهامها، وفى أحوال أخرى حدث غزو من قبل جماعات جاءت من الخارج تمكنت من ترسيخ وجودها، بيد أن مناطق شاسعة فى أوروبا افتقرت فى واقع الأمر إلى وجود هياكل دائمة وعامة يستلزمها وجود الدولة، وامتد ذلك لفترة طويلة من الزمن. وأعتقد أن هذا هو ما يحدث

ثانية فى بعض البقاع العالمية، مما يخلق مشاكل جادة وخطيرة فى قيام علاقات مع البقاع الأخرى من الكرة الأرضية التى لم يحدث فيها مثل ذلك: أوروبا وأمريكا وشرق آسيا، وهو ما يثير مسألة التفاعل بين العالم الذى توجد فيه دول والعالم الذى لا توجد فيه دول.

ويصعب القول ما إذا كان العالم سوف يغدو أكثر صعوبة فى تدبير شئونه أو كذلك بسبب المشكلة المشار إليها آنفًا، أى طاعة الشعوب لحكوماتها، وقد وجد افتراض عام فى معظم فترات التاريخ بأن المواطنين سوف يدينون بالطاعة لحكومة فعلية مهما كانت نوعيتها وبغض النظر عما إذا كانوا يرتضونها أم لا. والحق أنه تم قبولها فى بعض الحالات بسبب قوتها، وفى حالات أخرى جرى قبولها على أساس الفكرة التى أبداها هوبز، وفحواها إن أى حكومة فعلية أفضل من لا حكومة على الإطلاق، وعلى سبيل المثال عندما فتح البريطانيون الهند تمكنوا من حكم هذا القطر فترة طويلة للغاية بما يربو قليلاً على بضعة عشر آلاف رجل بما فيهم الجنود. وإذا سلمنا بأنهم كانوا يحكمون قطراً يتجاوز سكانه مئات الملايين، فقد كان يتعذر تحقيق ذلك ما لم تقرر غالبية السكان الموافقة على نظام الحكم، وقد قبل الهنود الآخرين فى الماضى وكانوا من الأجانب أيضًا، وارتضوا بهم هذه المرة كذلك. وذلك هو السبب فى النجاح الفائق لأغلبية الدول الإفريقية فى حكم إمبراطوريات استعمارية ضخمة، وفى النهاية فإن حفنة ضئيلة للغاية من البشر التى قاومت، وبكل تأكيد ليس أولئك الذين تعودوا بالفعل على العيش فى ظل قيام حكومة من نوع أو آخر. وإن أولئك الذين عاشوا فى مجتمعات بدون دولة هم – فقط – الذين رفضوا الخضوع، كما فى حالة أفغانستان أو المجتمعات القبلية التى عاشت فى غرب الولايات المتحدة الأمريكية أو الأكراد أو بربر المغرب، والشعوب التى قاومت هى أساسًا الشعوب التى كان يمكن أن تقاوم أى شكل من أشكال الحكومة، سواء أكانت حكومتهم أو حكومة أجنبية، وما أعنيه أن أغلبية الشعوب فى العالم ارتضت فكرة أن تكون محكومة.

والوضع الجديد فى ختام القرن القصير وعقب تعبئة الشعب من أسفل (لأن هذا القرن كان قرن عامة الناس، بالنظر إلى اضطلاعهم بدور أساسى فى إدارة الشئون العامة)

يتمثل فى أنه لم يعد من الممكن أن يؤخذ هذا الاستعداد لتقبل سلطة عليا كقضية مفروغ منها، وعلى نحوها فإن المقاومة أثناء الحرب العالمية الثانية فى أوروبا تعتبر متقدمة لهذه الظاهرة، وتمثل رد الفعل التقليدى فى حكومة بيتان petain أو حكومة فيشى (التى قامت بعد احتلال النازية لفرنسا) نحن خسرنا الحرب وهم كسبوها وعلينا أن نتقبل الوضع الجديد وربما كان هذا رد فعل عقلانى، بيد أن حركة المقاومة رفضت رفضًا تامًا أن تتوافق مع هذا الوضع الجديد وكان ذلك إيذانًا ببدء عملية التغيير.

ولهذا السبب يبدو لى أن الحل الواضح الذى طبق فى القرن التاسع عشر فى تلك المناطق فى العالم التى شهدت تحول الدول والذى تمثل فى تحويلها إلى مستعمرات، لم يعد صالحًا للتطبيق. وهو مكلف للغاية ونتائجه غير مضمونة، ولنأخذ المثال الذى قدمته فى كتابى "عصر التطرف" فيما يتعلق بالصومال وقد واجه البريطانيون والإيطاليون دائمًا مشاكل فى إدارة هذا البلد، غير أنهم لم يصادفوا فى أى وقت مصاعب جديدة فى حكمه كمستعمرة. بل إنه لم يقترح أحد أنهم يتعين عليهم الانسحاب. وفى تسعينيات القرن العشرين تدخلت الولايات المتحدة لأسباب إنسانية وقبل أن يتاح لها الوقت للتعرف على مواقعها وتحديد اتجاهاتها تم طردها بالفعل، ولم تعد الشعوب فى بلدان كثيرة مستعدة لقبول هذا المبدأ القائل إنه لا تجدر مقاتلة جيوش الاحتلال.

ويصدق ذلك أيضًا على البلقان، وكانت الحجة السائدة فى الماضى إنه عندما يواجه بلد صغير التفوق الكاسح والجلى لخصمه فلابد إنه يقول إن آجلاً أو عاجلاً: "حسنًا، ليس هناك الكثير مما يمكن عمله لوقف تقدمه" وكان هذا معقولاً جزئيًا، غير أنه تصادف أن ذلك لم يعد يحدث بهذا القدر من السهولة، ولهذا سيغدو صعبًا أكثر فأكثر معرفة ماذا يمكن القيام به فى هذه المناطق، لأن التدخل الفعلى سيقتضى الحشد الدائم لقوات قد تكون بلدان قليلة على استعداد للإبقاء عليها، أو قد تفعل ذلك فى حالة ما إذا كان بقاؤها عرضة للخطر. وعلى سبيل المثال، فإن بريطانيا العظمى لن تحشد الموارد اللازمة نفسها للقيام بعمل ما فى كوسوفا مثل تلك المستخدمة فى أيرلندا الشمالية، لأنه ليس لها الأهمية نفسها. وإذا تمت المقارنة بين تكلفة حكم البوسنة بعد الحرب وبين تكلفة حكم إحدى المستعمرات فإن الفرق يتجاوز كل الأبعاد

والنسب، وأعتقد أنه وجد ٦٤٠٠٠ جندى فى البوسنة الصغيرة وهو ما يضاهى - تقريبًا - العدد الذى احتاجته بريطانيا لحكم شبه القارة الهندية والحفاظ على النظام العام.

تعد مشكلة وسط وشرق أوروبا التى لم تجد حلاً بعد محور الأزمة الأوروبية، والتى سرعان ما تفجرت حالما تمزقت الغلالة الرقيقة التى كانت تغلف الإمبراطورية السوفيتية أثر سقوط حائط برلين، ولقد سبق لك القول إنه لم توجد عندما ولدت سوى ست دول من بين الثلاث والعشرين دولة التى تظهر على الخريطة حاليًا فيما بين ترستا والأورال، وإذا أخذنا شخصًا ما فى مثل عمرك، حيث جاء مولده فى المدينة المعروفة حاليًا باسم LVIV(١) وقد عرفت باسم lwow و lemberg لكان من الممكن أن يعيش فى ظل أربع دول، دون احتساب فترة الاحتلال أثناء الحرب، فهل تحيط الشكوك إذن بمصير هذه الشعوب وهذا الجزء من أوروبا، ويظهر أن محاولة التعايش فى ما بين القوميات المتعددة التى شرع فيها ستالين فى الاتحاد السوفيتى وتتوفى فى يوغوسلافيا لم تترك أثرًا واحدًا فى وعى هذه الشعوب.

لا نعرف بعد ما هى الآثار بعيدة المدى لهذه النظم على الشعوب التى تحكمها، برغم أنه من الواضح أنه ستوجد آثار طويلة الأجل، وعلى سبيل المثال فنجن نرى أى حركة فى وسط الفلاحين الروس للعودة إلى المشروع الخاص فى الزراعة، ولو أن القطاع الخاص فى الزراعة كان يمثل الجنة للفلاحين الروس قبل تطبيق نظام الملكية الجماعية فى العشرينيات من القرن العشرين، وهناك آثار أخرى امتدت لأجيال عدة، وقد قرأت مؤخراً مقاله عن اليهود الروس فى إسرائيل تشير إلى أنهم يزعمون أنهم وصلوا إلى إسرائيل - خلافًا لبقية اليهود - دون أى شعور بالنقص، ولم يتأثروا

(١) الاسم البولندى ثم الاسم الألمانى على التعاقب. وهى مركز ثقافى و صناعى مهم تقع فى أوكرانيا قريبًا من الحدود البولندية. أصبحت فى ظل الحكم النمساوى ابتداء من ١٧٧٢م عاصمة غاليسيا وتم التنازل عنها لبولندا عقب الحرب العالمية الأولى ثم الاتحاد السوفيتى فى ١٩٣٩م وقد احتلها الألمان أثناء الحرب وقد قام بابا روما أثناء زيارته الأخيرة لأوكرانيا بإقامة أكبر صلاة له أجراها أثناء زيارته لهذه المدينة (المترجم).

بالأعراض المريضة التى تزامنت مع الهولوكست، وقد عبروا عن موقفهم قائلين "لقد حاربنا هتلر وهزمناه" و ذلك برغم معاناتهم "معاداة السامية" فى روسيا، وفضلاً عن هذا فإن هؤلاء اليهود كانوا أكثر علمانية من غيرهم، لقد وجدت تأثيرات دائمة ومستمرة على الشعوب التى عاشت فى ظل هذه الأنظمة لعقود طويل.

بيد أنه لا تتوفر لدينا البحوث الملائمة، لكى نحدد ما هى هذه الآثار وماذا سيكون مداها الأبعد.

ولطبيعة الحال فإن عودة ظهور العداوات القومية المأساوية فى هذه البلدان يصعب تفسيرها من بعض النواحى، خاصة أنه يبدو أنها زالت واختفت - تقريبًا - بفعل العدد الكبير من حالات الزواج المختلط، لا سيما فى المدن. ومن المحرج أن هذه الظاهرة كانت منتشرة فى وسط الفئات المتعلمة بدرجة أكبر منها فى القطاعات الأفقر فى هذه المجتمعات، لكن انتشارها وحجمها كانا على درجة كبيرة إلى حد أنه لم يكن من المتوقع حدوث هذا الفصل الجديد وتلك التفرقة والتمييز بين الجماعات العرقية.

لقد تحدثت فى كتابى "عصر التطرف" عن عامل قد يساعدنا على الفهم، فنظم الحكم الشيوعية كانت نظمًا نخباوية عمدًا و قصدًا، إن لم يكن لسبب آخر غير الإصرار على الدور القيادى للحزب. ولم يكن غرض هذه النظم هداية الشعب، إذ لم تكن عقائد دينية كما للكنائس الرسمية، ولهذا السبب فإن غالبية الشعوب التى خضعت لهذه النظم لم تكن مسيسة بصفة أساسية. ولم تدخل الشيوعية فى حياتها بالمعنى الذى دخلته الكاثوليكية - مثلاً - فى وعى شعوب لأمريكا اللاتينية عقب الاستعمار. والشيوعية شىء تتوقع منه نتائج جديدة أو سيئة ولكنها - على وجه العموم - لم تندمج فى نفوس البشر بحيث تصبح مبدأ هاديًا، وإن كان قد حدث استثناء واحدًا، حقا يتعلق بروسيا الكبرى أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد لا يوجد شك فى أن ستالين تمكن من تحويل نفسه إلى قائد قومى حقيقى، لأنه أدار حربًا أدركها الشعب مشاعر صادقة بوضعها حربًا قومية، حيث اشترك فيها بالفعل كل روسى، ولهذا السبب فإنه مازال يتعين إملاء قدر كبير من الاهتمام لتجربة الحرب عند طرح أسئلة عن موروث الشيوعية فى روسيا.

وعلى أى حال فعندما انهارت هذه الدول - كما حدث تمامًا حالما تجزأت الإمبراطورية الأخرى عقب الحرب الأولى - تعين على كل منها إيجاد ارتباطات مختلفة وأشكال تضامنية مغايرة وحتى أولئك الذين لم يكونوا راغبين فى القيام بذلك، وأينما وجدت من قبل أشكال من القومية وربما لم تكن معادية للسوفيت - بالضرورة - فإنها اضطرت بحكم التاريخ إلى الاضلاع بدور جديد أكثر قوة وأكثر بروزًا. ومن المفارقات قبول الشيوعيون للمعايير القومية المتعلقة بالأراضى والأقاليم "التى تنتمى إلى" أمة محددة عرقيًا ولغويًا، ومن ثم تكونت الإمبراطورية فى الأراضى المتعددة القوميات - وبصفة رسمية - من اتحادات فيدرالية من مثل هذه "الأمم" وعندما تحطمت فإنها تصعدت على طول الخطوط المتصعدة المكونة بالفعل، وربما كان انبعاث القوميات شيئًا قد جرى تسجيله فى الشفرة الوراثية لهذه المجتمعات، ومن الممكن أن تكون التقسيمات القومية واصلت عملها فى مستويات أعمق بكثير مما افترضنا، ومع ذلك فلا أستطيع أن أعتقد أن التعايش السلمى الذى ساد بين شعوب يوغسلافيا لمدة خمسين عامًا يرجع بكامله وحصراً إلى سلطة الحزب الشيوعى اليوغسلافى.

هل علينا أن نقلق على عالم لم يعد يحكمه أى نظام دولى للدولة كما عرفناه منذ القرن الثامن عشر ؟

إذا تكلمنا من الناحية المثالية فقد نفضل نظامًا مختلفًا، كما أنه من الحقيقى أن التقدميين لا يتفقون على طريقة موحدة لتنظيم الدول والوحدات السياسية، ويمكن أن توجد تنظيمات أخرى غير تلك التى تعودنا عليها بالفعل ولكن نعم يتعين علينا أن نقلق أيضًا، لأن العمولة عملية لا يمكن تطبيقها فى سهولة ويسر على السياسة، ومن الممكن قيام اقتصاد معولم وقد نطلع إلى وجود ثقافة معولمة، ومن المؤكد أنه لدينا تكنولوجيا معولمة وعلم عالمى وحيد، ولكن إذا ما تحدثنا من الناحية السياسية فإننا نجد أن عالمنا مازال يتسم فى الواقع بالتعددية - فضلاً - عن انقسامه إلى دول إقليمية. والحق أن جميع هذه الدول ليست سواء، ويوجد ما يقرب من مائتى دولة على وجه البسيطة، وبعضها يعد ملاذات ضريبية، ولا يوجد فى واقع الأمر ما يبرر وجودها سوى فائدتها للاقتصاد العالمى، ومع ذلك فإن ثلاثة أرباع بسكان العالم يعيشون فى قرابة خمس وعشرين دولة يسكن كل منها أكثر من خمسين مليون نسمة.

وبينما يمكن نظرياً وجود تشكيلة من المؤسسات العالمية، فإننى لا أعتقد أنه من الممكن للسياسة أن تعمل فى مثل هذا الفراغ، والواقع أنه لا توجد مؤسسات سياسية كونية، وربما كانت أقربها إلى ذلك هى الأمم المتحدة، التى تستمد سلطتها أو قوتها من الدول القائمة، وفى الوضع الراهن فإنه يوجد إذن تعايش بين نظامين مختلفين: نظام للاقتصاد ونظام للسياسة، وإنه فى هذا السياق عليك أن تسأل نفسك ماذا سيكون تأثير إضعاف الدولة القومية (الدولة - الأمة) وهل هو أمر جيد أم سيئ - وسنرى - غير أنه من المؤكد أن الدولة - الأمة لا يمكن تجاهلها، ولا يمكن النظر إلى العلم كما لو كانت غير موجودة أو غير مهمة، لأنه فى مجال السياسة لا يوجد شىء بجانبها، وإمكانية وجود سلطة كونية وحيدة تضطلع بدور سياسى وعسكرى مؤثر وفعال غير متاحة حالياً.

هل تأسف لزوال البنية الثنائية التى كانت مكونة من الدولتين العظيمتين اللتين راقبتا مجالات نفوذهما وتصرفتا كما يتصرف رجل الشرطة؟ وماذا تصورت عندما تفكك الاتحاد السوفيتى، مع تسليمنا بأنه كان لاعباً على المسرح الدولى واعتبرته دائماً عنصر تحرير واستقرار؟

لقد تمثلت مشكلة الحرب الباردة فى أن العالم عاش بصفة مستمرة تحت ظلال كارثة مميتة هى اندلاع حرب نووية عالمية، وبينما ظلت الحرب الباردة قائمة، ولفترة طويلة، فإن احتمالات وقوع تلك الكارثة كانت قوية للغاية لسبب أو آخر، وليس أقلها عن طريق الصدفة (مثل وقوع حادثة ما) وأنت تعرف قانون مورفى الذى يرى أنه إذا كان من الممكن لأمر سىء أن يحدث فمن المؤكد - تقريباً - إنه سوف يحدث آجلاً أو عاجلاً. وبرغم حقيقة التهديد بنشوب حرب نووية مع استمرار الحرب الباردة فإنها لم تقع ولا ينفى ذلك وجود لحظات كان يمكن أن تنشب فيها هذه الحرب (أزمة الصواريخ الكوبية، ومطلع الثمانينيات فى رأى) بيد أننا تفادينا ذلك، وعلينا أن نعترف بأن الحرب الباردة قد خلقت الاستقرار فى العالم أو على الأقل فى بقاع شاسعة فيه، للأفضل أو للأسوأ حسبما ترى، إذ تعتبرها غالبية البلدان الأوروبية أمراً جيداً، ولست أدرى ما إذا كان يمكن قول الشىء نفسه بالنسبة لأجزاء من آسيا، وعلى سبيل المثال لست أدرى ما إذا

كان من الأمور الحسنة ذلك الاستقرار الذى شهدته أندونيسيا لمدة ثلاثين عامًا فى ظل حكم سو هارتو. ولا أحد ينكر أنها خلقت الاستقرار فى العالم. ولم تجعل الحرب مستحيلة، ولكنها وكما حدث فى القرن التاسع عشر على وجه الدقة، جعلت بعض أنواع الحروب ممكنة على أقل تقدير. وبما أن هذا الوضع لم يعد قائمًا فعلينا أن نسأل أنفسنا ما الذى يمكن أن يحل محله.

وفى الوقت الراهن حل محله عدم يقين تام، لأنه لم يتم تدمير الاتحاد السوفيتى تمامًا فحسب، بل دمر - أيضًا - كامل نظام العلاقات الدولية الذى اعتاد عليها العالم أو أوروبا على الأقل، منذ القرن الثامن عشر. وقد نهض هذا النظام عمليًا على وجود عدد معين من اللاعبين، أى وجود بلدان اضطلعت بدور رئيسى وكانت معروفة للجميع ومواقفها معلومة أيضًا، وشمل ذلك روسيا التى كانت تشغل منذ مطلع القرن الثامن عشر تقريبًا حجم الأراضى نفسها. وفوق ذلك عرف الناس قواعد اللعبة التى وجدت منذ نهاية حرب الثلاثين عامًا ومعاهدة وستغاليا، التى أبرمت فى ١٦٤٨ أى منذ ما يزيد على ٣٥٠ عامًا، وقد جرى الاعتراف باستقلالية وسيادة الدول كل على حدة وعرف الناس متى يغدو ممكنًا التدخل فى شئونهم وما الذى يمكن أولا يمكن عمله فى مجال السياسة الدولية، وقد زال الآن هذان العنصران.

لقد تحدثنا آنفًا عن تآكل القواعد والمقاييس، مثل الفرق بين الحرب والسلام، مبدأ عدم التدخل حظر عبور الحدود إلا فى أوقات الحرب (لأن القاعدة الأساسية ليست أنك لا تستطيع بكل بساطة أن تشن حربًا بل عليك أن تعلن الحرب).

لكن يتمثل جانب آخر للمشكلة فى زوال القوى القديمة، مما ترك فراغًا هائلاً، وما زالت روسيا تواصل تحللها بوصفها دولة، وهو ما لم يحدث منذ منتصف القرن السابع عشر، ومنذ مستهل القرن الثامن عشر وجد كيان واحد بين بولندا والمحيط الهادى، وربما تكون قد صادفته مشاكل كثيرة وقدر هائل من حروب عدم اليقين فى مناطق آسيا الوسطى لكنه ظل وحدة واحدة يمكن تبين معالمها ولم تعد موجودة اليوم، وقد فقدنا هذه الفكرة حتى من الناحية المفهومية، ولم يعد فى وسعنا أن نقول - مهما حدث

فى المستقبل خلاف لذلك - إن روسيا ستغدو أحد اللاعبين الأساسيين على المسرح الدولى، وحتى بعد الهزائم المأساوية التى حدثت فى ١٩١٨ و١٩٤٥ كان فى استطاعتنا فقط أن نقول : "حسناً، إن ألمانيا منهوكة القوى راكعة على ركبتيها غير أنه من الجلى أنها سوف تصبح إن أجلاً أو عاجلاً لاعباً رئيسياً مرة أخرى" ولا يمكن أن نقول الشىء نفسه حاليًا عن روسيا ومأساتها عظيمة لدرجة أنه حتى وجودها فى المستقبل موضع تساؤل، وإن الحجم الحقيقى لهذه الكارثة تمت الاستهانة به إلى حد خطير.

لقد حدثت ثلاثة انكسارات فى تاريخ القارة الأوروبية خلال القرن العشرين: عقب الحرب العالمية الأولى وأثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى. وأعتقد أن الحدث الأخير هو الذى سيترك أعمق الآثار بعيدة المدى، ولا نعلم بعد ماذا ستكون عليه. وعلى سبيل المثال. فإن المستقبل السياسى للدول التى أعقبت الاتحاد السوفيتى مازال غير مؤكد، وبعد حوالى عشر سنوات منذ سقوط الاتحاد السوفيتى فإن تحللها مازال مستمراً، وانقسمت إلى جماعات متناحرة على نحو متبادل، كما فى آسيا الوسطى، وبنيانها فيهم للغاية. فما المستقبل السياسى لطاجيكستان غير واضح على الإطلاق على غرار جارتها أفغانستان التى تشتعل فيها أوار الحرب الأهلية منذ سنوات عديدة، ويواصل الاتحاد الروسى التحلل نفسه إلى مناطق مستقلة عملياً أو تتمتع باستقلال ذاتى. وهكذا فإن المصير السياسى لذلك الجزء من العالم الذى تمتد حدوده من رومانيا إلى الصين غير مؤكد إطلاقاً، وهو ما لم يحدث فى أعقاب الحربين العالميتين. والسؤال المطروح على القرن الجديد هو ماذا يمكن أن يكون البديل الفعلى لنظام الدول القديمة الذى ساد العالم من قبل.

ربما تكون أمريكا. فقد سمى القرن الذى انتهى بالقرن الأمريكى، ويظهر الآن أن الولايات المتحدة تتولى مهمة إدارة النظام العالمى على نطاق الكوكب الأرضى بأسره، حيث تستخدم حلف شمال الأطلنطى بوضعه الذراع العسكرى لتحقيق هذا الطموح، وفى حالة كوسوفا زعمت أنها تعمل بعيداً عن المصالح الإستراتيجية المحضة وعلى أساس الاعتبارات الإنسانية البلاغية، فهل نحن نتجه نحو قرن أمريكى آخر، سيكون هذه المرة "أخلاقيا" كذلك؟

هذا أمر ممكن، غير أنى أشك فى ذلك ويتهيأ لى أن القرن الأمريكى ارتكز قبل كل شىء على التفوق الهائل لاقتصاد الولايات المتحدة وديناميكيته وحجمه، وهو من الضخامة بحيث لا يمكن مقارنته باقتصاد الدول الرأسمالية الأخرى، وعلينا أن نتذكر أن الاقتصاد الأمريكى فى عقد العشرينيات من القرن العشرين مثل ٤٠٪ من جملة الطاقة الإنتاجية الصناعية فى العالم، وفقد جانبًا من هذه الميزة إبان فترة الكساد الكبرى واستعاد عافيته عقب الحرب العالمية الثانية لدرجة أنه مثل فى فترة ما نصف القوة الاقتصادية لجميع البلدان الأخرى معًا، وأعتقد أن ذلك الوضع سوف ينتهى، وإذا ما تحدثنا فإن أمريكا ستكون أصغر من الناحية الديموجرافية وغدت تمثل بالفعل نسبة أقل من الطاقة الإنتاجية العالمية، وسوف تستمر بطبيعة الحال مسيطرة على قدر كبير من الاقتصاد الكونى، سواء من الناحية السياسية أو من خلال هيمنة النموذج الأمريكى فى مجال التجارة والأعمال وتنظيم العمل، وعلى الرغم من هذا فإنه تساورنى بشدة الشكوك فى أن تستطيع أمريكا الاستمرار من أن تكون المحرك الصناعى للعالم، على الأقل الطريقة نفسها التى كانت خلال الجزء الأكبر من القرن العشرين - تمامًا - مثل بريطانيا العظمى التى كفت فى فترة معينة من تاريخها عن أن تكون القوة الرأسمالية الكبرى، لأنها لم تكن كبيرة بما يكفى لتبقى كذلك. ومع انتشار التصنيع فى بقاع شاسعة من العالم فإن القوة النسبية لأمريكا كنظام إنتاجى سوف تتدهور.

وتمثل السبب الثانى لسيادة القرن الأمريكى فى هيمنته الثقافية، وخاصة من حيث الثقافة الشعبية، مما أتاح لأمريكا فرصة أفضل لتخليد نفسها وقد تدعم ذلك بفضل الدور المتزايد الذى تضطلع به اللغة الإنجليزية وانتشار تكنولوجيا الحاسب مما عمل على توحيد استخدام الإنجليزية، والذى تركز على نحو مكتسح فى أمريكا، وهكذا سوف تدوم لفترة بكل تأكيد. بيد أن الهيمنة الثقافية لها حدود، ولنتأمل فى سيطرة إيطاليا على الموسيقى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد كانت تامة فى حين أنه لم يكن لها أى دعم سياسى أو عسكرى أو اقتصادى، وقد اختفت فى نهاية الأمر و يمكن أن ننظر مثلاً فى الهيمنة الثقافية البريطانية فى القرن التاسع، ومن الناحية العملية، فإن أى رياضة تمارس فى العالم اخترعت فى الأصل ومورست فى بريطانيا العظمى.

ونشـأت موضـة الرجال فى إنجلترا، وتمارس رياضة كرة القدم حاليًا فى جميع بقاع العالم ويرتدى الرجال الملابس بالطـريقة الإنجليزية، ومع ذلك فإن بريطـانيا العظمى لم تعد هى القائدة لا فى مجال كرة القدم ولا فى مجال الموضة، ومن ثم نستطيع تصور هذه الظاهرة كحدث تاريخى وليس كحدث جار ومتداول.

بيد أن هناك فرقًا : فأمريكا - خلافًا لبريطانيا العظمى فى القرن التاسع تعد قوة ثورية - ارتكزت على إيديولوجية ثورية، وعلى غرار فرنسا الثورية وروسيا السوفيتية فإن أمريكا ليست دولة فقط، فهى أيضًا دولة أوقفت نفسها على تحويل العالم بطريقة ما، وبهذا المعنى فإن الهيمنة الثقافية الأمريكية تنطوى على بعد سياسى لم يتوفر أبدًا للهيمنة البريطانية، ولم يحاول البريطانيون البتة حتى أوج قوتهم هداية العالم، ومن الناحية الأخرى فإن هذا الطموح - هذا الاتجاه لكى تصبح نموذجًا كونيًا - متأصل فى النظام الأمريكى. وخلاصة القول فإن حقيقة أن أمريكا ستظل القوة العظمى بكل وضوح لا يعنى فى حد ذاته أن القرن الجديد سيكون قرنًا أمريكيًا، ولن يكون قرن أى أحد آخر، لأن الشىء الوحيد الذى يبدو شديد الوضوح هو أن العالم أصبح بالغ الضخامة والتعقيد بحيث لا تتمكن دولة واحدة من السيطرة عليه.

ولعلك تتذكر الحجة التى استخدمها بوبيو فى مناقشة موضوع الحرب فى كوسوفا عندما زعم أنه كانت توجد دائمًا قوة مهيمنة، وهى أمريكا فى الوقت الراهن وذلك أمر حسن، لأن أمريكا تقف فى الجانب السليم، وأنا لا أعتقد أنه وجدت دائمًا قوة مهيمنة، وأولاً وقبل أى شىء فإن الهيمنة الكوكبية لم تكن واردة بكل بساطة حتى القرن الثامن عشر، وحتى بعد ذلك فلم يمارس أى بلد مثل هذا الإدعاء قبلما يفعل الأمريكيون فى الجزء الأخير من القرن العشرين، والهيمنة البريطانية التى كانت فى غاية القوة اقتصاديًا وثقافيًا وعسكريًا من بعض النواحى (إذ كان أسطولها الحربى أضخم من كل الأساطيل فى العالم مجتمعه) لم تكن أبدًا على النحو الذى يدفع بريطانيا العظمى لتنظيم العالم. وفعل البريطانيون ما استطاعوا لتنظيمه وفقًا لمصالحهم الخاصة وليس للسيطرة عليه؛ لأنهم أدركوا أنهم ليسوا أقوياء بما يكفى للقيام بذلك، أو حتى للحفاظ على أثمن موجوداتهم: الأسطول. وقد أدركوا أنه يمكن أن توجد فى نهاية الأمر بلدان أخرى ثرية

وقوية بما يكفى لكى تضمن لنفسها تحقيق سيطرة عسكرية مساوية على البحار، إن أمريكا إذن هى البلد الوحيد فى التاريخ التى احتلت مركزًا يسمح لها بأن تدعى لنفسها حمل لواء الهيمنة العالمية.

وحتى الهيمنة الإقليمية نادرة للغاية، وباستثناء الصين فى الشرق الأقصى فإنها لم تدم طويلاً فى معظم الحالات، وقد كانت فكرة الهيمنة الأوروبية حلمًا لم يدم طويلاً فى جميع الأحوال، ونادراً ما عمرت أكثر من سنوات قليلة، ولم توجد هيمنة إسبانية فى القرن السادس عشر؛ لأن فرنسا كانت دائمًا منافسًا محتملاً، ولم توجد هيمنة فرنسية فى القرن السابع عشر برغم أن لويس الرابع عشر اقترب من ذلك. وفى عهدى نابليون وهتلر، سيطرت دولة قوية فى حالة حرب على القارة لكن هذه السيطرة لم تدم أكثر من سنوات قليلة، وإننى أعتقد بصفتى مؤرخًا أن فكرة وجود دولة وحيدة – مهما كانت عظيمة وقوية – فى مقدورها السيطرة على السياسية العالمية فكرة خاطئة. وقد حاولت أمريكا أن تفعل هذا ومازالت تحاول، وهو ما يرجع بادئ ذى بدء إلى تطلعاتها الثورية فى تغيير العالم والتى دونت فى تاريخها منذ نشأتها، كما يرجع – أيضًا – إلى صدفة تاريخية وجدت فيها نفسها فى عالم ليس فى وسع دولة أخرى أو تحالف ما أن يشن حربًا ضدها، وتلك مقامرة بل أعتبرها – من جانبى أنا – مقامرة خطيرة، وبكلمات أخرى هناك مخاطر تكمن وراء طموح أمريكا فى أن تصبح شرطى العالم أو أن ترسى نظامًا دوليًا جديدًا.

هل يمكن تطبيق أخلاقيات النزعة الفردية المؤيدة لمبادئ الحرية فى الفكر والعمل التى تحفز الأسواق على السياسة الخارجية ؟ وقد تأسست على أولوية الأفراد على الجماعة التى ينتمون إليها. ولذلك فهى تعد ليبرالية على نحو أصيل وهل يمكن أن تمثل دواءً ناجحًا لجميع الإيديولوجيات، بما فى ذلك انحرافها ذات الطابع القومى والإثنى؟

أعتقد أن النزعة الفردية المؤيدة لمبادئ الحرية فى الفكر والعمل لا تعد أساسًا مناسبًا لسياسة الدولة؛ لأنها تتعارض أساسيًا مع السياسة الجماعية، ويمكن تعبئة الناس على أساس القومية أو الوطنية أو أى أرضية جماعية أخرى، لكن إذا زعمت

أن مصالح الأفراد هى الأسمى منزلة فعندئذ يصعب إقناعهم بإخضاع تلك المصالح ولو جزئيًا لمصالح الآخرين. ويتفق منطق النزعة الفردية الناصرة لمبادئ الحرية فى الفكر والعمل تمام الاتفاق مع السوق الحرة، لكنى لا أظن أنه يتفق ومتطلبات السياسية الدولية، ولا أعتقد أن عليها هذا المثل الأعلى.

وتجسدت الطريقة الوحيدة التى يمكن أن يعمل بها هذا المبدأ المغرى فى الطريقة التى استعملتها أمريكا إبان الحرب الباردة، عندما زودت الحكومة شعبها برسالة فحواها إن عقيدتنا فى النزعة الفردية ومذهب الحرية تهددها قوة خارجية ولذلك علينا أن نتصرف دفاعًا عن النفس، وتلك استراتيجية إضفاء المشروعية على السياسة الخارجية، لكنها ليست سياسية خارجية فى حد ذاتها. وإذا سلمنا بأنها كانت سياسية ناجحة فمن الممكن أن تحاول الولايات المتحدة استخدامها مرة ثانية، وفى الواقع وبعد انتهاء الحرب الباردة التى استبعدت أكبر عدو للقيم الأمريكية، فقد يعتبر بعض الناس فى أمريكا قوى ثقافية أخرى، مثل الأصولية والاستشراق، بمثابة تهديدات خارجية ينبغى العمل على مقاومتها. لكن لا يبدو أن هذه حجة مقنعة كثيراً؛ لأن قوة الحرب الباردة وتبريرها تمثلها فى حقيقة أن المعتدى المحتمل أو الممكن للمصالح والمثل العليا الأمريكية هو دولة عظمى هائلة وحقيقية.

ومن المحتمل إذا ما أصبحت الصين بالفعل قوة عظمى خطيرة فإن هذا المبدأ المغرى قد يعمل ثانية، غير أنه يتعين علىَّ أن أقولَ إننى لا أستطيع أن أفهم الانبهار الشامل بهذه الحجة وهى مقصورة تمامًا على البلدان الغنية، ومن الجلى إنها حجة قد لا يكون لها الأثر نفسه فى معظم بلدان العالم الثالث، ولهذا فإننى لا أعتقد أن النزعة الفردية المناصرة للحرية فى الفكر والعمل تعد ترياقًا سياسيًا، انظر إلى حالة كوسوفا فأنت لا تستطيع بالاستناد إلى هذا المبدأ أن تطلب من أى شخص التضحية بحياته، والنظرية السائدة فى الولايات المتحدة التى تقول إنك يمكن أن تفعل أى شىء فيما عدا أن تسأل جنودك أن يذهبوا لقتل أنفسهم تتفق تمامًا مع الاعتقاد بأن الحقوق الفردية هى الأسمى، بيد أنه لا يمكن فى الواقع شن حرب بهذه الطريقة بأى حال من الأحوال، وأنت تستطيع أن تضرب بالقنابل بهذه الطريقة لكن لا تستطيع أن تحارب، وفى بعض الأحوال فإن الضرب بالقنابل قد يكون غير كاف بالغرض.

لكن أليس من الأسلم للعالم أن توجد قوة عظمى وحيدة ؟

تتمثل المشكلة فى فهم ماهية حدود القوة العظمى الوحيدة. ما الذى تستطيع أو لا تستطيع أن تفعله، وقد قلنا آنفًا أنه ليس فى وسعها تحديد ما يحدث فى العالم، غير أنه يمكنها اتخاذ بعض التدابير لتخفيف حدة الصراعات وتحقيق استقرار الوضع الدولى، وقد يكون مفيداً هنا عقد مقارنة بين الهيمنة البريطانية فى القرن التاسع عشر وبين الهيمنة الأمريكية فى القرن العشرين، فقد يعتبر بعض الناس فى أمريكا قوى ثقافية أخرى، مثل الأصولية والاستشراق، بمثابة تهديدات خارجية جديدة ينبغى العمل على مقاومتها، لكن لا يبدو أن هذه حجة مقنعة كثيراً لأن قوة الحرب الباردة و تبريدها تمثلتا فى حقيقة أن المعتدى المحتمل أو الممكن الصالح والمثل العليا الأمريكية هو دولة عظمى هائلة و حقيقية.

ومن المحتمل ما إذا أصبحت الصين بالفعل قوة عظمى خطيرة فإن هذا المبدأ المغرى قد يعمل ثانية، غير أنه يتعين علىَّ أن أقول إننى لا أستطيع أن أفهم الانبهار الشديد بهذه الحجة وهى مقصورة تمامًا على البلدان الغنية، ومن الجلى أنها حجة قد لا يكون لها الأثر نفسه فى معظم بلدان العالم الثالث، ولهذا فإننى لا أعتقد أن النزعة الفردية المناصرة للحرية فى الفكر والعمل تعد ترياقًا سياسيًا. انظر إلى حالة كوسوفا، فأنت لا تستطيع بالاستناد إلى هذا المبدأ أن تطلب من أى شخص التضحية بحياته، والنظرية السائدة فى الولايات المتحدة التى تقول إنك لا يمكن أن تفعل أى شىء فيما عدا أن تسأل جنودك أن يذهبوا لقتل أنفسهم تتفق تماماً مع الاعتقاد بأن الحقوق الفردية هى الأسمى. بيد أنه لا يمكن فى الواقع شن حرب بهذه الطريقة بأى حال من الأحوال، وأنت تستطيع أن تضرب بالقنابل بهذه الطريقة لكن لا تستطيع أن تحارب.

وفى بعض الأحوال فإن الضرب بالقنابل قد يكون غير كاف بالغرض.

– لكن أليس من الأسلم للعالم أن توجد قوة عظمى وحيدة ؟

تتمثل المشكلة فى فهم ماهية حدود القوة العظمى الوحيدة، ما الذى تستطيع أو لا تستطيع أن تفعله: وقد قلنا آنفا أنه ليس فى وسعها تحديد ما يحدث فى العالم،

غير أنه يمكن اتخاذ بعض التدابير لتخفيف حدة الصراعات وتحقيق استقرار الوضع الدولى، وقد يكون مفيداً هنا عقد مقارنة بين الهيمنة البريطانية فى القرن التاسع عشر وبين الهيمنة الأمريكية فى القرن العشرين.

وعلى سبيل الاستطراد فإن الهيمنة البريطانية فى القرن التاسع عشر مثلت النموذج الذى حاول الأمريكيون اقتضاء أثره فى القرن العشرين بل إن تعبير السلام الأمريكى نفسه "pax Americana" هو صدى لتعبير السلام البريطانى "pax Britannica" وقد كان أيضاً هو صدى تعبير السلام الرومانى "pax Romana" .

وأعتقد أن البريطانيين أدركوا وجود حدود لما يستطيع أن يفعله بلد متوسط الحجم وعرف البريطانيون - مثلاً - أنه ثمة مناطق فى العالم من الأسوأ التدخل فيها بدون قوة عسكرية، وقد اقتنعوا بهذا مبكرًا نوعًا ما، فى القرن التاسع عشر، وعلى سبيل المثال فإنهم استبعدوا جميع التدخلات العسكرية فى أمريكا الجنوبية، حتى برغم اشتباكهم فى صراعات مع إسبانيا، وكان واضحًا للبريطانيين أنه لا يتعين عليهم أن يتدخلوا فى دول القارة الأمريكية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وقبلوا مبدأ مونرو (وهو المبدأ الذى وضعه الرئيس مونرو فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣ وقوامه أن الولايات المتحدة تعارض كل تدخل أوروبى فى شئون نصف الكرة الغربى) لا لأنهم كان عليهم أن يقبلوا ذلك، إذ من المسلم به أن البريطانيين لم يكونوا على وجه اليقين أضعف من الولايات المتحدة الأمريكية. ووقع - مثلاً - نزاع على غينيا البريطانية (غويانا) حله الأمريكيون بطريقة مرضية لبريطانيا العظمى، ومع ذلك قبله البريطانيون؛ لأنهم فهموا فى نهاية الأمر وجود حدود على ما يمكن إنجازه فى العالم، كما أنهم لم يحاولوا البتة إرساء شكل من أشكال السيادة والتفوق داخل أوروبا، حيث اهتموا - فقط - بوقف أى قوة أخرى على أن تفعل ذلك من أجل الحفاظ على ميزان القوى.

وركز البريطانيون دائمًا وأبدًا على السيطرة على البحار واحتلال المواقع التى تعد حيوية لتحقيق هذه الغاية، وقد نجحوا تماماً فى القيام بذلك، وقد تأسست الإمبراطورية على جزر صغيرة جرى ضمها من قبل البريطانيين لأغراض إستراتيجية: جبل طارق ومالطة وجزر الفوكلاند وغيرها الكثير والتى مازالت حتى الآن خاضعة للسيطرة المباشرة.

ومن الناحية الأخرى، فإن الإمبراطورية الأمريكية ارتكزت على هيمنتها على دول تابعة لها، وهو ما لم يحاول إطلاقًا أن يفعله البريطانيون، ما لم يكن هناك بديل لا محيص عنه للاستعمار: وهو ما فعلوه مع الهند وغرب إفريقيا وإلى حد كبير الشرق الأوسط، لكن فقط عندما أصبح الاستعمار مستحيلاً. و ابتداءً من عام ١٨٠٠٠ لم تفكر الولايات المتحدة إطلاقًا فى الاستعمار خارج أمريكا الشمالية. وجاء احتلال بورتوريكو والفلبين صدفة تاريخية وربما بمثابة تسليم بالنمط الاستعمارى فى ذلك الوقت، وتمثلت فكرة الأمريكيين فى الوصول على عدد كبير من الدول - خاصة فى أمريكا اللاتينية - تكون مضطرة إلى أن تعمل ما يرغبون هم أن تقوم به.

ومن ثم فإننى أعتقد أن البريطانيين عرفوا حدودهم وأن الأمريكيين أصابهم نوع من جنون العظمة، لأنهم ظنوا أنهم فى استطاعتهم فعل أى شىء يريدونه فى نصف الكرة الغربى، وهو ما يرجع جزئيًا إلى أنه لم توجد سياسة عالمية فى معظم القرن التاسع عشر، بل سياسة فى نصف الكرة فى أقصى الأحوال، وقد أعرب الأمريكيون حتى عن هذا الرأى. ففى عام ١٨٩٥ أعلن وزير الخارجية الأمريكية بعد حل الخلاف الحدودى بين فنزويلا و غينيا البريطانية قائلاً: "تعد الولايات المتحدة حاليًا هى صاحبة السيادة عمليًا على هذه القارة وأمرها هو القانون الذى يخضع له الرعايا، حيث يقتصر على الولايات المتحدة حق التدخل... لماذا؟

... لأنه بالإضافة إلى جميع المبررات الأخرى، فإن مواردها اللانهائية مجتمعة إلى عزلتها تجعلها سيدة الموقف ويتعذر المساس بها عمليًا من قبل جميع القوى الأخرى "وما كان ممكن لأى وزير خارجية بريطانى ولا حتى بالمرستون، أن يقول مثل هذا القول فى بقعة من بقاع العالم : نحن قوة عالمية ولا يستطيع أحد أن يتدخل، وإذا قررنا أن نفعل شيئًا ما نستطيع القيام به.

وأعتقد أن الخطر الذى مثله الأمريكيون تمثل فى أنهم مدوا وجهة النظر هذه إلى العالم قاطبة، وذلك خطر جسيم؛ لأنه من الجلى حاليًا أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتصرف دون وجود حلفاء، إن لم يكن فقط لوجود قواعدهم العسكرية فى معظم

الحالات فى بلدان أخرى. فلو قررت إيطاليا – من الناحية النظرية – عدم توفير مطاراتها الحربية لشن الحرب على يوغوسلافيا فإن ذلك كان سوف يتسبب فى حدوث ارتباك شديد للقوة الأمريكية، وأعتقد أنهم كثيرًا ما تساءلوا – سواء بصدد العراق أو البلقان مثلاً – عما كان يمكن أن يفعلوه لولا وجود قواعدهم العسكرية فى البلدان الحليفة، ويمكن أن يكــون فى استطاعتهم فقط القيــام بعمل ما بواسطة حاملات الطــائرات أو الطيران المستمر بدون توقف انطلاقًا من الولايات المتحــدة، فالولايات المتحدة لابد أن يكون لها حلفاء، لابد من وجود من يكون على استعداد لمساعدتها.

وفى المقام الثانى، فإن أقوى أسلحتها – وهى من أرفع مستويات التكنولوجيا المتقدمة – لا تعد كافية دائمًا لتحقيق النصر فى الحروب، وبالتالى يلوح لى أنه سوف يتعين على السياسة الأمريكية أن تتواءم مع هذا الواقع فى القرن الجديد، بما يقرب من اتجاهات السياسة البريطانية فى الماضى وعليها أن تتكيف مع حدود الممكن إنجازه وستظل قوة عظمى لزمن طويل، وطويل جدًا، ولا أستطيع حتى أن أرى نهاية تلك الحقبة بقدر ما يتعلق الأمر بالتكنولوجيا العسكرية، ولكن حتى هذا لن يكون كافيًا، وقد يكون كافيًا إذا كان تهديد التفوق الهائل كافيًا لجعل الخصوم يقولون: "لا يمكن عمل أى شىء، وعلينا أن نستسلم" وتلك كانت معضلة العراق وكوسوفا، وكلما عجلت الولايات المتحدة فى الاعتراف بذلك كلما عجلت برسم سياسة تصلح لدولة عظمى، فاستعراض القوة لا يعد كافيًا لحكم العالم.

ويصدق ذلك – حاليًا – على القوى العظمى والقوى الإقليمية؛ لأن شعوب البلدان الضعيفة لم تعد راغبة فى الخضوع لها، وقد أتيحت لها مؤخرًا الفرصة لمناقشة مشاكل وسط إفريقيا مع بعض الدبلوماسيين البريطانيين، الذين بحكم عملهم المهنى على إلمام بهذه الأوضاع، فالسياسة الإفريقية بكاملها قد دمرها رفض بلدان هذه المنطقة التصرف بطريقة سليمة حسب القواعد والأعراف، وقد جاء وقت إذا ساءت فيه الأوضاع فى دولة إفريقية مستقلة أرسل الفرنسيون فرقة من جنود المظلات للقيام باستعراض عسكرى فى المدينة الرئيسية، للتباهى بقوتهم العسكرية فيهرب المتمردون وتجرى إعادة

الرئيس السابق إلى منصبه أو يتم تثبيت الرئيس الجديد، وبذلك يتم إرساء النظام كلية، ولم يعد من الممكن القيام بذلك، وما حدث فى رواندا هو أن الفرنسيين كانوا موجودين وعلى استعداد للعمل وراغبين فى وقف مذبحة التوتسى، وقد كانوا فى واقع الأمر حلفاء للهوتو، لكنهم لم يريدوا حمام الدم وفعلوا ما فى وسعهم ليثبتوا أنهم لم يبغوا ذلك، ولكن دون جدوى، وقال الهوتو لأنفسهم أن الفرنسيين لن يستطيعوا فعل شيء واستمروا فى قتل جيرانهم تحت أعين الفرنسيين تقريباً.

وفى النهاية فإن كل منطقة وسط إفريقيا الشاسعة تغيرت كليةً، ولكن ليس بفعل بعض القوة أو تنظيم دولى، وقد اشترك الجميع : باريس، وواشنطن والأمم المتحدة محاولين التوسط، وقد وجد - فى مرحلة معينة كما قيل لى - أكثر من ثلاثة عشر وسيطاً مختلفاً فى رواندا، بيد أنه ثبت أن كل ذلك غير كاف، وقد اشترك فى الحرب حوالى سبع دول إفريقية إضافة إلى زائير ورواندا وبوروندى وأوغندا، وأى تدخل خارجى قد يكون - لا أود أن أقول إنه باهظ التكلفة - ولكنه يمكن أن لا يحقق النتائج التى تتناسب مع الجهد الذى قد يبذل فيه، وهذا الوضع يصدق أيضاً على الولايات المتحدة، حتى ولو كانت غنية بما يمكنها من تحقيق الالتزام بتقديم موارد ضخمة، وثمة أشياء كثيرة فى العالم لا يمكن ببساطة القيام بها.

- ما هى القوة العظمى التى يمكن أن تظهر فى القرن الجديد ؟

من المرجح للغاية أن تصبح الصين قوة عظمى - حتى بالمعنى العسكرى - ومن المؤكد أنها الدولة الوحيدة التى يمكن أن تتطلع إلى التنافس مع الولايات المتحدة فى المستقبل، بيد أننى أعتقد حاليًا أنه من غير المرجح إلى حد بعيد أن نراها تتنافس مع أمريكا من الناحية العسكرية فى المستقبل المتطور؛ فتفوق الولايات المتحدة بالغ الضخامة، ولا أعتقد أن ذلك يستبعد إمكانية حدوث مواجهة نووية، لأن ذلك لم يرتكز أبدًا على التعادل، ولكن ببساطة على حقيقة أن أحد الطرفين لديه رادع كاف لكى يهدد بإحداث ضرر لا يحتمل للطرف الآخر، وعلى أى حال علينا أن نعتبر كون الولايات المتحدة ستظل لزمن طويل للغاية أكبر قوة عسكرية بمثابة حقيقة ثابتة وعلاوة على ذلك،

فإن أى نزاع بين الولايات المتحدة والصين فى القرن الحادى والعشرين قد يتخذ أشكالاً مختلفة عن الماضى، وهو ما يرجع أساساً إلى أن الصين تعد دولة برية بشكل رئيسى، وهذا ضرب من التخمين ومن الخطر الشديد بالنسبة لمؤرخ أن يتمارى فى هذا الاتجاه.

وفيما يتعلق بالهند فإننى أعتقد أن أسلحتها النووية موجهة إلى باكستان واهتمامها إقليمى فى الأساس، والهند قوة إقليمية ومن غير المرجح أن تصبح أكثر من ذلك فى الخمسين سنة القادمة. وعلى نحو ما، فالهند لها مستقبل واعد للغاية ويرجع ذلك أساساً إلى توفر ميزة لها غير متوفرة فى الصين: درجة من الأصالة الحقة فى ميادين التكنولوجيا والبحوث النظرية والفكرية ليس من السهل أن تتوفر فى الشرق الأقصى فى المنطقة الكونفوشيوسية؛ وذلك لأسباب تاريخية، فالتراث الهندى – مثلاً – فى الميادين الفلسفية والرياضية مهم للغاية. ومن الناحية الأخرى، فإن مدى توفر تراث فلسفى لكل من الصين واليابان – بالمعنى الأوروبى على أقل تقدير – هو موضوع فيه نظر، وفى مجتمع حديث عماده التكنولوجيا فإن الأصالة الفكرية تنطوى على إمكانات هائلة، وتتمثل مشكلة الهند الكبرى فى أن الدولة ضعيفة للغاية من حيث بنيتها وقدراتها الإدارية ونظامها السياسى، لكن من الناحية الاقتصادية والثقافية فإننى أعتقد أن أمام الهند مستقبل رائع أكثر من أى بلد آخر فى الشرق الأقصى.

لقد أعرب البابا صراحة عن عدم اتفاقه مع سيطرة القوى العظمى الأمريكية، وبعد أن صب همومه على الشيوعية فإنه يلوح الآن أنه قد اختار الرأسمالية فى شكلها الأمريكى المتطرف كعدو له، فما هو تقديرك لجان بول الثانى كشخصية تاريخية ؟ وهل هو آخر الثوريين على ظهر البسيطة ؟ أم إننا إزاء نسخة حديثة معدلة من الصراع بين البابوية والإمبراطورية؟

لا أظن إننا إزاء صراع بين البابوية والإمبراطورية، وأعتقد أنه علينا أن نميز بين سياسة البابا وعلم اللاهوت، فبابا روما من أنصار النزعة التقليدية الكاثوليكية، ويتسم هذا العهد البابوى بالعودة إلى نظرة أكثر تقليدية للكنيسة من تلك النظرة الكاثوليكية

الليبرالية نسبيًا التى سادت فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى، ولو افترضنا أننى أنا البابا فمن المحتمل أن أفعل الشىء نفسه، لأنه إذا كان للدين مستقبل فإنه يتمثل - عندئذ وعلى وجه الدقة - فى عدم التغير مع الأزمنة المتغيرة وفى البقاء بعيداً عن الموضات لكننى لست متديناً، ولذلك فإن هذا الموضوع لا يعنينى مباشرةً.

بيد أننى أظن أن هذا المشروع الاستعدادى سوف يصادف مصاعب بالغة الخطورة، وقد لا يمكن التغلب عليها، لأنه كما أن الدولة لم تعد تستطيع السيطرة كلية وتماماً على مواطنيها فكذلك الكنيسة الكاثوليكية لم يعد فى وسعها أن تتحكم فى ولاء المؤمنين بها، ومشكلة دين سلطوى مثل الكاثوليكية أنه يقوم على أساس القبول التطوعى للاهوته، وأعتقد أنه منذ أن كفت نساء أوروبا الكاثوليكية عن التقبل الآلى للتعاليم الأخلاقية أو أوامر الكنيسة، فإن إمكانيات التحكم فى المسيحية بأسرها قد تضاءلت بشكل بالغ، ومن المتعين أن تنتقل من البلدان المتقدمة إلى العالم الثالث، لكن العالم الثالث لن يتقبل بكامله ذلك الوضع، حيث برز فى القرن العشرين ضعف الكنيسة فى أمريكا اللاتينية، كما أن الكنيسة الكاثوليكية فى أوروبا ليست ذات مناعة من العلمنة وتراجع الدين الجماهيرى التقليدى، ومنذ منتصف ستينيات القرن الماضى فإن قبضة الكنيسة على المؤمنين بها قد تراخت وضعفت إلى حد خطير.

بيد أن هناك أمراً مهماً فيما يتعلق بهذا البابا، وهو ما يذكرنا بكبار البابوات فى أواخر القرن التاسع عشر والتأثير الذى أحدثته **Resum Novarum**[1] فهو آخر المتطرفين العقائديين العظام الذى انتقد الرأسمالية على حقيقتها، وربما كان ذلك صدفة تاريخية لأننى أعتقد أن اليسار العلمانى سيعود إلى وجهة نظره النقدية للرأسمالية، وفى السنوات العشرة الأخيرة كان من الرعب للغاية القول إن الرأسمالية شر أخلاقى،

(١) إشارة إلى الرسالة البابوية التى وجهها البابا ليون الثالث عشر فى ١٥ /١٨٩١/٥ عن العدالة الاجتماعية وضرورة إقرار مبدأ "الأجر العادل" والتدخل لوضع تشريع اجتماعى يكفل حق التنظيم العمالى والنقابى وذلك تحت تأثير الفكر الاشتراكى فى نهاية القرن التاسع عشر وسميت "الميثاق الكاثوليكى الاجتماعى" (م).

وأعتقد أنه سوف يبدأ تكرار وترديد هذا القول مرة أخرى ومع ذلك، وفى الوقت الراهن فإن البابا هو الشخص الوحيد ذو الأهمية العالمية الذى يرفض الرأسمالية بصفة منتظمة، ومن المؤكد أن هذا الموقف يمثل خروجًا عن مركز الفكر الملتزم الغربى ولإجماع الفكرى والسياسى السائد، وتلك ظاهرة مثيرة للاهتمام.

– كثيرًا ما نشهد – كما فى الحرب فى كوسوفا – تحالفًا غريبًا تحت راية البابوية يجمع بين اليسار المتطرف واليمين المتطرف، بحكم العداء لأمريكا، ألا يزعجك ذلك ؟

– لا يزعجنى ذلك على الأقل من حيث المبدأ، إذ يمكن أن تجد العديد من التحالفات غير العادية عبر التاريخ، وأكثرها غرابة فى القرن العشرين ذلك التحالف بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى مواجهة ألمانيا النازية، وحقيقة قيام تحالفات غريبة لا يعنى أنها تصبح دائمة، ومن الأكثر أهمية ملاحظة أن الانقسام فى حالة كوسوفا يحدث وفقًا للخطوط التقليدية للانقسام بين اليمين واليسار والتقاطع مع الحدود القومية والإيديولوجية، وكان اليسار مقسمًا بكل تأكيد، وقد اتخذت مجموعات مختلفة من اليسار مواقف قوية دفاعًا عن الحرب أو اعتراضها عليها، وحدث الشىء نفسه من جهة اليمين برغم إننى أعتقد أنه انتقد الحرب منطلقًا بصفة أساسية من وجهة نظر المهارة المهنية الحربية؛ لأنها نفذت بطريقة سيئة.

وفيما يتعلق بالبابا فإن إدانته للحرب لم تكن على وجه التعيين لأسباب سلمية، وعمومًا فأنا لا أعتقد أن غالبية أولئك الذين انتقدوا الحرب فعلوا ذلك بدافع من النزعة السلمية، فهم عارضوا هذه الحرب المعينة كحل لهذه المشكلة المعينة بيد أنه من الحقيقى أن النزعة المعادية لأمريكا والشكوك التى تحوم حول طموحات الهيمنة لدولة واحدة كل ذلك يعتبر العامل الذى جمع بين تشكيلة واسعة من المواقف السياسية، ولا يتعلق الأمر بسعادتى فى هذا الشأن ولكنى أنوه بالكيفية التى تسير بها الأمور وأن الحرب فى كوسوفا قوت لدى هذا الشعور.

الفصل الثالث

القرية الكونية

- لقد كانت السمة المميزة للعقد الأخير من القرن العشرين عولمة الاقتصاد، فهل تعتقد أن العالم أصبح بالفعل وحدة كونية، وحدة اقتصادية واحدة؟

- لم يصبح بعد ولكن من المؤكد أننا نعيش فى ظل اقتصاد كونى واحد بالمقارنة مع ثلاثين عامًا مضت، وإن كنا نستطيع القول بكل تأكيد - أيضًا - إننا سنكون أكثر عولمة كذلك فى عام ٢٠٥٠ وأكثر فأكثر فى عام ٢١٠٠ ، فالعولمة ليست ثمرة فعل وحيد مثل إضاءة النور أو إدارة محرك السيارة، فهى عملية تاريخية تسارعت - بلا أدنى ريب - تسارعًا هائلاً فى السنوات العشرة الأخيرة، لكنها عملية تحول دائم ومطرد، وذلك ليس من الواضح على الإطلاق فى أى مرحلة نستطيع القول إنها بلغت مقصدها النهائى ويمكن اعتبارها مكتملة، وهو ما يرجع أساسًا إلى أنها تنطوى بصفة رئيسية على التوسع عبر كون مختلف بحكم طبيعته ذاتها من الناحية الجغرافية والمناخية والتاريخية، ويفرض هذا الواقع بعض القيود والتجديدات على الكوكب بأسره، بيد أننا نتفق جميعًا على أن العولمة - وخاصة الاقتصاد العولمى - قد أحرزت هذا التقدم المذهل بحيث لا نستطيع اليوم أن نتحدث عن التقسيم العالمى للعمل كما فعلنا قبل سبعينيات القرن العشرين.

- ومع ذلك يلوح أن العولمة - برغم نجاحاتها - لا تزال مقيدة بوجود الدول وسلطتها، فكيف يمكن أن نفسر بطريقة أخرى المحاولة غير الناجحة التى تمت عن طريق " الاتفاق المتعدد الأطراف المتعلق بالاستثمار" بغرض إعطاء الشركات العابرة

الحدود القومية من طرف واحد فى أن تقاضى الدول التى تلحق الضرر بأرباحها ؟ ولماذا يظل هذا العداء؟

– أعتقد أن هذا يحدث لأن العولمة ليست عملية عالمية شاملة تمتد إلى جميع ميادين النشاط الإنسانى بالطريقة نفسها.

– ماذا تعنى إذن بالعولمة على وجه الدقة ؟

والإجابة العامة تشير إلى عاملين : التقليل أو الإلغاء التام للحواجز الجمركية بين الدول وتحديداً أسواق رأس المال بما يتيح لها الذهاب إلى أى مكان يحقق لها عائداً أكبر، ومع ذلك فإن العالم عرف – فعلاً – هاتين الظاهرتين : وإذا لم أكن مخطئًا فإن الرأسمالية توفرت لها هاتين الخاصتين قبل الحرب العالمية الأولى، فما هو الجديد إذن حقا ؟

أولاً : لا أعتقد أنه يمكن تحديد العولمة – فقط – من حيث إيجاد اقتصاد كونى، برغم أن ذلك يشكل بؤرتها وأبرز ملامحها، وعلينا أن نطلع فيما وراء الاقتصاد، فالعولمة ترتكز أساسًا على إزالة العقبات التقنية بدلاً من العقبات الاقتصادية، فهى إلغاء المسافات والزمن، وعلى سبيل المثال، فقد كان من المستحيل أن نعتبر العالم وحدة واحدة قبل أن نبحر حول العالم فى نهاية القرن الخامس عشر وبالطريقة نفسها فإننى أرى أن التقدم التكنولوجى الثورى فى وسائل الاتصال والمواصلات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان مسئولاً عن مكانية بلوغ الاقتصاد مستويات العولمة التى تخفق فعلاً، وجاء المنطلق من ذلك التسارع الهائل والسرعة الكونية فى نقل السلع. وقد اقتصر استعمال "السلع" فى الماضى عمليًا على مناطق إنتاجها، وحتى وقت قريب فإن التجارة تأثرت دائمًا من بعض النواحى بعدم المقدرة على نقل السلع القابلة للتلف عبر مسافات طويلة مع بقائها على حالتها الطبيعية، وكنت تستطيع التجارة فى الحبوب وليس فى الأزهار الفاخرة.

وجاءت نقطة التحول مع ظهور الشخص الجوى الحديث وأبسط مثال لاحظناه جميعًا هو إلغاء الإنتاج الزراعى الموسمى، وأنت تستطيع حاليًا استيراد الفواكه

الاستوائية أو الكرز أو الفراولة بغض النظر عن المواسم، وتحققت للنقل الجوى السرعة اللازمة لتقديمها طازجة على موائدنا، وهذا ما جعل من الممكن - للمرة الأولى فى التاريخ الإنسانى - تنظيم الإنتاج، وليس مجرد التجارة بطريقة عابرة للحدود القومية. وحتى سبعينيات القرن العشرين، إذا رغبت شركة فى إنتاج سيارات فى بلد غير بلدها الأصلى كان يتعين عليها بناء مصنع كامل؛ لكى يقوم بعملية إنتاج كاملة فى الموقع الذى اختارته، وإن يكن فى الفلبين مثلاً، ومن الممكن الآن أن تختار الشركة المركزية إنتاج المحركات والمكونات الأخرى ثم تتولى تجميعها فى أى مكان تفضله الشركة، ولأغراض عملية لم يعد الإنتاج ينظم داخل الحدود السياسية للدولة موطن الشركة الأم، وحتى هذا التطور ما كان ممكنًا أن يذهب إلى مدى بعيد للغاية دون التقدم المذهل للغاية فى نظم وشبكات المعلومات، التى جعلت من الممكن التحكم فى عملية الإنتاج مركزيًا فى وقت متزامن تقريبًا.

وهكذا، بينما اقتصر التقسيم العالمى للعمل سابقًا على تبادل المنتجات بين مناطق معينة، فإنه من الممكن اليوم الإنتاج عبر حدود الدولة والقارات، وذلك هو ما قامت عليه هذه العملية، وفى رأيى أن إلغاء الحواجز التجارية وتحرير الأسواق يمثلان ظاهرة ثانوية، وذلك هو الفرق الحقيقى بين الاقتصاد الكونى قبل ١٩١٤ واليوم، وقبل الحرب الكبرى كانت هناك حركة عالمية شاملة لرأسمال والسلع والعمل، ولكن تحرير المنتجات الصناعية وأحيانًا الزراعية من أماكن إنتاجها لم يكن ممكنًا بعد، وعندما تحدث الناس عن الصناعة الإيطالية أو البريطانية أو الأمريكية فهم لم يقصدوا الصناعات المملوكة من مواطنى هذه البلدان فحسب، إنما قصدوا - أيضًا - كل ما كان يحدث تقريبًا فى هذا البلد أو ذاك، ثم تجرى مبادلته والإتجار فيه مع بلدان أخرى، ولم يعد الأمر لذلك. وكيف تستطيع القول إن فورد سيارة أمريكية، مع العلم أنها صنعت من مكونات يابانية وأوروبية وكذلك من أجزاء صنعت فى ديترويت ؟ ومن ثم يبدو لى أنه لا جدال فى أن الاقتصاد العالمى كان قبل عام ١٩١٤ أكثر بدائية بكثير وإن أكبر عامل جعل - على نحو متناقض - الاقتصاد أكثر عالمية فى تلك الفترة هو حرية انتقال قوة العمل عن طريق الهجرة الضخمة، وما يثير الانتباه فى المرحلة الراهنة من الاقتصاد العالمى هو

أن هذا التطور يحدث فى ظل ظروف الرقابة على الهجرة والتحكم فيها من قبل جميع البلدان الرأسمالية الكبرى.

بيد أنه لكى نشرح التمييز بين المظهر والواقع فأظن أنه يلزمنا العودة إلى ما نعنيه بالعولمة. وماذا تبقى أو تستطيع تحقيقه، ولنفترض لوهلة ماذا تشبه أكثر مرحلة تقدمًا من مراحل العولمة : وهو ما قد يتمثل فى وضع تتاح فيه لجميع سكان المعمورة السلع والخدمات وفى أى مكان فى العالم، مع افتراض أن تتوفر لهم الموارد والنقود نفسهما التى ينفقونها، وبقول آخر فإن معيشة المرء فى القارة القطبية (انتاركتيكا) لا يمثل إشكالية أكبر من العيش فى روما أو نيويورك، ومع افتراض أنه من الممكن إنتاج السلع والخدمات بكميات تفى بمتطلبات الجميع، وأن تكون النتيجة عدم تأثر الأفراد بأوضاعهم الجغرافية، حسنًا - لكن الأمر ليس كذلك - أولاً، لأسباب عملية، لأن الناس لديهم موارد مختلفة، بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء أو أن قوتهم غير متساوية، وبعضهم أحرار والبعض الآخر فى السجون، وليس لهذا علاقة بالبعد الكونى: فقد يحدث داخل بلد واحد أو مدينة واحدة، ولذلك لا يهمنا فى أغراض هذه الممارسة الأكاديمية، ومع ذلك هناك منتجات أو خدمات من المستحيل أن تكون متاحة تمامًا للجميع، حتى فى ظل وضع يتسم بالعولمة الكاملة. وقد درس علماء الاقتصاد هذه "السلع" POSITMOMAL GOODS[١] التى تكون بحكم طبيعتها متاحة على نطاق ضيق أو حتى فى ظل أوضاع تتسم بفرادة تامة، ومن الممكن أن تضمن حصول كل فرد على الكوكاكولا، غير أنه يتعذر حصول كل فرد على تذكرة فى "LASCALA"[٢] فتذاكر الدخول محدودة العدد ولا يمكن زيادتها، وبطبيعة الحال يمكن حل المشكلة بطريقة أخرى من الناحية العملية عن طريق إتاحة أقراص مدمجة للجميع تتضمن تسجيلات لجميع الأوبرات التى يعرضها مسرح LA SCALA ، لكن هذا وضع مختلف سواء من الناحية النظرية أو الواقعية.

(١) السلع ذات العرض المحدود التى يزداد عليها الطلب فيما بعد ويرتفع ثمنها حالما يزداد الرخاء المادى. (م)
(٢) من أضخم المسارح الأوبرالية ذات الشهرة التاريخية العالمية فى ميلانو. (م)

وهكذا فإن العولمة تتيح - من ناحية ما - لكل فرد إمكانية أكبر لا إمكانية متساوية، في الوصول حتى إلى أكثر جوانبها تقدمًا من الناحية النظرية، وبالمثل فإن الموارد الطبيعية يجرى توزيعها بطريقة غير متساوية، وتتمثل المشكلة فى العولمة مع تطلعها إلى أن تكفل النزوع إلى الوصول المتساوى إلى المنتجات فى عالم متنوع وغير متساو بشكل طبيعي، فهناك توتر بين مفهومين مجردين.

ونحن نحاول إيجاد قاسم مشترك يكون فى متناول جميع البشر فى العالم؛ لكى يمكن الحصول على الأشياء التى لا تكون فى متناول الجميع بشكل طبيعى، والقاسم المشترك هو العملة أو النقود، أى مفهوم آخر مجرد، وفى الوقت نفسه فإن المسار التقنى للعولمة يستلزم درجة عالية من التوحيد القياسى والتجانس، وسوف تتمثل إحدى المشاكل الكبرى التى ستواجه القرن الحادى والعشرين فى اكتشاف أين توجد الحدود المقبولة للتجانس، التى إذا ما تم تجاوزها فإنها قد تنتج حركة ارتجاعية، وإلى أى مدى يمكن أن تتآلف هذه العملية فى التنوع العالمى، ومن الناحية التكنولوجية فإن الاتجاه صوب التجانس بالغ القوة، وإذا فكرنا - مثلاً - فى وسائل النقل، فعندما تهبط فى بعض المطارات الكبرى فى العالم يكاد أن يكون من المستحيل تقريبًا أن تعرف فى أى بلد أو حتى فى قارة، أن توجد فآليات التشغيل جرى توحيدها، وتنظيمها عالميًا وتستخدم اللغة نفسها، الإنجليزية. وقد وقعت مؤخرًا حادثة جوية خطيرة؛ لأن قائد الطائرة الكازاخستانى لم يستطع أن يفهم الأمر الصادر إليه بالإنجليزية من برج المراقبة فى دلهى، وإذا أرسلت - مثلاً - مصورًا؛ لكى يلتقط صورًا لجميع المكونات الداخلية فى جميع المطارات الكبرى فى العالم، ثم حاولت أن تميز بين الصور: فسوف تجد فى جميع هذه الأماكن المتاجر نفسها، والعلامات (الإيقونات) الإعلامية نفسها وأشكال الجماهير المزدحمة نفسها، وهناك تكييف هواء فى كل مكان بحيث يتعذر حتى ملاحظة الاختلاف فى المناخ، وبالطريقة نفسها فإن إجراءات الإنتاج الصناعى يتزايد توحيد مقاييسها وكذلك بالنسبة للإنتاج الزراعى، ومن ثم فإن المشكل - فى رأيى - التى تبتدى فى عام ٢٠٠٠ ، سوف تتمثل فى التأكد من مدى شدة العقبات التى تواجه هذا التجانس المتنامى.

من بين التجديدات التى أشرت إليها، تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى الوقت الحقيقى ووفقًا لما قاله samuel Brittan - من الناحية الأخرى - فإن الإنترنت لا يعد أكثر أهمية من اختراع الكامل الممتد عبر المحيط الأطلنطى، الذى نقل على وجه السرعة أخبار الانهيار المالى فى ڤيينا إلى بورصة نيويورك ١٨٧٣ ، فما هو المغزى الحقيقى للتكنولوجيا الجديدة فى الاقتصاد الكونى؟

- نحن نعلم أن هذه التكنولوجيا غيرت الأسواق المالية الدولية، وأحدثت اختلالاً كاملاً بين الاقتصاد الحقيقى العلمى وإنتاج السلع والخدمات الحقيقية وطوفان الأدوات المشتقة والحقوق والمراهنات والصفقات المالية، التى تتم عبر شاشات كمبيوتر بسماسرة الأوراق المالية، والمبالغ المتداولة فى هذه المعاملات المالية أكبر بكثير من مجمل الإنتاج الحقيقى العالمى، ويرجع هذا بوضوح إلى تكنولوجيا المعلومات، التى تجعل كل هذا سهلاً على نحو لا يصدق، بل تجعل من الممكن للناس العاديين، مثل أولئك الذين يسمون "التجار المؤقتون" دخول الأسواق وممارسة الشراء والبيع مع الوعد بالدفع، دون وجود أساس من النقود الحقيقية.

- هل نقف إذن على عتبة حقبة من "الرأسمالية الديمقراطية" تشارك فيها الشركات الكبرى وأرباب الأسر على السواء فى الوليمة ويقتسمون الأرباح ؟

- هذا هو الوضع فى الولايات المتحدة، لكن صلته ضعيفة للغاية بالعولمة، فأنت تتساءل عن المدى الذى يمكن أن يقتسم به المواطنون العاديون الزيادة الهائلة فى الثروة الكونية، والتى سوف تواصل الزيادة ؟ وما هى السبل التى تمكن من حدوث ذلك؟ والطريقة الأمريكية تتمثل فى التوسع المطرد فى الملكية الشخصية للأسهم، ولا سيما أسهم الشركات التى يعتقد أنها ذات مستقبل عظيم مثل تلك التى تعمل فى الإنترنت، وهذه الشركات - كما تعلم - لم تحقق بعد أرباحًا فعلية، لكن من المأمول فيه أنها ستحقق ذلك فى يوم ما، وما زالت فعالية هذا النظام موضع مناقشات مستفيضة وهناك من يزعم فى أمريكا أن هذا هو حل دائم لمشاكل توزيع الثروة، ومن غير الواضح لى كم عدد الأمريكيين الذين يستفيدون - فعلاً - من هذا التقسيم للعائد من النمو

القومى أو الكونى، وفضلاً عن هذا فمن الحقيقى - أيضًا - أن هذا الوضع لا يعد - خارج الولايات المتحدة - عاملاً مهمًا جدا فى الاقتصاد.

ومع ذلك ثمة شىء واحد واضح، فإضفاء الطابع الديمقراطى على الرأسمالية حقق خطوات هائلة فى الولايات المتحدة فى السنوات الأخيرة، فالجمهور المستثمر أكبر بشكل لا يمكن مقارنته بما كان سائدًا فى الأوقات التى اعتبرت بمثابة "الاهتمام الجماهيرى" بالبورصة، وحدث ذلك بطريقتين: عن طريق دخول الأفراد إلى سوق الأسهم ومن خلال صناديق الاستثمار الجماعية مثل صناديق الادخار، والتى من المحتمل أن تكون أكثر أهمية فى الأجل الطويل، ويمكن الزعم بأن هذه الصناديق باستثمارها الأموال لأولئك الذين قد لايقومون بذلك بصفة شخصية، يمكن أن تغدو عنصرًا ديمقراطيًا مهمًا حقا فى توزيع الثروة، وفى الوقت نفسه فإنه من الجلى أن الشركات وكبار المستثمرين أحرزوا تقدمًا أكبر مما حققه صغار المستثمرين، وفى بريطانيا فإن المستثمرين الأفراد أقل أهمية نسبيًا مما كانوا عليه منذ عشرين عامًا مضت، برغم أن حكومة السيدة تاتشر بذلت جهوداً ضخمة لتمويل بريطانيا إلى أمة من المساهمين، وملكية الأسهم حاليًا أكثر اختلالاً. وتلك طريقة أخرى للقول إن نمو الاقتصادات القومية والكونية شديد التفاوت فى توزيعه، وغدت الكعكة أضخم غير أن الأثرياء ينالون حصة متزايدة بشكل متسارع للغاية.

- كثيراً ما استخدمت الحكومة العولمة؛ لكى تعرب عن عجزها والتخلى عن جميع مسئولياتها فى إدارة الاقتصاد، والتخلى عن الأسواق، وتونى بلير الذى عرفته - بقدر من القسوة فى رأيى - بوصفه "تاتشر فى زى رجالى" يحرص بصفة خاصة على التمسك بهذه الطريقة، فهل حقا هذا هو الوضع؟ وهل فقدت الدول بالفعل امتيازاتها؟ علمًا بأن المفكر السياسى الألمانى Ulrich Beck يتحدث عن " الانتحار العام البهيج" الذى يرتكبه السياسيون الذين يمجدون السوق.

أعتقد أن هذا يعبر عن بعض الخلط بين شيئين مختلفين، فالعولمة لا رجوع عنها بكل تأكيد وتعد بشكل ما مستقلة عن تصرف الحكومات، وليس الأمر كذلك بالنسبة

للإيديولوجية التى ترتكز عليها العولمة، أى الليبرالية الجديدة أو "إيديولوجية السوق الحرة" أو ما أطلق عليه اسم "أصولية السوق الحرة" وتلك مسألة أخرى تمامًا، فهذه الإيديولوجية تنهض على افتراض أن السوق الحرة تعظم النمو والثروة فى العالم وتحقق التوزيع الأمثل لهذا الازدياد فى الثروة، ومن ثم فإن جميع المحاولات التى تبذل للسيطرة على الأسواق وتنظيمها من المحتم أن تفضى إلى نتائج سلبية؛ لأنها تقلص تراكم الأرباح التى يدرها رأس المال وتعرقل بالتالى بلوغ الحد الأقصى لمعدل النمو.

وفى رأيى أنه لم يوجد أى تبرير معقول على الإطلاق لهذا الرأى، وربما أمكن القول إن السوق الرأسمالية الحرة تحقق معدل نمو أكبر من أى نظام آخر، لكن لا يزال يتعين طرح السؤال عما إذا كان توزيع هذه الثروة يتم فى صورته المثلى، وبقدر ما يتعلق الأمر بالسوق الكونية الحرة، فإن ما يهم هو مجموع الثروة المحققة والنمو الاقتصادى، دونما أى إشارة إلى الكيفية التى يتم بها التوزيع، واقتصاديو السوق الحرة لن يروا ضيرًا إذا استطعت - مثلاً - أن تثبت أن سوقًا حرة تمامًا أمكنها أن تنتج معدل نمو استثنائى فى مجال الإنتاج السينمائى، ويمكن أن يكون أعلى بكثير مما فى أى نظام آخر، لكن - فى الوقت نفسه - اقتصر إنتاج جميع الأفلام على هوليود وليس فى أى مكان آخر، وخلاصة القول إن السوق الحرة تفترض أن التوزيع القائم للمزايا والمنافع سيظل بلا تغيير، ولا يمكن تحسينه.

ومنذ ما يقرب من مائة وخمسين عامًا فإن المنظرين للسوق الحرة - وهم فى ذلك الوقت من البريطانيين - أبلغوا الألمان أن أفضل سياسة يجب اتباعها تتمثل فى زيادة إنتاجهم الزراعى وبيع المنتجات للبريطانيين واستيراد السلع الصناعية من بريطانيا العظمى، مادام فى وسعهم إنتاج فواكه ومواد غذائية أرخص من بريطانيا وفى وسع البريطانيين إنتاج سلع صناعية بتكلفة أقل من ألمانيا، وفيما لو اتبعت - فعلاً - هذه السياسة، التى تم الاعتقاد بأنها الترتيب الأمثل، لكانت قد أفرزت تطورًا اقتصاديًا غير متوازن إلى حد بعيد، وعلى أى حال فإن هذا غير مرتبط بالموضوع لدى منظرى الليبرالية الجديدة.

وفضلاً عن هذا، فإن حجة أن الموارد يجرى توزيعها بطريقة مثلى عن طريق تحقيق أقصى معدل رأسمالى لم تكن مقنعة البتة، وحتى آدم سميث أعتقد أنه ثمة أشياء لا تستطيع السوق أولا ينبغى أن تفعلها، ولذلك فإن الحكومات التى تتبنى إيديولوجية السوق الحرة لا تقول الشىء نفسه مثل أولئك الذين يعترفون - وأنا منهم - بأن العولمة لا رجعة فيها، وثمة العديد من السبل التى يمكن أن تمضى بها العولمة قدمًا، دون أن تقتصر - فقط - على إزالة جميع العقبات التى تحد من تحقيق الربح، وإذا بحثت عن الأسباب التاريخية التى كفلت إيجاد تطور متوازن للصناعة على نطاق العالم فسوف تجد أن ذلك لم يتحقق بفضل التجارة الحرة، بل العكس تمامًا، وقد أضحت الولايات المتحدة وألمانيا بلدين صناعيين فى القرن التاسع عشر بسبب عدم قبول التجارة والتمسك بحماية الصناعة فيها حتى أصبحتا قادرتين على التنافس مع الاقتصاد المهيمن، وكان فى ذلك الوقت هو الاقتصاد البريطانى. وفى القرن العشرين فإن التطور الضخم للصناعة فى العالم الثالث اتسم بطابع حمائى وباستثناء هونج كونج، فإن النمور الآسيوية نهجت النهج الحمائى وحتى تصنيع بلدان مثل البرازيل والمكسيك تحقق بفضل عدم قبول منطق السوق الحرة.

وفى الوقت الراهن، فإن حفنة ضئيلة من الحكومات هى التى لا تقبل هذا المنطق، وتعد موضة السوق الحرة الإيديولوجية من بعض النواحى ثمرة ثانوية للمرحلة النهائية من القرن القصير وتمثل قطيعة مع ما يسمى بالعصر الذهبى للنزعة الكينزية[1]، بيد أن هذه الموضة سريعًا ما تصل إلى نهايتها إن لم تكن قد وصلت فعلاً، وعندما ينظر المؤرخون بعد انقضاء خمسين عامًا إلى حقبتها هذه فمن المرجح أن يقولوا إن الربع الأخير من القرن العشرين القصير انتهى بحدثين : انهيار الاتحاد السوفيتى وإفلاس أصولية السوق الحرة، التى هيمنت على السياسات الحكومية منذ نهاية العصر الذهبى، ويمكن أن تعتبر الأزمة الكونية لعامى ١٩٩٧-١٩٩٨ بمثابة نقطة تحول.

(١) كينز اقتصادى بريطانى شهير (١٨٨٣ - ١٩٤٦) نادى بضرورة توسع الدولة فى الإنفاق الحكومى على المشاريع العامة بغية القضاء على البطالة، وكان قد أرسى أسس ما يعرف بالاقتصاد الكلى Macraecomomis فى كتابه المعروف: النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقود، ١٩٣٦ (المترجم).

– لقد اتسع الآن نطاق النقد الموجه إلى النظرية الاقتصادية الكلاسيكية الجديدة التى قدمها von Hayek و Milton frhedman حتى من قبل المضارب الشهير جورج سوروس أو اقتصاديو السوق الحرة مثل krugman و Bhagurati .

– حقا، إن هذه الإيديولوجية تمر بأزمة، ولا يرجع ذلك – فقط – وبصفة رئيسية إلى أنها أحدثت اختلالاً فى توزيع الثروة، ولكن أساساً بسبب تحطم النظام، ويلوح لى أن ما حدث فى عامى ٩٧ و ٩٨ يمثل انهياراً له شأنه فى الاقتصاد الرأسمالى الكونى، ويعتقد على نطاق واسع أن الانهيار حدث بصفة أساسية بسبب الافتقار إلى الرقابة على إجراءات الاستثمار والتدفق المالى والدولى، ومنذ ذلك الحين – ومنذ ذلك الحين فقط – بدأ ينتشر رفض أصولية السوق الحرة، كما أنها اكتسبت طابعًا دراميًا من بعض النواحى، ليس فقط وليس أساساً بفضل الأزمة فى الشرق الأقصى ولكن بفعل الكارثة الروسية، وقد شرع الرأسماليون الأذكياء فى إدراك هذه الحقيقة منذ وقت مبكر بعض الشىء، وقد انتقد سوروس السوق الحرة منذ مستهل عام ١٩٩٦ ، قبل أن يفسح الازدهار المجال لحدوث انهيار فى نصف العالم، والذى جذب حتى الاقتصاد الأمريكى إلى حافة الكارثة، ولعلك تتذكر أنه بفضل التدخل المحدد من الحكومة الأمريكية وبنك الاحتياطى الفيدرالى (federal Reserve) وبفضل هذا التدخل فقط أمكن إنقاذ صندوق الاستثمار المسمى long - trm Capitel Management juvesement fund مما كفل استقرار النظام المالى الأمريكى.

وقد ارتأيت فى كتابى "عصر التطرف" أننا نتجه صوب توسع كونى ضخم، وقد جعلته عولمة الصناعة ممكن الحدوث، ولا يتوقع أحد وقوع أزمة أخيرة للرأس مالية أو كارثة كونية ومع ذلك، فمن يستطيع أن يشك فى أن ذلك كان أزمة كبرى ؟ وفى الغرب، جرى التقليل من مدى جسامتها وخطورتها، وبما أننا نتكلم جميعًا عن العولمة فعلينا أن ننظر إلى هذه الأزمة من منظور كونى، وألا نكتفى بالحكم على آثارها على الإيطاليين أو الأمريكيين، ومن منظور كونى، فقد كانت دراماتيكية.

وهناك بلدان فى جنوب شرق أسيا وجدت نفسها فى وضع خطير كما فى أمريكا عقب أزمة ١٩٢٩ وهل تم التغلب على تلك الأزمة ؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا لا يعنى أننا ينبغى أن نعود إلى الاعتقاد الكامل وبصورة غير انتقادية فى التوسع دون رقابة وسيطرة، وإننى ألاحظ - برغم لغة السوق الحرة الطنانة - عودة إلى النزعة الحمائية مع بروز النزاعات المتصلة بذلك بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وكذلك بين الولايات المتحدة و الصين، ومما له دلالته البالغة أن هذه النزاعات تمثل عكس سياسة السوق الحرة التى تنهجها الولايات المتحدة منذ الحرب، ولا أعتقد أنها وجدت مواجهة منذ ثلاثينيات القرن الماضى بين الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية مثل تلك التى نراها فى الوقت الراهن، بما يصاحبها من تهديدات حروب تجارية وفرص تعريفات جمركية جزائية، وأود أن أشير أن ذلك يمثل جديداً فى الاقتصاد الكونى، ولا سيما بالنسبة للولايات المتحدة التى من المتوقع أن تساند السوق الحرة مائة فى المائة.

- ومع ذلك فإنه يستحيل الحط من شأن الثروة والعمالة التى حققتها العولمة لعدد كبير من البشر الذين كانوا سابقًا فقراء وفى مسيس الحاجة، وإذا كنا نصاب بالهلع من عمالة الأطفال لم يكونوا يحصلون على هذا الدخل الهزيل، الذى يوفره لهم استغلالهم.

- ومن الطبيعى أن يكون للتغير العميق الذى أحدثته العولمة فى حياة البشر تأثيره العميق فى القرن الجديد، ولا أقصد - فقط - التجديدات التكنولوجية، ذات الطابع الثورى الواضح الجلى ، ولكن أيضاً فى مجال أبسط مثل إمكانية انتقال وتحرك البشر، ولننظر إلى السياحة والسفر مثلاً، ففى ١٩٩٧ بلغ عدد الليالى التى قضاها البشر فى الخارج ٦٣٠ مليون ليلة، ويمثل ذلك من الناحية الإحصائية ليلة واحدة لكل تسعة أشخاص، ومدى التغير الذى يمكن أن يحدثه السفر حول العالم هو أمر لا نقدره حق تقديره تماماً، وقبل اندلاع الحرب الأخيرة فكان عدد الأمريكيين الذين زاروا أمريكا الوسطى (المكسيك وجزر الكاريبى) لم يتجاوز ١٥٠٠٠٠ شخص سنويًا، وأقل من هؤلاء قاموا بزيارة ديزنى لاند يوميًا. والحركة المذهلة للبشر، على غرار المنتجات والمعلومات، هى حركة غير مسبوقة وما هى حدودها ؟ ربما لم تصل بعد إلى حدها الأقصى، لكن هناك حدوداً - بكل تأكيد - حدود مادية على أقل تقدير، ولديكم المشكلة نفسها فى إيطاليا.

فكم عدد أولئك الذين فى وسعهم الذهاب إلى فلوريدا أو البندقية سنويًا؟ لقد أضحى العالم ثريًا ثراءً فاحشًا، وعدد أولئك الذين تتوفر لديهم الموارد الدنيا للقيام بما كان مقصورًا قديمًا على الأثرياء قد ازداد بما لا يقارن بما كان عليه من قبل.

- دعنا ننظر إلى حالة روسيا، ولقد كتبت قائلاً إنه ربما كانت البلد الوحيد فى العالم حيث أفضى اختبار النظرية القائلة إن الشىء الوحيد الذى يحتاجه اقتصاد ما هو السوق الحرة - إلى الدمار والخراب، وقد قرأت مؤخرًا أن أرباب المعاشات فى هذا البلد يعيشون على دخل شهرى يتراوح بين عشرة دولارات و مائة دولار وإن نصف العملة المتداولة هى عملة أجنبية، وقد أشار فيكتور زاسلافسكى إلى أنه يمكن لنا أن نقرر حجم المشكلة الروسية إذا وضعنا فى الاعتبار أن سبع عشرة مليون نسمة فى ألمانيا الشرقية احتاجوا إلى مساعدة قدرها ٩٠٠ مليون دولار للخروج من المأزق.

- حقا إن روسيا تمثل حالة خاصة ويعتقد الاقتصاديون - نظريًا - فى الانتصار الكامل لإيديولوجية السوق الحرة، لكن من حيث الممارسة العملية فإنه لم يوجد بلد حاول قطع الشوط كله حتى النهاية، وهو ما يرجع جزئيًا إلى معوقات سياسية، ولم تستطع أية دولة - حتى الولايات المتحدة - أن تسمح بحرية الهجرة إليها، وهكذا، فإن روسيا هى الحالة الفعلية الوحيدة التى قررت بين عشية وضحاها أن تطبق بالكامل منطق السوق الحرة للرأسمالية، وأسفرت النتائج عن كارثة كلية، وإذا تمت المقارنة بين الآثار الإيجابية لانهيار الاتحاد السوفيتى ونظامه السياسى وبين الآثار السلبية، فإنه يمكن القول إن الآثار الأخيرة أعظم وأكبر على وجه اليقين، ويصدق ذلك بكل تأكيد على غالبية الروس، ويقول الكثير من كبار السن إنهم يفضلون العودة إلى سبعينيات القرن الماضى فى عهد بريجنيف، ومما يدل على ضخامة الكارثة الروسية أن يعتبر الروس عهد بريجنيف عصرًا ذهبيًا.

ومدى الكارثة البشرية التى ألمت بروسيا هو أملاً لا نستطيع نحن أن نفهمه فى الغرب، وكان ذلك بمثابة انقلاب كامل الاتجاهات التاريخية: حيث انخفض متوسط عمر الرجال بعشر سنوات عما كان عليه فى العقد الماضى وانخفض القدر الأكبر من

النشاط الاقتصادى؛ لكى يصبح اقتصاد الكفاف الزراعى. وأعتقد أنه لم يوجد مثيل لهذا فى القرن العشرين، وقد يتساءل المرء عما إذا كان ذلك يرجع بكامله إلى تطبيق قوانين السوق الحرة، وأعتقد أن ذلك يتطلب فيما يتطلب - ولو لم يكن لسبب آخر غير تلك القوانين الخاصة بالسوق الحرة - حتى بعد تعديلها - نوعًا معينًا من المجتمع، وإذا لم يوجد ذلك فى المجتمع فالنتيجة هى الكارثة، وإخفاق جوربا تشيف كان محتماً سلفًا.

ويكاد يكون الوضع فى روسيا دون حل، وذلك لأن المنظمة الوحيدة التى مازالت قائمة وتواصل العمل هى الحزب الشيوعى الذى كان - أيضًا - أكبر عقبة حالت دون تحقيق الإصلاح، ومع ذلك فإن تدمير المنظمة الوحيدة فى المجتمع السوفيتى التى كان فى استطاعتها أن تفعل شيئًا - وهو ما فعله جوربا تشيف - دمر فعليًا الاتحاد السوفيتى، وقد أدانته روسيا حتماً و فعلاً. وإذا ما عقدنا مقارنة بين روسيا والصين حيث وجد كل منهما اقتصاد اشتراكى، فإننا سنجد أنه كان واضحًا منذ ستينيات القرن العشرين أنه يتعين عليهما - إذا ما رغبا فى الاستمرار والبقاء - تطبيق بعض عناصر السوق وأن تؤخذ بعين الاعتبار مطالب المستهلكين، ومنذ تلك الستينيات حاولت المجر و تشيكوسلوفاكيا و روسيا نفسها إدخال إصلاحات تسير فى الأساس فى هذا الاتجاه. وكان واضحًا المسار الذى يتعين اتخاذه، وما إذا كان ذلك يمكن أن يكون متوافقًا مع إبقاء هيكل الدولة الاشتراكية هو مسألة أخرى.

بيد أننا إذا قارنا الصين بالدول الاشتراكية التى انهار نظام الحكم فيها عقب انتهاء الاتحاد السوفيتى، فمن الجلى أن الصين لم تنهار بل على العكس اتخذت إجراءات منظمة لإدخال الإصلاح الاقتصادى بما يتمشى مع اقتصاد السوق، ونجح الصينيون فى هذا، برغم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الجسيمة التى واجهتهم، أساسًا بسبب عدم تخلى الحزب والدولة عن مسئولياتهما، وقد رأوا ما حدث فى الاتحاد السوفيتى وبذلوا كل الجهود التى فى استطاعتهم لتفادى ذلك، وذلك هو المغزى الحقيقى فى رأيى للظاهرة التى عرفت باسم الميدان السماوى Tianan men . وفضلاً عن هذا فإنهم أدركوا تمام الإدراك ضرورة تنظيم عملية الانتقال، مما يعنى أنه لا يمكن بكل بساطة

التخلى عن قطاعات الاقتصاد غير الفعالة للسوق الحرة، بل يجب أيضاً أخذ الاحتياطات اللازمة بشكل أو آخر لضمان مستقبل الصناعات الحكومية الضخمة التى لا يمكن إقفالها، لأنها لا تحقق ربحًا، وبما أن الصين تمكنت من إبقاء سيطرتها على هذه العملية فقد استطاعت الدولة - بطريقة أو أخرى - أن تتحمل مسئوليتها لمواجهة المشاكل المترتبة على فترة الانتقال، وبعد انقضاء عشر سنوات على حادثة الميدان السماوى فإن هذا البلد يتمتع باقتصاد قوى يواصل نموه بل يعد بالأحرى ومن مناحى عديدة اقتصاداً رائعًا، ومن الواضح أنه يواجه مشاكل خطيرة، لا يمكن مقارنته ولو مقارنة واهية ضعيفة بالوضع الراهن للاتحاد السوفيتى السابق.

- ثمة تناقضات لفظية عديدة فى مدرسة الحرية الاقتصادية (دعه يعمل) فالسلع ورءوس الأموال يجرى تداولها بحرية، ولا ينطبق ذلك على القوى العاملة، وفى اقتصاد يرتكز على المنافسة ما أكثر عمليات الدمج التى تتم على نطاق ضخم ، بهدف خلق مراكز احتكارية فى السوق وبينما تتحدث النظرية الكلاسيكية الجديدة عن ضرورة الإبقاء على "معدل طبيعى للبطالة" لكى يمكن تفادى التضخم، فإن حكومات اليوم تهتم بمقاومة الانكماش وتقديم الدعم الحكومى للعمالة فما هى صلة ذلك بعملية العولمة ؟

- وما هو أكثر طبيعية من ذلك اتجاه الاقتصاد القائم على المنافسة إلى الاحتكار، وذلك هو جوهر تحليل ماركس فالمنافسة الرأسمالية تفضى إلى تركيز رأس المال، وفى الأوضاع الراهنة فإن ذلك يحدث بسرعة، لكنه حدث دوماً.

ويتصرف كثير من الإيديولوجيين والسياسيين كما لو أن هذه العملية لا يمكن التحكم فيها، كما لو أن الحكومات ليس لديها المقدرة على مقاومتها، وإنه يتعين عليها أن تذعن لها وتتكيف مع حقيقتها، وهذه العملية لها حدودها التى لا يمكن التغلب عليها، وترجع بصفة أساسية إلى المقاومة السياسية التى يبديها السكان المعنيون، كما فى حالة الحدود المفروضة على هجرة العمالة الرخيصة، ومن وجهة نظر منطق السوق الحرة فإنه ينبغى وجود حركة حرة - تمامًا - لجميع عناصر الإنتاج، ومع ذلك، فقد ثبت أنه يكاد يكون من المستحيل ضمان وجود حركة حرة، حرية كاملة لأحد عناصر الإنتاج : ألا وهى قوة العمل ولأسباب سياسية وعملية - وعلى الرغم من كل الأحاديث

الدائرة عن أسواق العمل المرنة - فلا توجد حكومة تعتقد بجدية أنه يتعين عليها أن تنهج مثل هذه السياسة عن طريق تخفيض مستويات الأجور البريطانية أو الإيطالية لتكون فى مستويات الأجور الصينية أو الكمبورية؛ لأن الآثار السياسية والاجتماعية لن يمكن تحملها، أو اعتبرت هكذا على أقل تقدير.

وفكرة أن العولمة لا يمكن التحكم فيها خاطئة وأنت تعلم أنه من الممكن التحكم فيها على الرغم من بعض الجوانب أكثر صعوبة فى السيطرة عليها، ونعلم أن التحكم فيها أحيانًا لأن الحكومات قامت بذلك أحيانًا وبنجاح. واليوم هناك حركة حرة لانتقال الأيدى العاملة أقل مما كان فى العالم قبل عام ١٩١٤. عندما لم توجد حدود مفروضة على الهجرة سواء إلى الولايات المتحدة أو إلى أمريكا الجنوبية، ولا يوجد بلد حاليًا - فى حدود معرفتي - ينهج سياسة هجرة مماثلة : لا الولايات المتحدة ولا الاتحاد الأوروبى، الذى يعمل عمومًا فى اتجاه الحيلولة دون الهجرة، وإن كان بدرجة أقل.

ويرجعنا هذا إلى السؤال الكبير عن الصراع بين قوى الرأسمالية التى تناصر إزالة جميع العقبات، والقوى السياسية التى تعمل بصفة أساسية من خلال الدولة القومية (الدولة - الأمة) وهى مضطرة إلى تنظيم هذه الإجراءات وضبطها أو أنها تختار عن عمد القيام بذلك وهذا صراع؛ لأن قوانين التطور الرأسمالى بسيطة: أقصى حد من التوسع وتحقيق الأرباح وزيادة رأس المال، بيد أن أولويات الحكومة والشعوب المنظمة فى مجتمعات مختلفة بحكم طبيعتها ذاتها، وهى فى صراع إلى حد ما.

- لقد دعوت إلى شكل ما من الرقابة على الأسواق المالية ولست الوحيد فى هذا الصدد، وهذه الرقابة من المفترض أن تضعف من تأثير ردود الأفعال اللاعقلية والتى تحدث ما يطلق عليه "تأثير الدومينو"، وردود الأفعال هذه يمكن أن تحدث انهيارًا ماليًا ضخمًا ذى أبعاد كونية فى بعض أجزاء العالم وذلك فى ومضة عين، لكن من هو الذى يفرض هذه القواعد؟ هل هى الدولة القومية التى لا تمتلك السلطة؟ أو المنظمات الدولية التى لا تمتلك السلطة وتطبق - أحيانًا - علاجات أسوأ من المشاكل التى يفترض أن تجد حلا؟

– إن المنظمات الدولية التى لدينا هى موجودة – فقط – بإذن من الدول القومية، ولا تتمتع بسلطة مستقلة بخلاف تلك التى تخولها إياها الدول الكبرى أى الولايات المتحدة وقلة من الدول الأخرى. ومنذ الكساد الكبير وعلى الأخص، منذ الحرب العالمية الثانية وجدت منظمات دولية مخصصة لمراقبة تدفق رءوس الأموال : بنك التسويات الدولية الذى وجد منذ عام ١٩٢٩ وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى وجاءت نشأتها بموجب اتفاق بريتون وودز، وهو نتيجة التعاون بين كينز والاقتصاديين الأمريكيين (وربما كان من الأفضل فيما لو تمكن كينز من تحقيق أكبر، لكن ذلك هو ما انتهت إليه الأمور) بيد أن هذه المؤسسات تعتمد – أيضًا – على الدول القومية، وفى الواقع فإن الدول هى السلطة السياسية الوحيدة، وكما ناقشنا آنفًا فلا يوجد اتجاه طبيعى صوب عولمة المنظمات السياسية يمكن مقارنته بالاتجاه الطبيعى فى المجال الاقتصادى صوب العولمة فالأمران مختلفان تمامًا.

وما إذا كان يمكن قيام سلطة دولية فإن ذلك يتوقف على اتخاذ قرار سياسى ولا يعتمد على منطق التطور الاقتصادى والتكنولوجى، وتلك مشكلة سوف تسيطر على التطورات فى القرن الحادى والعشرين، وفى السنوات العشرين الأخيرة، إبان المد الكاسح الذى اكتسبته أصولية السوق فقد لاح لوهلة أن الدول يمكن إضعافها بصورة بالغة أو حتى إزالتها باعتبارها عقبة أمام الاقتصاد العابر للحدود القومية، ودارت مناقشات حول اتفاق الاستثمار المتعدد الأطراف، الذى كان أن يمكن أن يعطى الشركات الحق من جانب واحد فى مقاضاة أى دولة بسبب السياسات التى قد تضر بتحقيق الأرباح، وبعد انقضاء عدة شهور فإن المفاوضات التى بدأت – منذ قليل – انتهت إلى لا شىء بالفعل وتوقفت، وفضلاً عن هذا فإننى لا أظن أنه سوف تتكرر محاولة إحيائها، على الأقل الشروط نفسها، وبالتالى هناك صراع مستمر وسيوجد دائمًا، ومما قد يكون مثيرًا للاهتمام إمعان النظر فى كيف سيكون العالم إذا كفت الدول عن أن تكون قيدًا على تطور الاقتصاد الرأسمالى العابر للحدود القومية الذى يقوم على تصور كوكب، الوحدات الأساسية فيه لم تعد الدول بل هى الشركات. ومن الناحية النظرية يمكن تصور عالم لم يعد مقسمًا جغرافيًا، بل يقوم على أساس وجود

مائتين من أكبر المؤسسات الدولية تكتنفها وحدات اقتصادية أصغر مازال لديها المقدرة على أن تتسم بطابع دولى، مثل بينيتون (Benetton) وأخيراً عدد كبير من الشركات الصغيرة للغاية التى يمكن الوصول إلى الأسواق الكونية من خلال الإنترنت، مثل تلك الأسرة الصغيرة لبيع اللحوم المحفوظة أو المعلبة فى بريطانيا التى تبيع منتجاتها فى كل قارة.

وماذا سوف يشبه مثل هذا العالم؟ ونحن نعلم أن الأمم الرئيسية، الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وألمانيا ظلت لما يقرب من مائتى أو ثلاثمائة عام دولاً عظمى بدرجة أو بأخرى، ونحن نعلم أنها يمكن أن تغدو أقل استقراراً كما رأينا فى حالة روسيا، ونحن نعلم أنها يمكن أن تتفتت فى المستقبل مثل المملكة المتحدة، ومع ذلك فإن الاستقرار النسبى للخريطة السياسية للعلم المتقدم التى كفلتها الدول يمكن أن نتقبلها كواقع ثابت، ومن غير الواضح إلى أى مدى يمكن أن يصدق هذا على عالم منظم من حول أعظم أبطال الاقتصاد الكونى مثل جنرال موتورز وفورد و IBM وميكروسوفت، وتستطيع كل شركة من هذه الشركات العملاقة أن تحدث تغييرات فى بنيتها الهيكلية يمكن أن تكون أبعد مدى بكثير من تلك التى يمكن أن تحدث فى الدول. وفى أواخر العصور الوسطى كانت دوقية برغنديا (فرنسا) قوة سياسية وثقافية عظمى ثم اختفت، ومن غير المحال تختفى تلك القطاعات من المنظر الاقتصادى الذى نعتبره اليوم دائماً، مثل جنرال موتورز، أو يتم الاستحواذ عليها فى فترة وجيزة تمتد من أربعين إلى خمسين عاماً، وذلك أن ديناميكية الاقتصاد الكونى هى على النحو الذى لا يمكن أن يكفل استقرار الأبطال الأساسيين، ولنأخذ مثل أوليفتى التى لا تعد بكل تأكيد أكثر ثراء من Telecom Italia ، ومع ذلك فى استطاعتها أن تستولى عليها، وذلك ما أعنيه بعدم الاستقرار.

وإذا افترضنا الآن اختفاء الاستقرار النسبى للدول، فإن عدم استقرار عالم منظم بما يتمشى مع اتجاه الاقتصاد العابر للحدود القومية سوف يزداد بكل تأكيد، وثمة توتر مطرد بين هذين النظامين اللذين يتعايشان حالياً ويجب أن يتكيفا معاً. ومن الواضح – مثلاً – أن الاقتصاد الدولى تعوقه ضرورة الخضوع للتشريع الوطنى

ولهذا فإنه يطور دائمًا فى موازاة ذلك نظامه القانونى الخاص به، وتلك محاولة لتجنب الخضوع للنظم القانونية المحلية وليكن مثلاً عن طريق إرساء مبدأ الالتجاء إلى التحكيم بمعرفة هيئات مستقلة.

بيد أننا نعيش فى وضع سوف يستمر لبعض الوقت، يتعين فيه على اللاعبين فى الاقتصاد الكونى أن يتوافقوا مع قوانين ومؤسسات نظم الدول القائمة، ويصدق ذلك بأقل تقدير على البلدان الرئيسية، وهو ما لا يسرى على العديد من الوحدات السياسية الصغيرة التى يمكن للاقتصاد الكونى أن يتلاعب بها ويسيطر عليها مثل إمارة ليختنشتين، وتلك المسماة ببلدان الملاذ الضريبى. لكن علينا أن نتذكر أنه حتى دولة مثل ماليزيا كانت قادرة على اختيار طريقتها الخاصة فى التعامل مع أزمة ١٩٩٨ بما يتعارض مع اقتراحات البنوك الدولية التى أوضحت ما الذى يمكن ألا تقوم به الدول، ومن الواضح أنه لا يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا الحد فى التدخل فى سيادة الدول.

ولا تتمثل المشكلة – إذن – فيما إذا كانت الحكومات تستطيع السيطرة على الشركات الدولية العاملة داخل حدودها، وإنما المشكلة تتعلق بالسيطرة الكونية، فعندما ينشب صراع بين مؤسسات كونية والحكومات فإنه يتعين على الحكومات أن تتفاوض كما لو كانت تتعامل مع دول أخرى. ولننظر – مثلاً – فى الحالات التى تم فيها انسحاب فولس فاجن من فالنيسيا (إسبانيا) أو عندما أقفلت B m w مصنعًا مهمًا فى إنجلترا، وفى مثل هذه الحالات يتعين على الحكومات أن تتفاوض مع تلك الشركات كما لو كانت دولاً، ومن الطبيعى أنه كلما كانت الدولة قوية كلما أمكنها الحصول على المزيد، لكن لابد لها من أن تتفاوض مع مثل هذه الشركات.

وحتى الآن فإن المحاولة الوحيدة للسيطرة على الاقتصاد العابر للحدود القومية عالميًا قد جرت عن طريق تأسيس تحالف (كونسورسيوم) من الدول كما حدث فى الاتحاد الأوروبى، وإلى أى مدى سيكون النجاح حليفًا لهذا التوجه تلك مسألة قيد النقاش، ولا يشك أحد فى إمكانية ذلك برغم المصاعب التقنية، ويمكن فى نهاية الأمر – وكحالة قصوى – أن تتدخل الولايات المتحدة فى التحويل المادى الفعلى للأموال عن طريق تعطيل الأقمار الصناعية التى يعمل عن طريقها النظام المالى.

ويتمثل الخطر الماثل فى الوضع الراهن فى أن الدول الكبرى، الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى واليابان، لا تجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات فعالة إلا فى فترات الأزمات، وعندما تمر الأزمات تختفى أيضًا المبادرة للقيام بعمل ما، وذلك هو ما يحدث الآن. وقرب نهاية خريف عام ١٩٩٨ ولمدة شهور قليلة تحقق إجماع عام على ضرورة إعادة تنظيم الرقابة على المعاملات المالية وإنشاء بريتون وودز جديدة، ويقول الأمريكيين - حاليًا - إنه ليست هناك حاجة فعلية على ذلك، وبالرغم من ذلك فإننى أعتقد أنه سوف تتقرر فى النهاية درجة أكبر من الرقابة. وكيف تتم تلك مسألة أخرى، وهناك تباين شاسع فى الآراء بين الخبراء وبين صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والفيدرال ريزرف الأمريكى، والمفارقة هى أن أمريكا ليست قوية بما يكفى لفرض نظام اقتصادى جديد. وفى الأربعينيات من القرن العشرين كانت إذا ما اتفقت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى على أمر ما فإنه يشق طريق إلى الأمام، واليوم إذا أرادت أمريكا فعلاً إعادة هيكلة النظام المالى العالمى فمن غير الواضح ما إذا كانت قادرة على أن تفعل ذلك.

- أنت من أشد المتحمسين لما سميته العصر الذهبى الكينزى الذى أعقب فى الغرب الحرب العالمية الثانية، وأشرت إلى أن النمو فى البلدان المتقدمة كان فيما بين عامى ١٩٦٠ و١٩٧٤ (المتوسط السنوى ٤,٩ فى المائة) أكبر منه فى السنوات التى سيطرت عليها نظريات السوق الحرة (فيما بين ١٩٩٠ و ١٩٩٧ حيث بلغ معدل النمو ٢,١٥ فى المائة) لكن هل تعتقد حقا أنه يمكن تطبيق الوصفة الكينزية على اقتصاد اليوم، لقد حاول ميتران فى فترة حكمه الطويلة غير أنه فى خلال عامين إستسلم للأرثوذكسية الرأسمالية، وحاول لافونتين فى ألمانيا واستمر أقل من ستة شهور.

- لا توجد سياسات اقتصادية صالحة دومًا وعلى نطاق عالمى شامل، ومن الواضح أن السياسة الكينزية عملت على نحو جيد تمامًا فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وهو ما يرجع جزئيًا إلى الأوضاع السياسية، حيث وجد مناخ أرادت فيه الحكومات إنجاحها، غير أنه وجدت أيضًا أوضاع خاصة لا يمكن أن تتكرر، وكان

ممكنًا فى تلك الفترة زيادة الأرباح والأجور والرفاهية دون تقليص النمو أو إحداث تضخم يصعب التحكم فيه، ولا أود القول إنه يمكن بعث هذا النظام الاقتصادى، ومن المؤكد إنه من غير الممكن لبلدان متوسطة الحجم تطبيق سياسة اقتصادية دون الرجوع إلى الاقتصاد الكونى، ما لم تقرر الانعزال عن العولمة، وهو ما يعد حاليًا من غير المرجح، برغم أنه ممكن نظريًا. ولدينا بعض الحالات القصوى مثل ألبانيا التى عزلت نفسها عمليًا عن بقية العالم، لكنها تمكنت من البقاء حتى انهيار الشيوعية، ولم تكن بكل تأكيد تتمتع باقتصاد جيد وفعال وغنى بحيث كنا نتمنى العيش فيه، وكان الناس فقراء للغاية غير أنه كان اقتصاديًا يعمل، لكنه انهار عندما انهار النظام السياسى الذى استبعد العالم كله، وعندئذ - فقط - كف عن العمل، ولا أقول إنه ثمة إمكانية حقيقية لكى يسلك آخرون المسلك نفسه أحيانًا لكن لا يمكننا أن نستبعد حدوث ذلك.

وفى المستقبل تستطيع بعض بقاع العالم أن تقرر احتضان النزعة الحمائية، وهو أمر قد يكون غير مرغوب فيه لأنه قد يحد من معدل النمو العالمى، بيد أنه قد لا يعدو كارثة بالضرورة بالنسبة للبلدان التى تختار سلوك هذا المسار، وتتعهد الحكومات حاليًا باتباع سياسة ديمقراطية تكون الغلبة فيها لمصالح الناس العاديين، وعليها أن تعمل فى نهاية الأمر ما يريده المحكومون، وحتى فى نظم السوق الحرة الأكثر راديكالية فإن الدولة - عمومًا - هى التى توفر معظم الخدمات العامة والمعاشات والخدمات الصحية، ويبدو لى أن هذه هى المطالب الاجتماعية الرئيسية الثلاثة التى يتعين على كل حكومة أن توفرها، ولا يمكن ضمان أى منها دون وجود نظام تديره الحكومة ولو جزئيًا على أقل تقدير، وحتى فى الولايات المتحدة - مثلاً - لا تحلم أى حكومة سواء من الديمقراطيين أو من الجمهوريين بإلغاء الرعاية الطبية التى تعد فى الواقع رعاية اجتماعية توفر العلاج الصحى لجميع الأمريكيين البالغين.

ولم تحاول أبدًا أية حكومة - حتى ولو كانت محافظة - إلغاء دولة الرعاية الاجتماعية، وتنفق هذه الحكومات على الرعاية مثلما تنفق الحكومات الاشتراكية وربما أكثر، وتحاول أن تجعلها أقل جانبية وتحاول تثبيط همة المواطنين؛ لكى يحدوا من استعمالها والإفادة منها لكنها لم تكن قادرة على إلغائها كليةً، وهكذا فإنه يتعين على

الحكومات أن تنهج سياسة اقتصادية تعمل على ألا تثبط عزيمة القطاع الخاص في خلق الثروة وأن توفر في الوقت نفسه المطالب الاجتماعية للسكان. وهناك جدل مستفيض في بريطانيا ينصب على خصخصة نظام المعاشات وقد حاولت تاتشر، لكنه أصبح واضحًا أنه لا سبيل يمكن الأفراد من الحصول على دخل عندما يتقدم بهم السن دون بعض المساعدة من الحكومة، حتى ولو لم تكن أكثر من تخفيضات ضريبية على مدخرات المعاش ومشكلة المعاشات أقل خطورة الآن بالنسبة لمعظم الأمريكيين بسبب النمو الهائل في بورصة وول ستريت، لكن هذه حالة فريدة تخص نسبة ٥٪ من سكان العالم.

يعد الاستهلاك من بين القوى العظمى التي تقف خلف النموذج الأمريكي والاقتصاد الكوني، وقد ارتكز الازدهار الذي شهدته تسعينيات القرن العشرين على الاختيار الاستهلاكي للأمريكيين الذين توقفوا بصفة مستمرة أو استثمروا كل أموالهم في سوق الأسهم، ولقد كتبت قائلاً : "إننا نعيش حقبة كان يمكن أن تنال تقدير ماري أنطوانيت؛ لأنه أصبح في وسع الأغلبية أن تأكل الكعك بدلاً من الخبز" ألا يعد سخرية تاريخية أن النزعة الاستهلاكية ذات التأثير المهلك هي التي تصبح دعامة للنظام على وجه الدقة ؟

– أعتقد أن الأمر هو أكثر من مجرد كونه سخرية تاريخية، فنمو الثروة بلغ حدا من الضخامة بحيث غير الأوضاع كلية في الواقع، كما أن مقدرة الاقتصاد الكوني على زيادة الإنتاج – حتى ولو كان ذلك مقترنًا بتوزيع غير متكافئ إلى حد كبير – قد غيرت السوق الاستهلاكية في الولايات المتحدة أولاً ثم في أستراليا وفي أوروبا، ولكن على نحو متزايد في كل مكان، وينبغي ألا ننسى – بغض النظر عن أي معيار نستخدمه – أن غالبية الشعوب أصبحت أيسر حالاً في نهاية القرن العشرين، برغم الكوارث غير العادية التي شهدها ذلك القرن، وهناك استثناء واحد أو استثناءان، تدهورت فيهما الأوضاع وعلى الأخص في السنوات الأخيرة في إفريقيا وروسيا، ولكن إجمالاً فإنه لدينا حاليًا ثلاثة أضعاف عدد السكان الذي كان في مطلع القرن، ومع ذلك فإن هؤلاء البشر أقوى بدنيًا وأطول قامة وأطول عمرًا وأكثر صحة، ويعانون بدرجة أقل الجوع والمجاعة ويحصلون على دخل أكبر ولديهم إمكانية أكبر بكثير للحصول على السلع والخدمات،

بما فى ذلك تـلك التى توفـر لهم فرصًا أكبر فى الحيـاة مثـل التعليـم، ويصدق ذلك - أيضًا - على البلدان الأشد فقرًا، وأخير فإنه لم تحدث مجاعة فى الهند منذ عام ١٩٤٣ ، ولم يعد الجوع فى معظم بقاع العالم - مع بضعة استثناءات - شيئًا يتعين على البشر أن يتعايشوا معه.

ويعنى ذلك - وللمرة الأولى فى التاريخ - أن الإنتاج يمكن أن يفى بمطالب جماهير السكان ولم يعد البشر فى البلدان المتقدمة يعيشون فى عصر العوز والفاقة، ويمكنهم أن يختاروا من بين الأشياء التى يريدونها، بعد أن يصبح لديهم ما يكفى من الأكل وما يزيد عن الحاجة من المسكن ولم يعد ينتابهم القلق فيما يتعلق بخبزهم اليومى وعليهم أن يقرروا - فقط - أى نوع من الخبز يفضلون وأى سنوتشات يختارون... إلخ، وقد عمل ذلك على تغيير الاقتصاد سواء من حيث الخدمات أو السلع المادية، ولننظر فقط فى إمكانية الإفادة من الثقافة من حيث توفر عدد الكتب والتسجيلات وعدد أولئك الذين يمكنهم الحصول على التسلية والترفيه فى جميع ساعات اليوم وذلك لا سابقة له فى تاريخ البشرية، وفى البلدان المتقدمة، حتى الأكثر فقرًا والأكثر هامشية يعيشون على نحو أفضل إلى حد بعيد مما كان يعيش أجدادهم، ذلك هو أحد أسباب العودة الناجحة لمعتقدات السوق الحرة ولو لفترة قصيرة فقط، وهدفها ليس هو إلغاء الفقر وتحقيق إعادة التوزيع والعدالة الاجتماعية، ولكن برغم كل ظلمها فإن الفقراء ينزعون إلى قبولها، كما لو كانوا أكثر ثراء بقدر هائل.

وما أضخم النمو الذى حدث فى الإنتاج البشرى وفى مدى إتاحة الثروة، وقد استفاد من ذلك القدر الأعظم من سكان العالم، وتلك إحدى قسمات القرن العشرين التى يتعين أن توضع فى الحسبان عند تقييم أى القرون أفضل أو أسوأ، لقد كان عدد القتلى أكبر منه فى أى قرن آخر، لكن فى نهايته وجد عدد من البشر أكبر مما وجد فى أى وقت آخر، تحدوهم كبار الآمال وتتاح لهم فرص أكبر، دعنا نأمل فى أن يحرز القرن الحادى والعشرين المزيد من التقدم، ولكن دون حدوث كوارث، غير أنه إذا حدثت ستكون مختلفة، وذلك كنتيجة لما شهده القرن العشرين وحدث فيه.

ثمة جانب رئيسى فى الاقتصاد الحديث تمثل فى التحول التدريجى من السلع الصناعية إلى اقتصاد يقوم على الخدمات، ويشعر كثيرون بالحنين إلى العامل الصناعى، فهل يعد مجتمع ما بعد الصناعة استجابة جيدة لعالم تباع فيه الأفكار بشكل أفضل من بيع الأشياء المادية ؟

واليوم فإن الاستثمار الصناعى لم يعد حتى يضمن تحقيق زيادة فى القاعدة الصناعية بسبب التكنولوجيا الجديدة، وعقيدة الاقتصاد الجديد هى "أرباح أكثر ووظائف أقل".

– هذه العملية عجلت بها العولمة، ولكنها ليست بالضرورة نتيجة لها، ومع ذلك من الخطل الحديث عن حقبة ما بعد الصناعة؛ لأن تلك السلع والخدمات التى كانت تنتج فى الحقبة الصناعية مازالت تنتج اليوم، وعلى الرغم من أنها تنتج بكميات أكبر ويجرى توزيعها على نطاق واسع إلا أن ذلك يحدث بقدر أقل من طاقة العمل المبذولة فيها، والجديد فى هذا الوضع هو أنه من بين جميع عناصر الإنتاج فإن الحاجة إلى الطاقة البشرية تتجه إلى التناقض بقدر مطرد، ويرجع ذلك إلى أنها لا تنتج بقدر التكلفة، فالبشر لم يخلقوا للرأسمالية، ولا يفرز هذا تأثيرات سلبية على الإنتاج وإنما على البشر فقط.

وأعتقد أنه يتعين علينا أن نجد طريقة أخرى لاقتسام منافع الثروة التى ينتجها عدد متناقض من الأشخاص، يمكن أن يكونوا قلة محدودة للغاية – فعلاً – فى المستقبل، وهناك طريقتان لذلك : الطريقة الأولى – وهى الأسلوب المستقر من الماضى – التى كفلت للناس العيش عن طريق منح أجر أو مرتب مقابل ما يؤدونه من عمل، وبالنسبة لغير القادرين على العمل فقد تم ترتيب عملية تحويل جزء من الدخل يؤخذ من الأشخاص الذين يعملون ويمنح لأولئك الذين هم خارج سوق العمل، وقد تزايد حاليًا بقدر كبير عدد غير العاملين والذين لا دخل لهم، ولذلك نجد أنفسنا فى الوضع الذى يفرض علينا إيجاد طرائق جديدة لتوزيع الثروة الوطنية والدولية، كما أنه علينا أن نكفل العيش لبعض أولئك الذين كانوا يحصلون على دخلهم فى الماضى من سوق العمل.

وتلك هى المشكلة الكبرى التى تواجهنا، وهى لا تتعلق بزيادة الإنتاج التى قد حلت بنجاح وتتمثل الصعوبة الحقيقة فى كيفية إمكان توزيع الثروة، والطريقة الفعالة التى نعرفها هى إعادة التوزيع بمعرفة الدولة والسلطات العامة، ولهذا السبب فإننى أعتقد أن الدولة القومية مازالت لا يمكن الاستغناء عنها، وربما كانت وظائفها الاقتصادية أقل من ذى قبل، لكن وظائفها التوزيعية أكثر أهمية من ذى قبل، ولا أقول إنه على الدولة أن تقوم بذلك فى صيغته الراهنة، غير أنه لابد من وجود نوع من السلطة العامة التى يمكن أن تقوم بإعادة التوزيع هذه، وماذا يمكن أن يحصل إذا لم يحدث هذا؟ ذلك سؤال قدم عنه القرن العشرين - فى أواخره - بعض الدلائل.

- لقد غدت بلدان الاتحاد الأوروبى - وفقًا لما قاله أندريه جورز - أكثر ثراء عبر السنوات العشرين الأخيرة بنسبة تتراوح بين ٥٠ و ٧٠٪، وعلى الرغم من هذا يوجد حاليًا قرابة العشرين مليون عامل وحوالى الخمسين مليون فقير وخمسة ملايين بلا مأوى.

- يلوح جليًا أن نسبة ضئيلة من الثروة المحققة جرى بالفعل إعادة توزيعها على غالبية السكان، ويغدو اقتسام الثروة أقل مساواة على نحو فاجع، وعندما أقول على نحو فاجع فأنا أعنى أنا حفنة ضئيلة من الأشخاص، وأحيانًا بضعة أفراد أصبحوا أثرياء بطريقة غير مسبوقة على الأقل منذ وقت المجتمع الإقطاعى، عندما امتلك رئيس أساقفة سالزبورج بصفته الشخصية ثلث الناتج الاجتماعى الإجمالى فى المنطقة التى كان يعيش فيها، ومنذ ذلك الحين، وجد دائمًا قدر معين من إعادة التوزيع، بحيث أسفر عن أن الأغنياء حقا ليسوا أثرياء للغاية، وجد بالفعل قلة من البشر كان فى وسعهم أن ينافسوا الحكومات من حيث الثروة التى يمتلكونها وذلك مثل أسرة روتشيلد التى كانت عند نهاية حروب نابليون ثرية بمثل ثراء بلدان مثل فرنسا أو بريطانيا العظمى، ولكن تلك حالة استثنائية.

وحتى البليونيرات أمثال كارنيجى وروكفلر - الذين كانوا شديدى الثراء - لن يكونوا كذلك بمقاييس اليوم، وإننى أتذكر القول الشهير لروكفلر عند وفاة j.p morgan

المصرفى العظيم الذى كان ثريًا بما فيه الكفاية؛ لكى يتمكن من تكوين أروع المجموعات الغنية فى العالم، وترك ثروة تقدر بحوالى ٨٠ مليون دولار، كانت تعد فى العشرينيات ثروة لا بأس بها حيث قال روكفلر: "اعتقدنا دائمًا أنه كان ثريًا"، وتلك الثروات الضخمة تقل عن الثروة التى يمتلكها اليوم فرد واحد مثل بيل جيتس أو جورج سوروس أو تيد تيريز، وأشك - مثلاً - فى أن كارنيجى - الذى ربما أنفق على الأعمال الخيرية أكثر من أى شخص آخر فى زمنه - كان يمكنه أن يعرض دفع جزء من دين الولايات المتحدة للأمم المتحدة، كما فعل تيد تيريز. وفى الوقت نفسه فإن سوروس الذى ينفق أمواله على الأغراض النبيلة بالمعدل نفسه الذى كان يقوم به كارنيجى، يعترف بأن كل ما يدفعه محدود التأثير على ثروته.

إن مستوى الثراء المتاح حاليًا للأفراد مذهل على نحو تام، وإذا تحدثنا بالأرقام الإجمالية فإن الثروة التى فى أيدى واحد فى المائة من السكان ضخمة، وما مدى عدم تأثير هذا الوضع (مستقبلا) على السياسة ؟ ذلك أمر غير واضح، ولدينا إمارات من الولايات المتحدة تشير إلى أن الأفراد فى وسعهم الآن أن ينجحوا فى تولى أمر الحملات الانتخابية الرئاسية أو أن يؤثروا فيها تأثيرًا بالغًا، عن طريق إمكانيتهم المالية الخاصة، ويستطيع الأثرياء اليوم أن يفعلوا ما كانت تفعله من قبل التنظيمات الجماعية الضخمة، ولست متأكدًا ماذا إذا كنا ندرك إدراكًا تامًا الآثار العميقة لهذه الظاهرة.

- إن رومانو برودى هو الإيطالى الذى دعى إلى أن يقود أوروبا فى أحرج وأدق مراحلها، هل تظن أن لديه الأفكار والقوة بما يمكنه من الاضلاع بهذه المهمة ؟ وإلى أين فى اعتقادك ؟ سوف تنتهى عملية الاندماج الأوروبى؟

- أنا لا أعرف برودى سوى ما قرأته عنه فى الصحف، وأعلم أنا برودى - مثل غالبية الإيطاليين - من المناصرين لنهج سياسة أوروبية طموحة للغاية سوف توجه الاتحاد صوب نوع من الفيدرالية السياسية، ومن غير الواضح مدى إمكان نجاح هذه السياسة، ومن الجلى أنها تنال دعم مؤسسة بروكسل؛ لأن الفكرة الأصلية نبعت من هناك. ومدى رغبة الحكومات المختلفة لمواصلة السير فى هذا الاتجاه مسألة أكثر تعقيدًا،

فسوف يعتمد ذلك على مدى استعداد البلدان الكبيرة لإخضاع سيادتها القومية للمشروع الأوروبى، وأميل إلى الاعتقاد بأنه ستوجد تعقيدات قاسية تفرض على هذا المسار، وأظن - مثلاً - أن فكرة التصويت بالأغلبية لا يمكن أن تتعدى نطاق مسائل معينة؛ لأن الدول الأعضاء الرئيسية - بريطانيا العظمى ومن المحتمل فرنسا أيضًا - سوف تدافع عن حقها فى التصويت على القرارات الحاسمة، ومع توسيع نطاق الاتحاد الأوروبى سيكون من الصعب عليها بشكل خاص أن تواجه احتمال أن تجد نفسها ضمن الأقلية.

وسوف تجد أوروبا نفسها - إن آجلاً أو عاجلاً - فى الوضع الذى يوجد فيه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، فالبلدان التى ستكون قادرة فعلاً على اتخاذ القرارات لن تكون راغبة بكل بساطة فى أن تتخلى عن سلطتها للأغلبية، وسلطة الرفض أو حق النقض (الفيتو) وهو ما تتمتع به الدول الكبرى جرى اختراعه على وجه الدقة لهذا السبب؛ لكى يصبح من المؤكد عدم إمكان هزيمة أى دولة كبرى فيما يتعلق بالقضايا المهمة فعلاً، ولهذا السبب فإن أوروبا سوف تتقدم ببطء أو تراوح مكانها بصدد المسائل الحاسمة، فمن الصعوبة البالغة تحديد سياسة خارجية ودفاعية مشتركة مما يثبت أنه لم تتوفر بعد الشروط الضرورية لتحقيق اندماج أو تكامل سياسى كامل وفعال بينما يتوفر ذلك بصدد المسائل الاجتماعية والاقتصادية، وسوف يزداد الوضع صعوبة مع توسيع نطاق الاتحاد الأوروبى : وفوق كل شىء سوف يزداد عدد الأصوات التى لا تتحمل المسئولية أو التى لا تبالى بالعواقب، فأغلبية مكونة من سلوفينيا ولاتفيا وإسبتونيا وعدد آخر من الدول التى من هذا النوع لا يمكن أن تعتبر أغلبية ملائمة تحترمها ألمانيا أو فرنسا أو بريطانيا أو حتى إيطاليا.

ويتمثل سبب آخر فى أن هذا التوسيع سيكون له تأثير مباشر على المصالح القومية من خلال إعادة توزيع الموارد، فمن الناحية النظرية لن تكون السياسة الزراعية المشتركة قادرة على الاستمرار حالما تدخل السوق المشتركة البلدان الزراعية الكبيرة والفقيرة؛ لأن المبلغ الإجمالى من إعانات التى يمكن أن تحصل عليها لن تتحملها ميزانية الاتحاد، فى حين أن الفرنسيين لأسباب تاريخية وسياسية لن يوافقوا على

تقليص الحماية الاجتماعية لناخبيهم من الفلاحين، ولذلك فإنه ليس فى وسعى أن أتصور إمكان إحراز تقدم صوب الفيدرالية الأوروبية دون أن يصادف ذلك أزمات دولية مفاجئة وخطيرة.

كما إننى لا أظن أن الاندماج الأوروبى يمكن تسريعه عن طريقه تقوية سلطات البرلمان، فالاتحاد الأوروبى لم يتأسس بوصفه منظمة ديمقراطية، ولا أستطيع حتى أن أفهم موضوع الحديث عن عجزه الديمقراطى؛ لأنه لم يكن من المفترض أن يكون ديمقراطيًا، وفضلاً عن هذا فلو كان ديمقراطيًا حقا ما استطاع أبدًا بلوغ الدرجة الحالية من الاندماج والتكامل. وقد انفجرت المسألة بكاملها فى منتصف السبعينيات من القرن الماضى عندما أصبحت أوروبا جزءًا من السياسة الانتخابية، وقد كانت حتى ذلك الوقت مسألة تهتم بها جماعات صغيرة من الاختصاصيين، وأنت تستطيع أن تقرر من الناحية النظرية تحويل الاتحاد إلى حكومة ديمقراطية مسئولة أمام مواطنيه، لكن تراودنى شكوك قوية من الناحية العملية فى أن تكون الدول الأعضاء منفردة على استعداد للسماح بذلك، باستثناء إيطاليا، كما أنه أمر قابل للجدل والنقاش تمامًا فيما إذا كان البرلمان الأوروبى يستطيع بأى حال من الأحوال أن تكون مصداقيته ديمقراطية، ولنفكر فى الإقبال الضئيل على المشاركة فى الانتخابات الأوروبية والتى – علاوة على ذلك – جرت على نحو ثابت على أساس السياسة الداخلية لكل بلد.

ومن الواضح أن إضفاء سلطات أكبر على البرلمان الأوروبى أمر جيد، غير أننى لا أعتقد أنه سيكون قادرًا على أن يضطلع بتمثيل ديمقراطى فعلى للمواطنين الأوروبيين فى المستقبل المتطور، وبالنسبة لكثير من الأوروبيين فإن أوروبا مازالت مجرد مصطلح أو تعبير تقنى ولا يشعرون أنهم يرتبطون بها بأى رباط من الولاء، والسؤال الذى يطرحه الناس فى علاقتهم بأوروبا مازالت تجرى صياغته دومًا فى نطاق سياسة نفعية وداخلية : إلى أى مدى ستكون نافعة ومفيدة ؟

وهناك مجالان مهمان فقط اقترب فيهما الأوروبيون من بعضهم البعض وسوف يواصلون ذلك فى المستقبل، المجال الأول هو التشريعات الأوروبية التى ترسخت بالفعل

من خلال إجراءات محكمة ستراسبورج، وقد وافقت الحكومات على أن تكون لها الأولوية على قوانينها الوطنية، مما يعنى أن القوانين الاقتصادية والاجتماعية لكل بلد على حدة يتعين - فى معظمها - أن تكون منسجمة فى معاييرها وتفسيراتها، والجانب الآخر الذى يوحد الأوروبيين هو النزعة الحمائية بغية مقاومة المنافسة من الولايات المتحدة والهجرات الضخمة من العالم الثالث.

- هل تعتبر المحرك الفرنسى الألمانى للوحدة الأوروبية عرضة للخطر ؟

يبدو لى أن فرنسا تصورت أوروبا أساسًا كمحاولة؛ لكى تؤكد وتدافع عن هيمنتها الثقافية واللغوية على القارة، وخسرت هذه المعركة فعليًا عندما اتسعت أوروبا لتضم فنلندا والسويد والنمسا، وعندما حلت اللغة الإنجليزية محل الفرنسية فى المؤتمرات الصحفية التى تعقد فى بروكسل؛ لأن الاسكنديناڤيين لا يتحدثون الفرنسية، وهذه الأمور مهمة بالنسبة للفرنسيين بأكثر مما نتصور عادة، فأوروبا بالنسبة لهم تستوجب تعزيز دور فرنسا وثقافتها ولغتها، وفى رأيى أن الحافز الفرنسى اليوم للاندماج الأوروبى هدأت حدته، وهم الآن أقل اهتمامًا بمسيرة هذه العملية حيث تضائل بوضوح وضعهم المركزى، وهو ما يعد صدمة شديدة القسوة بالنسبة للفرنسيين، وتتمثل العقبة الأخرى فى النزعة الأطلنطية المتأصلة بعمق راسخ فى نفوس الإنجليز. وبالنسبة للآخرين فإن أوروبا هى الخيار الوحيد فى حين أن الإنجليز يجدون أمامهم إمكانية التقارب والاندماج مع النظام الأمريكى، وفى نهاية المطاف فإن الإنجليز لم يتخذوا قرارهم بعد، وبطبيعة الحال ليس لديهم فرصة حقيقية لترك أوروبا بعد أن انضموا إليها منذ خمسة وعشرين عامًا، بيد أن البديل المتمثل فى الجمع بين العضوتين مازال متاحًا.

الفصل الرابع

ماذا بقي من اليسار

– ماذا بقي من اليسار أو ماذا نهض من الرماد ؟ ليس هذا مجرد سؤال نظرى عن أفكار لواقع جديد، إنما هو سؤال عملى، نظرًا لأن اليسار موجود فى الحكم فى غالبية البلدان الأوروبية وحتى فى أمريكا بطريقتها الخاصة.

هناك يسار؛ لأنه مازال هناك اختلاف بين اليسار واليمين، وأولئك الذين ينكرون هذا الانقسام هم من اليمين على وجه العموم، وهذا التمايز له موروث تاريخى بعيد المدى، ترجع أصوله إلى الثورة الفرنسية ومن المؤكد أنه طرأت عليه تغييرات عبر القرون، لكن علينا أن نسأل أنفسنا ما إذا كان الانقسام بين اليسار واليمين حتميًا، وبالتالى مكتوب عليه الاستمرار، بصرف النظر عن المعنى المحدد الذى تخلعه عليه فى الأزمان المختلفة، ومن الممكن بوضوح تصور نهج سياسات لا يجرى تنظيمها على أساس هذين القطبين المتعارضين، ولو أن هناك نوعًا من التمايز بين الحكومة المعارضة متأصل فى الديمقراطيات الانتخابية، ويصعب بالتالى التخلص منه، مهما تضاءلت اختلافات البرنامج، ولذلك فإننى أظن أنه من المرجح استمرار وجود انقسام سياسى ومن المؤكد – تقريبًا – أنه سوف يعبر عن نفسه اجتماعيًا وإيديولوجيًا على امتداد الخطوط الفاصلة بين اليسار واليمين.

بيد أننى أعتقد أن معنى مصطلح "اليسار" قد طرأ عليه التغيير، ولا سيما فى العقود الأخيرة وما لم يتغير – فى البلدان النامية على الأقل – هو الأساس الإيديولوجى

الذى تستلهمه جميع تظاهرات اليسار، ويحيل طرائق شتى إلى الثورة الإنجليزية التى كانت أساس الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وأخيراً الثورة الروسية، ومازال معظم أولئك الذين ينتمون إلى الجناح اليسارى يلتفتون إلى الوراء مستلهمين أحد ملامح هذا الموروث، والإيديولوجيات التى اقترنت بهذه الانتفاضات، وليس ذلك بالضرورة هو الوضع فى أجزاء كبيرة من العالم الثالث، ولكن هذا الرباط مازال فعالاً فى الغرب.

وعموماً، فإن الموروث الثورى لا يشارك فيه اليمين، برغم أن جناحه الأحدث استوعب بعضاً فيه، مثل مفهوم الحكومة الدستورية، وبذلت محاولة - خاصة إبان الحرب الباردة - لفصل جزء من هذا الموروث - المتعلق بالليبرالية الحديثة - عن الموروث الثورى، وقد ارتكز ذلك أساساً على الحجة القائلة : إن الموروث المستمد من الثورة أفضى إلى الشيوعية ومن ثم لا يتسق مع الحريات الحديثة، وتعد فرنسا مثالاً نموذجياً لهذه المحاولة لكسر استمرارية الموروث اليسارى، ذلك الشعور بوجود وحدة أسرية تجمع اليسار معاً، بيد أنه لا يبدو لى أن هذه المحاولة صادفت نجاحاً على نحو خاص، لاسيما عقب زوال الاتحاد السوفيتى، مما يضفى درجة معينة من التماسك الأيديولوجى على سياسات النجاح اليسارى.

ومن الطبيعى أن توجد مراحل مختلفة من التمايز بين اليمين واليسار، وفى البداية، فإن اليسار ناضل لقهر الحكم الملكى والحكم المطلق والحكم الأرستقراطى مناصراً المؤسسات البورجوازية للحكومة الليبرالية والدستورية، ولذلك كان يساراً معتدلاً، غير أنه كان ساعياً أيضاً إلى تعبئة الجماهير لبلوغ أهدافه السياسية، ومنذ بدء تاريخه كان اليسار على استعداد لأن يكون ثورياً، وإذا أخذنا حزب الهويج (الحزب البريطانى المؤيد للإصلاح والذى عرف فيما بعد بحزب الأحرار "م") فى إنجلترا نجد أن أنصار هذا الحزب شكلوا حزباً ليبرالياً بالتحالف مع الراديكاليين من الطبقى الوسطى مع غيرهم من الأرستقراطيين، وأثناء الثورة الفرنسية فإن أنصار حزب الهويج الأقوياء من حكام الدوقيات وأغنياء الريف أيدوا الثورة فيما وراء المانس، لمجرد أن يظهروا تعاطفهم مع نابليون، وهكذا كان الانقسام طوال معظم القرن التاسع عشر بين حزب التغيير وحزب الاستقرار، أو يعتبر أكثر تحديداً بين حزب التقدم وحزب النظام،

فاليسار كان يقف فى جانب التغيير ويناصر أجرء تغييرات وتحولات سياسية واجتماعية، والحق أننا لا نزال نستخدم هذه المصطلحات: وأنصار اليسار يطلقون على أنفسهم اسم التقدميين.

إن التغيرات التى طرأت على البنية الطبقية قد فوضت تدريجيًا وحدة اليسار، فلأرستقراطية الحاكمة القديمة قد حلت محلها أو شاركتها فى السلطة البرجوازية حاكمة جديدة، لم تعارض حدوث درجة معينة من التغير الراديكالى، وهكذا تغيرت طبيعة الاتحاد المحافظ فى القرن العشرين بل – وبوضوح أكثر – فى نصفه الثانى، وكف عن أن يكون بكل بساطة حزب النظام والاستقرار، واكتسى بقسمات جديدة، وإن ظلت هناك بقايا مثل كراهية التغير، ولاسيما تلك التغييرات التى أدخلتها الثورة الفرنسية (وتعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أفضل مثال على ذلك) غير أنه يقل – تدريجيًا – عدد الرجعيين بالمعنى الذى ساد فى القرن التاسع عشر أى أولئك الذين يريدون إرجاع عجلة التاريخ إلى الوراء، بل إنه يراودنى الشك فيما إذا كان البابا الحالى يعتقد أننا نستطيع اليوم العودة إلى الماضى. لقد برز فى سبعينيات القرن الماضى – وبشكل ملحوظ – تيار قوى للغاية من الاتجاه المحافظ يناصر إجراء تغييرات اجتماعية راديكالية للغاية، وتعد الليبرالية الجديدة فى الاقتصاد والسياسة ظاهرة جديدة فى الجزء الأخير من القرن العشرين، وأناس مثل تاتشر أو ريجان هم من الجناح اليمنى حتى النخاع ولا مراء فى ذلك، إلا أنهم يقترحون فى الوقت نفسه إجراء تجديدات راديكالية مقترنة بالقناعات التى يؤمن بها الجناح اليمنى الأكثر تقليدية مثل : "حب الوطن" و"حكم النخبة" وما إليه.

بيد أن العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين كانت لها أهميتها الكبرى بل ربما كانت بالغة الأهمية بالنسبة للتطورات التى حدثت على جانب اليسار، فقد برز – فى الواقع – تيار جديد يعد بالفعل تيارًا محافظًا؛ لأنه يرغب فى الحفاظ على الوضع الراهن عندما لا يقتضى بالفعل إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، ولنأخذ حالة الخضر : إذ يمكن اعتبارهم إجمالاً ينتمون إلى الجناح اليسارى، ومع ذلك لا يمكن أن يتطرق أدنى شك إلى أن هذا التيار يرغب فى وقف التغيرات الاقتصادية

والتكنولوجية أو التحكم فيها على أقل تقدير، ويقول آخر إنه يريد أن يفرض إيقاف التقدم، وهكذا نجد تركيبًا غريبًا من اليسار - كما واضح فى ألمانيا - يضم تقدميين تقليديين إلى جانب قوى تؤمن بأجندة جديدة ليست تقدمية بالمعنى الحرفى للكلمة، ومن ثم فإن الاختلاف التقليدى بين حزب النظام والاستقرار وحزب التغير والتقدم لم يعد ممكنًا استخدامه.

إن ما يسيطر على المرحلة الثانية لليسار فى القرن التاسع عشر، هو الاختيار بين الجماهير والطبقات الحاكمة و وقع الاختيار على النضال الطبقى، وقد انتظمت الفئات الأفقر من السكان - العمال اليدويون - فى حركات تحالفت - أحيانًا - مع اليسار التقليدى ولكن على نحو مستقل بشكل متزايد، ومازال هذا اليسار قائمًا فى معظم البلدان الأوروبية فى القرن العشرين والتف حول الحركة العمالية والأحزاب الاشتراكية العمالية، وهذه الحركات لها ثلاثة أهداف :

١ - قبول منجزات اليسار الليبرالى القديم (الحكومات الدستورية والحقوق المدنية وحقوق المواطنة) وتبنيها.

٢ - النضال من أجل الديمقراطية السياسية والمشاركة فى، والسيطرة على السياسة من الغالبية العظمى من الشعب، وكثيرًا للغاية ما يتم نسيان ماهية الديمقراطية السياسية الشابة نسبيًا، وما أندر البلدان إلى تمتعت بها قبل نهاية القرن التاسع عشر، وغدت الحركة العالمية القوة الرئيسية فى عملية تحقيق الديمقراطية، وأصبح الحق فى التصويت هو البرنامج الوحيد الذى نظمت من حوله الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية إضرابات عامة، وكان الوضع فى أمريكا بالغ الاختلاف؛ لأن الديمقراطية تخففت مبكرًا وخلافًا لأوروبا فأن اليسار لم يطور أبدًا حركة مستقلة للطبقة العاملة.

٣ - ناضل اليسار الجديد من أجل حق كل فرد فى كسب عيشة ومن أجل الرفاه الاقتصادى والحقوق الاجتماعية.

وكان الجمع بين المطالب المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية صفة نمونجية لهذه المرحلة المعينة من اليسار، وقد أيدتها بصفة أساسية حركات الطبقة العاملة،

ولم يحطم هذا بالضرورة وحدة اليسار، وفى بعض البلدان ظلت هذه الوحدة متصلة من المركز المعتدل والليبرالى للطيف السياسى إلى اليسار المتطرف، وفى الولايات المتحدة بقيت هذه المرحلة الجديدة من اليسار فى نطاق الحزب الديمقراطى وفى بريطانيا العظمى واصل العمال تحالفهم مع حزب الأحرار على الأقل حتى الحرب العالمية الأولى، وكانت الثورة الروسية هى التى حطمت هذه الوحدة التقليدية، عن طريق تقسيم اليسار إلى تيارين.

– ماذا حدث آنذاك لهذا اليسار الثانى، الذى بقى متحداً حتى عاصفة قصر الشتاء ؟ (مقر القيصر الروسى فى سان بطرسبرج وأطاحت به إشارة إلى الثورة الروسية التى نشبت فى عام ١٩١٧– المترجم).

– لقد تحقق الكثير من أهدافه عقب الحرب العالمية الأولى، وجرى تطبيق الديمقراطية وحق التصويت العام، وإن كان بدرجه أبطأ بالنسبة للنساء منه بالنسبة للرجال، كما أدخلت بعض الحقوق الاجتماعية وإجراءات الرفاهية الاجتماعية وتم ذلك أحيانًا بسرعة مذهلة، ولنتذكر أن المطلب الرئيسى الذى نظم العمال من حول احتفالهم السنوى بعيد أول مايو السنوى ابتداء من عام ١٨٩٠ ، أى يوم العمل لمدة ثمانى ساعات فقط، أدخلته أوروبا بعد ١٩١٨ ، وإن كان على الورق فحسب.

وفى أعقاب الحرب العالمية فإن الأوضاع المادية ونظم الرعاية الاجتماعية تحسنت بطبيعة الحال على نحو مذهل، وفى عام ١٨٩٠ فإن الكلمات التى انطوى عليها نشيد الدولة المعروف باسم "Internationale" كانت له معانيه الحرفية، ولكن أصبح من المستحيل بعد عام ١٩٦٠ ، الاعتقاد بأن "المتضورين جوعًا" الذين كان يدعوهم النشيد إلى "النهوض" مازالوا "جوعى" فعلاً وحقا، وهذا اختلاف يتعين وضعه فى الاعتبار.

إن النجاح الكبير لليسار أضعف إلى حد بعيد برنامجه، وفى نطاق هذا اليسار الجديد فإن الاشتراكية تمثل المحور المركزى لتطلعات معظم حركات الطبقة العاملة التى تصورت حدوث تغيير جذرى، أى نهاية الرأسمالية على أن يحل محلها مجتمع مختلف اختلافًا تامًا، وإذ نتفهم الآن ما حدث فى الماضى فإنه يمكن القول إن الاشتراكية

كانت حلماً يوتوبيا أو حتى مجرد شعار تهيجى تقريباً: لأنه حتى الثورة الروسية لم يكن - حتى اليسار الاشتراكى - قد فكر بالفعل فيما الذى يتوجب فعله فى حالة الانتصار، ولم تتم حتى مناقشة الكيفية التى يمكن أن يصبح بها الاقتصاد اشتراكيًا، وكان هناك قبول عام بأنه يمكن للدولة أن تديره على أساس النموذج الذى قدمته الرأسمالية فى ذلك الوقت، حيث كانت المشروعات التجارية الكبرى بالفعل فى أيدى هيئات عامة. وكانت النظرية الاشتراكية نقدًا للواقع الرأسمالى أكثر من كونها مشروعًا حقيقيًا لبناء مجتمع مختلف، وتأكد كل التأكد أن ذلك ينطبق أيضًا على الماركسيين، وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى برزت ضرورة فعلية لمناقشة اقتصادات التأميم فى ألمانيا والنمسا، اللتين كانتا فى عامى ١٩٨٩ و ١٩٢٠ منهكتى القوى، وكان الخبراء البورجوازيون قادرين على انتقاد الاشتراكيين الذين ثبت أنه ليس لديهم أدنى فكرة عن كيف ينبغى عليهم أن يتابعوا سيرهم، والفكرة الوحيدة التى كانت متيسرة للاشتراكيين هى كيفية إدارة اقتصاد الحرب وهو ما احتذاه البلشفيك فى واقع الأمر.

لقد انقسمت الحركة الاشتراكية إبان الحرب وفى أعقابها إلى الجناح الاشتراكى الديمقراطى، الذى أصبح بالفعل حزب الإصلاح المؤازر للدولة، والجناح الثورى والشيوعى، وحافظ المعتدلون على أهداف اليسار القديمة وأنجزوا معظمها، على الأخص فى اسكندينافيا، وقد أنجزوا من الناحية العملية كل شىء آملوا على الدوام فى تحقيقه فى الفترة الممتدة من ١٩٤٥ إلى منتصف سبعينيات القرن العشرين، وقد توج ذلك بتكوين وانتصار دولة الرفاهية أو الرعاية الاجتماعية، ولم تنخرط هذه الحركات على نحو خاص أو حتى على الإطلاق فى معارك تستهدف التغيير الدائم لبنية المجتمع، برغم أن كثيراً من الاشتراكيين الديمقراطيين مثل قادة حزب العمال البريطانى فى ١٩٤٥ ، آملوا نظريًا ذات يوم فى تحقيق مجتمع اشتراكى مختلف.

وقبلت هذه الحركات درجة معينة من تدخل الدولة فى الاقتصاد، سواء فى الإدارة أو الملكية لكن هذا التدخل فى حد ذاته لم يكن مشروعًا اشتراكيًا، إذ لا ينبغى أن ننسى أن كينز كان من مناصرى حزب الأحرار طوال حياته، وتصور دون أدنى شك تدخل الدولة باعتباره سياسة إمبيريقية وعملية، ومن اللافت للنظر أن لينين هو الذى

أدرك أن تأميم صناعة ما لا يعد فى حد ذاته عملاً ثوريًا، فالسكك الحديدية والمرافق العامة كانت فى أيدى الدولة أو مملوكة ملكية عامة أخرى فى بلدان كثيرة لم تكن - أو لم ترغب أبدًا فى أن تصبح - اشتراكية. وبقى الجناح الاشتراكى الديمقراطى من اليسار السياسى وفيًا للفكرة القائلة بقيام مجتمع ما بعد رأسمالى، من خلال اعتقاد غير محدد بوضوح بأن الإدارة والملكية العامة سوف يتطوران مع الزمن إلى ما هو أكثر، إلى شىء جديد. وكان البلشفيك - فقط - هم الذين طرحوا عن وعى وإدراك بناء مجتمع اشتراكى، ويتعين القول إن إخفاق هذا المشروع أصبح كاسحًا وباديًا بجلاء فى ستينيات القرن العشرين على نحو خاص، وفى السبعينيات دون أدنى ريب.

وعلاوة على ذلك، فإن النظام البلشفى أثبت عجزه عن إصلاح نفسه وتهاوى على حطام، كما أن هذا الإخفاق أضعف إيديولوجية الجناح الاشتراكى الديمقراطى، وفعلت ذلك أيضًا التغيرات التى طرأت على الاقتصاد العالمى عقب عام ١٩٧٣ ، نهاية العصر الذهبى للاشتراكية الديمقراطية، وجاءت الضربة القاضية من انتشار المبادئ الاقتصادية الليبرالية الجديدة التى انتقدت الضعف الذى تبدى فيما سمى بالسياسات الاقتصادية التى كانت تنادى بحصر السلطة العليا فى هيئة متحدة من نقابات العمال وأصحاب الأعمال والمهن الرئيسية "corporatist" التى سادت فى الخمسينيات والستينيات جزئيًا؛ لأنها لم تحقق النجاح المأمول، وجاء قدوم الاقتصاد المعولم ليهز كيان اليسار الاشتراكى الديمقراطى ويضرب أسسه فى الصميم؛ لأنه قوض مقدرته على الدفاع عن دوائره الانتخابية المؤيدة له داخل الحدود القومية، من خلال السياسة المالية المناصرة لإعادة توزيع الثروة والرفاهية والحافز الاقتصادى الكلى لبلوغ العمالة الكاملة، وترجع جذور الأزمة الفكرية الراهنة التى تجتاح اليسار - حاليًا - إلى الأزمة المزدوجة لليسار البلشفيكى/الثورى واليسار الاشتراكى الديمقراطى.

وأعتقد أن هذا الجانب أكثر أهمية بكثير من التغيرات التى طرأت على طبيعة الإنتاج، وانحطاط التصنيع ونمو الصناعات التكنولوجية المتقدمة وما إلى ذلك؛ لأن القاعدة العمالية لهذا اليسار لم تبدأ فى الانحدار إلا مع حلول سبعينيات القرن العشرين، وربما بدأ الانخفاض فى العدد الإجمالى للعمال مبكرًا فى الولايات المتحدة - فى ستينيات القرن العشرين -

ولكن فى أماكن أخرى فى الغرب، فإن الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٠ قد شهدت ذلك النمو الاقتصادى الذى أدى إلى زيادة عدد العمال أو حافظ على استقرار عددهم، برغم التجديدات التكنولوجية، ومازال العمال فى بريطانيا العظمى وحدها - وربما فى بلجيكا - يشكلون حاليًا أغلبية السكان.

ولم يوجد فى السبعينيات القرن العشرين أى مبرر يجعل ألا يظل اليسار قويًا كما كان من قبل، بقدر ما يتعلق الأمر بقاعدته الاجتماعية، بيد أن هذا اليسار تعرض لأزمة خطيرة، وإننى أعزو ذلك إلى أنه أنجز أهدافه وأن أحوال العمال قد تحسنت بقدر هائل، وعليه فلم يعد لديه برنامج مناسب، كما لم يعد فى وسعه أن يقترح بناء مجتمع مختلف، إما لأنه لم تعد توجد نماذج متاحة لمثل هذا المجتمع، أو لأنه لم يعد مستطيعًا إصلاح المجتمع القائم، نظرًا لأن الجناح الاشتراكى الديمقراطى ليس فى وسعه إلا أن يقترح المحافظة على ما تحقق بالفعل، وهكذا انتهى اليسار الثانى.

وقد وجد يسار جديد منذ ستينيات القرن العشرين وتمثلت المشكلة التى واجهته فى أنه لم يستند إلى القاعدة الطبقية الصلبة، التى كانت هى الأساس الذى ارتكز عليه يسار الطبقة العاملة، فضلاً عن أنه لم تكن له قاعدة إنتاجية قوية، كما لم يكن له مشروع وحيد إضافى، وتنزع كثرة من الحركات التى تعتبر نفسها منتمية إلى اليسار إلى تبنى قضية وحيدة، وتعد الحركة النسائية مثالاً مهمًا فى هذا الصدد؛ لأنه لديها من الناحية النظرية قاعدة ضخمة، ومع ذلك، فإن برنامجها محدود للغاية، حتى فيما يتعلق بالمسائل النسائية ذاتها، وتنتمى هذه الحركات إلى ما يمكن تسميته بالاتجاه اليسارى المتصل، وعلى سبيل المثال، فإن حركة الخضر - حتى فى البلدان التى لم تتطور فيها إلى حركات سياسية كاملة وناضجة - فإنها ترتبط باليسار إن ارتبطت بأى حركة على الإطلاق، مثل علاقاتها مع الديمقراطيين فى الولايات المتحدة أو بالعمال فى بريطانيا. وحيثما تطورت بوصفها حركة سياسية منفصلة، فمن الأرجح أن تتحالف مع الاشتراكيين الديمقراطيين بأكثر مما تتحالف مع اليمين، لكن هذا اليسار الثالث لا يكتسب أهمية كبيرة من الناحية السياسية، ولكنه برز بصفة أساسية من جراء الأزمة التى اجتاحت اليسار السياسى التقليدى.

- هناك مظهر أخر لأزمة اليسار: ضعف السياسة وتدينها كنظام موثوق به؛ لتغيير المجتمع وأينما أمعنا النظر سواء فى أمريكا أو فى أوروبا سيصادف المزيد من الفتور واللامبالاة بالسياسة (بمعنى الافتقار إلى المشاركة النشطة، جزئيًا وببساطة نتيجة للفيض الانتخابى).

- هناك عدة أمور أعمق من ذلك عملت على إضعاف اليسار إلى حد خطير، فمن الناحية الاقتصادية تعلق الأمور بالمجتمع الاستهلاكى، ومن الزاوية الفكرية نصب الأمر على مطابقة أو مماثلة الحرية بالاختيار الفردى، دون اهتمام بالعواقب الاجتماعية، مما أدى إلى حدوث تصدع فى عالم اليسار التقليدى المشترك، إذ كان يتم الاعتقاد فى الماضى بأن النضال من أجل الحرية الفردية يتعارض مع النضال من أجل التحرر الجماعى، لكن أصبح جليًا فى نهاية القرن العشرين وجود صراع متزايد بين هذين الاحتياجين، وقد وجهت خصخصة المجتمع وإضعاف الهُوية الاجتماعية المشتركة ضربة قوية إلى اليسار الاجتماعى؛ لأن هذا اليسار كافح من أجل تحقيق أهداف جماعية وسعى إلى إقرار العدالة الاجتماعية، وتلك مشكلة خطيرة ومتسعة الأبعاد؛ لأن ما مكن اليسار من أن يعمل بطريقة جماعية هو الذى مكن - أيضًا - السياسة الديمقراطية من أن تؤدى وظيفتها، فالسياسة الديمقراطية توجد بالقدر الذى يغدو ممكنًا تنظيم الناس وجعلهم يعملون بطريقة جماعية.

وتتزايد الصعوبة التى تواجه أى حركة سياسية لكى تحشد الناس، ليس فقط على الجانب اليسارى، فالمصالح الخاصة والأنانية عملت على تآكل قيم الجناح اليسارى على نحو خطير وخير مثال على ذلك هو التحلل التدريجى للنزعة التبادلية فى بريطانيا فى السنوات الأخيرة (mutualism) ولننظر إلى ما يحدث حاليًا لشركات البناء والتشييد حيث كانت توجد من قبل تنظيمات تعاونية للادخار، وقد ظهرت عندما عجز العمال الفقراء عن تحقيق مدخرات كافية لحسابهم كأفراد، مما تعين عليهم تنظيم أنفسهم على نحو جماعى، وحقق لهم منافع ضخمة مما جعل هذه الهياكل تكتسب أهمية اقتصادية كبرى، وفى الوقت الراهن تتحول هذه الشركات واحدة وراء الأخرى من شكلها التعاونى إلى شركات خاصة عادية، يمتلكها مساهمون يحصلون على أرباح سنوية،

وسبب موافقة الأعضاء على هذا التطور والتصويت لصالح تحويلها إلى بنك أو شركة عامة ذات مسئولية محدودة هو ذلك القدر الضئيل للغاية من الأرباح غير المتوقعة التى توزع عليهم، ولم تكن الإدارة ولا المنطق نفسه فى صالح هذا التحول، ولا مراء فى أن المزايا العائدة للمقترضين كان يمكن أن تكون أكبر فيما لو بقيت هذه الشركات ذات الطابع تعاونى، لكن غالبًا ما لا يستطيع الناس مقاومة إغراء الحصول على ألف أو ألفين من الجنيهات، التى ربما استخدمت فى قضاء عطلة ما، وهم يتخلون عن قيمة اجتماعية كبرى فى مقابل كسب ربح فورى قصير الأجل.

وقد أصبح من الأكثر صعوبة ومشقة إشراك الناس فى عمل جماعى، وطالما كان معظم الناس فقراء فإنهم يلبون هذا النداء؛ لأن أملهم الوحيد يتحقق من خلال العمل الجماعى، ولكن إذا ما تجاوزوا عتبة الحاجة فإنهم يظنون أن فى وسعهم الحصول على المزيد بالسعى وراء مصلحتهم الخاصة فقط لا غير، ومع ذلك فإن الدعامتين الأساسيتين اللتين ينهض عليهما التراث اليسارى مازالتا قائمتين، فمن بين مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة وهى الحرية والمساواة والإخاء، فإن الإخاء لم تعد له قيمة تذكر لكن تظل معنا الحرية والمساواة، ونحن نعلم ماذا تعنى الحرية، وإننى أعتقد أن المساواة تعنى اليوم - من الناحية العملية - تقديم الخدمات الاجتماعية وإعادة التوزيع التى تتم بمعرفة الحكومات، وذلك ما لا يمكن أن تكفله السوق الحرة، وحتى ورثة تاتشر من المحافظين، الذين أجروا تغيرات اجتماعية جذرية فى اتجاه السوق الحرة أكثر من أى تيار من تيارات الجناح اليمنى الأخرى، يتراجعون الآن عن هذه العقيدة ويعترفون مثلاً بأن الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية الأساسية للمسنين تعتبر من المهام الرئيسية للدولة والمنظمات العامة.

- أى أن هناك ما يطلق عليه اسم"مجتمع" خلافًا لتأكيد تاتشر.

- المجتمع ليس موجوداً فحسب - كما نعلم تمامًا - بل هناك أشياء يقتضيها المجتمع لا يمكن أن تتحقق على الإطلاق من خلال متابعة المصالح الخاصة، وهناك منافع أو"سلع" اجتماعية لا يمكن تغيرها إلا بصفة جماعية وذلك تحقيقًا للمصلحة المشتركة، ولاحظ أنه حتى فى ظل حكم تاتشر لم يتجاسر المحافظون البريطانيون على تجاوز مرحلة معينة فى خصخصة مجالات مثل الصحة.

ولا أظن أن أى يسار يمكنه أن يصور السوق باعتبرها المجتمع الأمثل؛ لأننا كما رأينا هناك أمور وأشياء تعجز السوق عن القيام بها، ومن رأيى أن أى شكل من أشكال سياسة النجاح اليسارى حتى أكثرها اعتدالاً يجب أن تقول ما قاله جوسيان (رئيس وزراء فرنسا) : نحن نسلم بأن السوق هى أحد العناصر الأساسية فى الاقتصاد، وربما كانت السوق هى العنصر الحاسم فى خلق الثروة، لكننا لا يمكن أن نوافق على مجتمع السوق الحرة، نعم للسوق لكن لا لمجتمع السوق الحرة، وعلى الرغم من أننى لا أعرف الأفكار الشخصية لتونى بلير (رئيس وزراء بريطانيا) لكن الحكومة العمالية تفضل بالفعل أن تحدث شكلاً ما من أشكال إعادة التوزيع، وتفعل كل ما فى وسعها فى هذا الاتجاه، فى نطاق الحدود التى تفرضها مخاطر فقدان الدعم الإنتاجى، ولا مراء فى أن سياسة المستشار جولدون براون تمثل محاولة لإعادة التوزيع، ولو أنها ضعيفة للغاية ويمكن الاعتراض على أن هذه الطريقة لن تحقق نتائج باهرة، لكن لا يمكن القول - أيضًا - إنها تدل على الاعتقاد بأن السوق الحرة سوف تحل كل الأمور.

والحق يقال إن قلة من الحكومات (واحدة أو اثنان) ذات الطابع اليسارى وافقت تمامًا على سياسة السوق الحرة، وأنا أفكر مثلاً فى حكومة جونزاليس فى إسبانيا (التى سقطت فى الانتخابات الأخيرة "م") لكن حتى فى مثل هذه الحالات فإنها لم تنهج النهج نفسه الذى سلكه ريجان تاتشر، وهى فعلت ذلك لأنه كان عليها أن تفعل أو لأنه لم توجد طريقة أخرى فى ذلك الوقت؛ أو لأن التغييرات الاجتماعية التى أحدثها الآخرون قبلها لا رجوع عنها، وتلك كانت قرارات ذات طابع عملى تجريبى ولا ترتكز على اختيار من حيث المبدأ، ولا أعرف ما إذا كان ذلك ينطبق على تونى بلير، ويبدو لى أنه تاتشر فى ثياب رجل أكثر من أى شخص آخر فى أوروبا اليوم، إلى حد قيامه بكل وضوح بدور الزعيم المحارب. ومن الناحية الأخرى فإنه يمكننى أن أتصور وجود تيارات معتدلة من الجناح اليسارى تقول لنفسها : حسنًا، ولأسباب عملية فإنه لا يوجد الكثير مما يمكن عمله لكى يكون مختلفًا عن اليمين؛ ولذلك يتعين علينا أن نتكيف مع ذلك تمامًا، وفى رأيى أن هذا هو تفكير كلينتون (عندما كان رئيسًا للولايات المتحدة حتى عام ٢٠٠٠ "م") ويمكن انتقاد كلينتون كثيرًا؛ لأنه كان يقول شيئًا ثم يفعل شيئًا آخر، لكن حقيقة إن

كلينتون كان يتكلم بطريقة معينة يعنى أنه يتطابق بالسليقة مع قيم اليسار التقليدى، ولهذا السبب فإنه خيب آمال الكثير من الأمريكيين أكثر بكثير من البريطانيين الذين خيب أملهم بلير، ولم ينتم بلير البتة إلى التراث اليسارى ولم نعرفه إلا عندما تم انتخابه، لكن عندما فاز كلينتون بسدة الرئاسة فإنه كان يشبه تمامًا أى ديمقراطى يحتذى غير التقاليد المتعارف عليها فى اليسار الأمريكى.

– وحتى مع ذلك، ألم يكن كلينتون "إمبراطور التسعينيات من القرن العشرين" ؟

لا أعتقد أن كلينتون يعتبر شخصية مهمة حقا فى تاريخ القرن العشرين، كما لا أظن أنه يعد من بين السياسيين الأمريكيين الأكثر أهمية فى الربع الأخير من القرن العشرين، وكان ريجان أكثر أهمية منه بكثير، وفضلاً عن هذا فقد كان أكثر توفيقًا فى التعامل مع وسائل الإعلام، وتفادى بالفعل نوع الأزمة التى طاردت كلينتون بصفة مستمرة، وهناك ثمة مشكلة مهمة تتعلق بنوعية القادة أو الزعماء، إذ لا توجد كثرة رفيعة المقام عظيمة الشأن أو من طراز رفيع المستوى، وبهذه المناسبة، إذا أجريت استفتاءً عن أهم الشخصيات فى القرن العشرين فلن يبرز عدد كبير من السياسيين ضمن هذه القائمة، وفى إنجلترا ربما يقول كثيرون تشرشل لكن بمعزل عنه، فمن المرجح أن يسجل الناس بعض المشهورين الذين حققوا إنجازات مهمة فى مجال تخصصهم المهنى أو مجرد أولئك المعروفين بكل بساطة، وإذا كنت نجمًا رياضيًا كبيرًا فى الولايات المتحدة فستكون أكثر شهرة من أى سياسى، والحق أنه توجد بلدان اختارت النجوم السينمائية بوصفها شخصيات قائدة، وحدث ذلك فى بعض الولايات الهندية لكن لم يحدث بعد فى دول كبرى مثل إيطاليا أو بريطانيا العظمى، وبالطبع هناك حالة ريجان، ولا ينبغى لأى مؤرخ أن يقلل من مغزى تحول ممثل هوليودى إلى رئيس دولة.

وهناك مشكلة كبرى تواجه القرن الجديد : خلافة القادة والزعماء فى البلدان الديمقراطية ونقل السلطة من جيل إلى جيل، وفى المجتمعات التقليدية، هناك الآليات المختبرة والموثوق بها، وأشهرها الخلافة بالوراثة. ففى النظام الملكى لا تمثل الخلافة أى مشكلة، وحتى فى النظم غير الملكية كما فى الهند، هناك الممارسة العملية حيث

يكون الخليفة الظاهر وثيق الصلة بالقائد السابق وبذلك يكتسب هالة السلطة، وفى حالات أخرى، تتم عملية اختيار القادة من خلال تنظيم سياسى وذلك تشكيل تقليدى فى المجتمعات الديمقراطية: فالشخص الذى يعين فى مركز القيادة يجرى اختياره بمعرفة جمهرة المواطنين ذوى الحقوق السياسية، وقد تكون هذه العملية ديمقراطية تقريبًا. كما أن الاختيار قد يأتى تعبيرًا عما تقوم به هيئة من أعضاء البرلمان، وفى بعض البلدان، فإن إجراءات الاختيار يشوبها الغموض التام كما فى المكسيك حيث يتمكن الرئيس السابق دومًا ومن الناحية العملية من تعيين خليفته، لكن لا أحد يعرف كيف يتم ذلك على وجه الدقة.

وتبتدأ المشكلة عندما يجرى انتخاب القائد انتخابًا مباشرًا وفى هذه الحالة، فإن اختياره تم وفقًا لمجموعة من المعايير لا تتعلق بالضرورة بمقدرته على القيام بهذه الوظيفة، وتلك مشكلة خطيرة؛ لأن صفات القائد بالغة الأهمية. ولنأخذ حالة ألمانيا ونتأمل كيف كانت الصفات الزعامية التى اتسم بها أديناور لها أهميتها، وعلى الرغم من التقييدات التى كانت محيطة به فقد أثبت مقدرته على أن يخرج بلاده من وضع بالغ الصعوبة، كما تتمتع الزعماء الاشتراكيون الديمقراطيون الذين أعقبوه بخبرة سياسية عميقة.كما هو الشأن مع برانت، وكانت لهؤلاء الرجال شخصياتهم المرموقة سواء اتفقت أو اختلفت معهم، ويصادف الجيل الحالى من الاشتراكية الديمقراطية الألمانية صعوبة فى اختيار زعيم من الطراز ذى المقام الرفيع نفسه.

وتعد هذه مشاكل أقل خطورة - بوضوح - فى البلدان القوية المستقرة، ففى خاتمة المطاف فإنه لا يهم كثيرًا من هو مثلاً رئيس الولايات المتحدة : فمنذ عام ١٨٦٥ اغتيل سبعة رؤساء أجبروا على الانسحاب قبل انتهاء مدة الرئاسة، وحل محلهم أشخاص لم يتم اختيارهم؛ لكى يقوموا فتسير الأمور فى البلاد. ومع ذلك فإن تاريخ أمريكا لم يتغير بقدر مهم من جراء هذه الصدمات ففى الولايات المتحدة تعد القضبان التى يجرى فوقها قطار السلطة مستقرة لدرجة أن من يسوق القطار - كائنًا من كان - يستطيع أن يسوقه دون أن يخرج القطار عن مساره، لكنه فى الاتحاد السوفيتى فإن صفات الزعامة كان من الممكن أن تكون لها أهميتها وتحدث اختلافًا، وهو ما حدث بالتأكيد.

- بعد أن طرد المستشار الألماني شرودير وزير ماليته الأول، أوسكار لافونتين هل يوجد - وربما جاز القول أنه كان يوجد - يسار يستلهم المفهوم التقليدى لإعادة التوزيع الاجتماعي : فرض ضرائب مرتفعة على العمل والمؤسسات وإنفاق اجتماعى كبير، ولا يوجد فى هذه الجبهة حاليًا سوى تلك القوى التى تستوحى التراث الشيوعى وربما جزء من الحزب الاشتراكى الديموقراطى S P D الألمانى، هل تعتبر ذلك سياسة واقعية بالنسبة لليسار اليوم ؟ لم يستطع لافونتين أن يتعامل معها.

أعتقد أن لافونتين خسر المعركة؛ لأن عالم الأمل وقف ضده داخل ألمانيا وخارجها على السواء، فأحد البراهين الأساسية على وجود اليسار واليمين هو أن الأسواق لا تتحامل عادة على حكومات الجناح اليمينى بالطريقة نفسها التى تتصرف بها مواجهة حكومات الجناح اليسارى، والحق أن أحد الجوانب المثيرة للاستغراب لدى اليسار الجديد فى بريطانيا العظمى، هو أنه قد أحرز نجاحًا فى جهوده التى بذلها، لكى يقنع الأسواق بأنه لم يعد جناحًا يساريًا، وقد جعلت السوق من المستحيل على ميتران أن يتابع السياسات التى شرع فى إنتهاجها فى أوائل ثمانينيات القرن العشرين، والآن اكتشف لافونتين مدى سلطانها، أصحيح ذلك أم باطل تلك هى الكيفية التى تسير بها الأمور. وأعتقد أن السياسة التى أنتجها لافونتين لم تكن واقعية بهذا المعنى، إن سياسة الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى عليها أن تكون أقرب إلى سياسة حكومات يسار الوسط الأوروبى، مثل جوسبان فى فرنسا، وكان لافونتين منحاز لليسار بأكثر مما ينبغى حتى بالمقارنة مع جوسبان رئيس وزارة فرنسا.

- هناك تراث آخر سميته "المسيحية الاشتراكية" وهو تيار من تيارات "دعه يعمل" بمرتكزات مسيحية، كان له تأثيره الحاسم فى بناء الاتحاد الأوروبى، أى بايجاز نموذج "مقاطعة الراين" Rhine land ، الذى يتمثل فى رومانو برودى الرئيس الحالى للاتحاد الأوروبى، بيد أن هذا النموذج يبدو أيضًا أنه يجتاز أزمة طاحنة (خمسة ملايين عاطل) وبالنسبة لليسار فلا يعد مفخرة كبيرة له؛ لأنه ينتهى بوضع ثقة فى تجاه يتسم بالمحافظة الرحيمة، هل تعتبر هذا التراث يشكل جزءًا من اليسار الأوروبى ؟

أتفق معك فى أن التحول إلى التراث المسيحى الاشتراكى هو سمة ضعف اليسار، وقد تحدثنا آنفًا عن هذا الأمر، وليس من المشجع أن يكون البابا هو الشخصية الوحيدة ذات الأهمية العالمية الذى يدين الرأسمالية، ومع ذلك يجب أن تتذكر أن حزب العمال - مثلاً - اقتنع بالقضية الأوروبية من واقع حقيقة أن أوروبا - وشكرًا لقوة المسيحية الاشتراكية - هى التى تكفل الحد الأدنى من الحقوق النقابية العمالية فى حين لم تفعل ذلك حكومة المحافظين بقيادة تاتشر، وإذا أردت فهذا يدل أيضًا على إمارة ضعف، ومازلت أميل إلى النظر نظرة إيجابية إلى التراث المسيحى الاشتراكى على علاته.

- لقد أصبح يتعذر التمييز بين اليسار واليمين، وستكون الطريقة الوحيدة لتبين الانقسام فى السياسة هى التمييز بين التقدميين والمحافظين، فالتقدميون يروجون للمنافسة بوصفها الوسيلة الحديثة لتأكيد الموهبة الفردية فى ظل توفر شروط الوصول المتكافئ إلى المباراة الاجتماعية، بينما يرغب المحافظون فى الإبقاء على الوضع الراهن للشركات التجارية والامتيازات، بما فى ذلك امتيازات ارستقراطية الطبقة العاملة ونقاباتها العمالية، ويخاطب الأولون الشباب بينما يتجه الآخرون إلى كبار السن وأرباب المعاشات.

- هناك قدر من الصحة فى هذا القول، فقد أصبح جزء كبير من اليسار - بالفعل - قوة تحاول الحفاظ على ما كان جيدًا فى الماضى أو حمايته على الأقل من أن يتعرض للمزيد من التغيرات والتآكل، ومن الناحية الأخرى فإنه لا يمكنك أن تطابق اليمين فقط مع مناصرة الاقتصاد التنافسى من غير ضابط، لقد قللت على نحو ملحوظ من شأن العوامل الأخرى التى خلقت الأوراق، وعلى سبيل المثال هناك مشكلة النزعات القومية والوطنية التى لم تعد تجد نفسها فى جانب أو آخر، وما لا أتفق معك فيه إلى حد بعيد يتعلق بمسألة الشباب والشيوخ أو كبار السن، وإذا كان من الأيسر على وجه اليقين تعبئة كبار السن على أساس الحفاظ على الهياكل الاجتماعية، فإننى لا أعتقد أن السياسة لها تأثيرها البالغ على الشباب، وإن عدم انغماس الشباب فى السياسة يعد مشكلة من أكثر المشاكل المعقدة والملحوظة فى عصرنا، ومن غير الجلى ماذا سيكون

دور الشباب فى سياسة القرن الحادى والعشرين، وأعتقد أنه سيكون لهم شأنهم فى نطاق جماعات طليعية محدودة، ولكن ليس بالضرورة بوصفهم القوة المحورية التى تحدث التغيير الاجتماعى، ولا حتى فى النطاق الانتخابى بكل تأكيد، وسيكون للأسر المتوسطة الدخل والتى فى سن العمل أهمية أكبر من الزاوية الانتخابية.

ولا توجد حركة اشتراكية واحدة لديها تنظيم شبابى حقيقى، ونادراً للغاية ما وجد بالفعل مثل هذا التنظيم حتى فى الماضى، ولم تتمثل الدعامة الأساسية للشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين فى الشباب، بل فى الأسر العاملة، ولهذا السبب - ومع الأخذ فى الاعتبار تدهور هذه البنية الاجتماعية - فإنه تراودنى كثرة من الشكوك فيما يتعلق بمستقبل السياسة، وليس مجرد سياسة الجناح اليسارى، بل السياسة بعامة، ولا يمكن تعبئة الشباب إلا بصدد مسائل محددة مثل أساليب الحياة والبيئة ومشاكل التحرر مثل حقوق الشواذ جنسيًا أو المخدرات : وهى قضايا ذات صلة هامشية فقط بالسياسة.

- بيد أنه ثمة هيكلية لأزمة اليسار التقليدى فى أوروبا، وقد بدأت منذ مائة عام بوصفها حركة العمال الصناعيين وتجد نفسها اليوم نشطة فى مجتمع تتدهور فيه بشكل دراماتيكى الجدوى المحددة للعمل اليدوى والعمالة المباشرة، فكيف يستطيع اليسار أن يخاطب الطبقة الوسطى الجديدة التى يزداد اتساعها وصفوف العمال المستقلين الذين يعملون لحسابهم ؟ وهل على اليسار أن يتخلى عن ديمقراطية العمال لصالح ديمقراطية المستهلكين ؟

- إن المجتمع الاستهلاكى الحديث - بحكم طبيعته ذاتها - يجبر البنى السياسية أكثر فأكثر على أن تتكيف معه، وتزعم نظرية السوق الحرة بالفعل إنه لا ضرورة للسياسة؛ لأن سيادة المستهلك ينبغى أن تعلو على أى شىء آخر: فمن المفترض أن تكفل السوق للمستهلكين أقصى قدر ممكن من حرية الاختيار، وتتيح لهم إشباع جميع احتياجاتهم ورغباتهم من خلال ذلك الاختيار، ويتجنب هذا المسار العملية السياسية ويجعلها حصيلة سنوية أو مشتقة من السوق، وذلك هو سبب الانتشار الهائل لمهن مثل

العلاقات العامة spindoctoring[1] وتطبيق نظم مماثلة لـ focuogroup[2] على السياسة، وقد تشكلت هذه الجماعات في الواقع على منوال أبحاث السوق، مما يقود الوظيفة التى تؤديها المواطنة، وإذا كان المستهلكون قادرين على تحقيق أغراضهم عن طريق ممارسة حق الاختيار كل يوم من خلال شراء السلع أو اتباع ما توحى به أفكارهم بصدد آليات استشارة وسائل الإعلام، فماذا ينبغى حقا من المواطنة ؟ وهل لا تزال هناك حاجة إلى تعبئة الجماعات البشرية من أجل تحقيق أهداف سياسية ؟ إن هذا التطور يدمر الدعائم الأساسية التى ترتكز عليها الإجراءات السياسية.

إن تأسيس علاقة مباشرة بين أدنى نقطة فى النظام - أى المستهلك - وأعلى نقطة فى النظام - أى صانع القرار السياسى - لا يفسح أى مجال لجوهر العملية السياسية وهو ما عرفه هابرماس بوصفه تنظيم "المجال العام أو العمومى" الذى يتاح فيه للناس تكوين آرائهم والتوحد من أجل تحقيق الأهداف الجماعية، وخلاصة القول إن ذلك هو كل ما فهمناه حتى الآن من السياسة فى المجتمعات الليبرالية والديمقراطية وذلك هو مصدر قلقى من برنامج بلير لما يسميه باليسار الحديث؛ لأنه يلوح لى أن بلير قبل قبولاً تاماً منطق أبحاث السوق، أكثر من أى زعيم آخر من زعماء اليسار.

ومن الواضح أن المجال مازال متسعاً لاستيعاب تعبئة جماهيرية من نوع مختلف، فثمة إمكانية - مثلاً - للقيام بتعبئة ديماجوجية وشعوبية حول شخصيات معينة أو مشاهير يجذبون الاهتمام ويستحوذون على مشاعر جماهير ضخمة، وتعتبر حالة الأميرة ديانا أفضل مثال على ذلك. كما أنه يمكن محاولة إجراء تعبئة سياسية تتناسب مع مجتمع السوق الحرة بطريقة بيرلوسكونى (رئيس وزراء إيطاليا) الذى نظم شئونه السياسية بالطريقة نفسها، التى يحشد بها المؤيدين لنادى كرة القدم التابع له، ويفرز هذا الواقع أسلحة سياسية جديدة تماماً، ليس للجيل القديم أى خبرة بها، وقد شرعنا

(١) الناطق باسم هيئة أو حزب أو تنظيم الذى يقدم تفسيرات للأحداث من وجهة نظر معينة (م).

(٢) عينة من السكان يتم اختيارها للمشاركة فى ترويج منتج معين أو سلعة معينة قبل إطلاقها فى السوق ويمكن استخدام مثل هذه الجماعات فى الحملات السياسية أو البرامج التليفزيونية، لقياس مدى نجاحها بتطبيق ما يسمى بالتغذية المرتدة المستمرة (م).

فقط فى فهم كيف يمكن توجيه السياسة وإدارتها بهذه الطريقة الجديدة غير أن السؤال الحقيقى هو : هل لا يزال هناك مجال لما يسمى سياسة؟

إن هذا الوضع لا يؤثر على اليسار فحسب بل إنه يسدد إليه ضربة قاصمة؛ لأن سياسة اليمين المتمثلة فى الحفاظ على الوضع القائم، يمكن ممارستها دون عمل جماعى كبير جدا. وفى سابق الأيام كانت هناك ظاهرة معروفة فى السياسة البريطانية : فعندما كان يقف مرشح فى الانتخابات المحلية ويقول : "أنا مستقل ولا أنتمى إلى أى حزب ولست مهتمًا بتسييس الحكومة المحلية" فالجميع يعرف أنه مرشح الجناح اليمنى، ولذلك فإن نزع السمة السياسية عن السياسة (أو ما يسمى باللاتسييس) يضعف بصفة آلية طاقات اليسار وإمكانياته، ومع ذلك مازالت التعبئة الجماهيرية تحدث ومن المحتمل استمرارها فى القرن الحادى والعشرين، لكن فى أشكال جديدة وإذا كان أحدهم أخطأ قائلاً إن التاريخ قد انتهى فلا أريد أن اقترف الخطأ نفسه قائلاً إن السياسة قد انتهت، ومع ذلك فإننى أعتقد أن لا تسييس الأغلبية الساحقة من المواطنين يمثل خطرًا داهمًا؛ لأنه يمكن أن يقضى إلى تعبئتها بعيدًا تمامًا عن طريقة عمل جميع أنواع السياسات الديمقراطية، ونستطيع أن ندرك مدى خطورة هذه الظاهرة فى بلدان ديمقراطية مثل الولايات المتحدة، حيث أصبح لا يشترك فى الانتخابات المهمة سوى أقل من نصف أولئك الذين يحق لهم التصويت، وهو ما حدث مؤخرًا فى اسكتلندا، فقد كنا نظن منذ عشرين عامًا أنه يستحيل ألا يشترك فى التصويت سوى ٦٠٪ من المواطنين فى أول فى انتخابات للبرلمان الأسكتلندى منذ ثلاثمائة عام، وهى انتخابات كان من المفترض أن تحقق الطموح التاريخى لشعب هذا البلد، وفى أول انتخابات جرت فى جنوب إفريقيا أصطف الناس لعدة أميال؛ لكى يتمكنوا من الوصول إلى مركز الانتخابات. إن الانتخابات فى الغرب أصبحت أكثر فأكثر أحداثًا تديرها الأقليات، ولا تشترك فيها الأغلبية، على حساب نزاهة العملية السياسية. وفى الولايات المتحدة فإن الجناح المتطرف من الحزب الجمهورى – والذى كان يتكون فى الأصل من الأصوليين – له تأثيره البالغ (الذى لا يتناسب مع عدده) فى اختيار المرشحين وذلك؛ لأن هذه العملية تقتصر فقط على الانتخابات الأولية لاختيار مرشح الحزب والتى لا تشترك فيها أغلبية الناخبين المسجلين فى الحزب الجمهورى.

- ثمة طريقة للخروج من هذه الأزمة الديمقراطية، كثيراً ما اغتنمها اليسار الجديد، وهي عبارة عن نوع من الاتجاه الشعبي الإعلامي، أو الاستفتاء الشعبي العام الذي يرتكز على تحالف فاوستي (إشارة إلى الفيلسوف الشهير الذي باع روحه للشيطان في مقابل المعرفة والسلطة وجسدته بعض الأعمال الفنية التي قدمها جوته وتوماس مان وغيرهما (م) مع وسائل الإعلام (الميديا).

- إن ذلك يثير قلقي؛ لأنه يمثل عنصراً آخر يتخطى العملية السياسية، وإذا كان جمهور المواطنين موضع اعتبار فعندئذ يجب أن تكون السياسة عملية تعبئة وحشد، وحتى ولو كانت رمزية، كما قد تمثل في مجرد مغادرة المرء لمنزله؛ لكي يدلي بصوته في الانتخابات، إن نظام وسائل الإعلام (الميديا) يعمل بعديد من الطرائق؛ لكي يكون عوضاً عن تلك التعبئة، أي أن وسائل الإعلام تغدو تاتشرية النزعة (إن صح هذا القول) لأنه لا تؤمن بوجود مجتمع ما، إنما هناك أفراد فقط، وتقيم علاقة مباشرة مع كل فرد، منزلاً بمنزل.

من الناحية التقليدية فإن العملية الانتخابية استلزمت تعبئة جماهيرية يقوم بها النشطاء؛ لكي يتوصلوا إلى الناخبين ولم يعد هذا ضرورياً اليوم، فمكن الناحية النظرية يستطيع أي زعيم فرد أن يتحدث إلى الجميع عبر وسائل الإعلام، ومن الممكن بالفعل من الناحية التقنية أن تدلي بصوتك من غرفة الجلوس عن طريق جهاز التحكم عن بعد، ومع ذلك فإن الأهمية الرمزية للعملية الانتخابية، التي تنشط المواطنين - ولو ليوم واحد فقط - تعد في رأيي ضرورية للإبقاء على المجتمع متضامناً ولكي تعطيه الإحساس بأنه يشكل جماعة بكل ما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات، ولا أقول إن كل هذا لا يمكن الاستعاضة عنه بشيء مختلف، لكن من الصعوبة بمكان حقا بالنسبة لشخص تربى في حقبة سياسية أخرى أن يتكهن بكيف يتحقق ذلك، وإنني أخشى أنه كلما تم عدم تسييس السياسة وجرت خصخصتها كلما تآكلت العملية الديمقراطية، لقد أصبحت السياسة تسيرها الأقليات، وينتهي بها الأمر - كما في إيطاليا - إلى أن تعتبر غير وثيقة الصلة أو غير موافقة كثيراً للحيوات الحقيقية للناس، وذلك أمر غير جيد لليسار أو للحياة العامة.

الفصل الخامس

الإنسان الكونى

- لقد تغير المشهد الثقافى وكذلك الاجتماعى والسياسى فى العقد الأخير من القرن العشرين : إذ أصبح من المتيسر تغيير محل الإقامة والحصول بشكل مستمر ومتواصل على المعلومات على نطاق عالمى، وغدت القدرة الاستهلاكية المتاحة للبشر على نحو لم يحلم به أبدًا آباؤهم، فهل أضحوا أكثر سعادة ؟

ما إذا كان الناس أصبحوا أكثر سعادة، من الصعوبة البالغة ليس فقط على المؤرخ بل على أى معاصر أن يقدم إجابة عن هذا السؤال، والشىء الوحيد الذى نعرفه هو أن ما أسماه جيفرسون "السعى وراء السعادة" يعد باعثًا أو حافزًا عامًا لدى البشر، فى الأزمنة الحديثة على الأقل. لكن يصعب للغاية تقدير مدى نجاح هذا التطلع الطموح على أرضية الواقع، ويلوح لى أنه إذا كان الناس يعيشون فى مستوى الكفاف - أى دون ضمان مكونات الحياة الأساسية مثل الطعام والملبس والمأوى - فإن مجرد حصولهم على ما يتجاوز هذا المستوى يعد إنجازًا ضخمًا، ويصبحون سعداء بكل بساطة عندما يعيشون فى وضع يبعد عنهم الخوف من شبح الجوع.

وإذا تطلعت إلى الجيل الأول من المهاجرين إلى الولايات المتحدة، فسوف تدرك أن هؤلاء الناس اعتقدوا على وجه اليقين أنهم حسنوا مصيرهم إلى درجة أنهم لم يعودوا

أبدًا إلى موطنهم الأصلى، ومن ثم فإن نمو الثروة على نطاق شامل يجلب معه وسوف يجلب معه - بكل تأكيد - السعادة للفقراء، وقد تكون تكلفة هذه السعادة أو ثمنها هو خسارة المعايير ونظام القيم والقواعد والتطلعات وأساليب الحياة. بيد أن علينا أن نتذكر أن هذا الوضع لم يشكل - حتى فى البلدان النامية - مشكلة كبرى حتى الثلث الأخير من القرن العشرين، وآنذاك فقط بدأ النموذج التقليدى الذى مارس به الناس حياتهم يواجه به تحديًا خطيرًا للمرة الأولى، ولم تبدأ هذه التغيرات بعد بالفعل بالنسبة لغالبية البشر فى معظم أنحاء العالم.

وإذا ما عاش المرء فوق مستوى الكفاف فإن الأمور تختلف اختلافًا كبيرًا، وحتى الزيادة فى الدخل أو اتساع نطاق مباهج الحياة لا يكفل بالضرورة أو بصفة آلية الإحساس بتحقيق الذات أو الإشباع، وفى عالم يمكن أن يعيش فيه الناس على الكعك بدلاً من الخبز فلا يمكن للمرء مثل هذا الوضع أن يتخلص من الضغط النابع من الحسد والمقارنة الاجتماعية، وإذا كان المرء ميسور الحال فى مجتمع ديناميكى فلا يستطيع أن يتفادى وضعه بالثروة التى حصل عليها الآخرون الذين ينتمون إلى الجماعة الاجتماعية نفسها التى ينتمى إليها، حتى ولو كان المرء قد حصل على كافة تطلعاته، ومن الواضح أن هذا الوضع يقلل الإحساس بالسعادة ويزيد الشعور بعدم الأمن.

لقد حقق القرن العشرون قدرًا هائلاً من الحراك الاجتماعى والمهنى، وأعتقد أن القرن الحادى والعشرين سوف يحقق المزيد، ولا يحدث هذا فى نطاق جيل واحد فقط، فالأطفال أكثر تعليمًا وثقافة وثراء من آبائهم، ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى الزيادة الهائلة فى المستويات التعليمية، بدلاً من مستويات محو الأمية وصولاً إلى مراحل التعليم الثانوى والجامعى، ويعد التعليم الجامعى - خاصة - ظاهرة حديثة فى مستواها الراهن، خلا العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، وللمرة الأولى فى التاريخ سوف تستطيع غالبية البشر معرفة القراءة والكتابة فى القرن الحادى والعشرين، وسوف تحصل نسبة كبيرة للغاية على تعليم جامعى. وفى بريطانيا يضعون الخطط؛ لكى يصل نصف الشباب من السكان إلى الجامعة فى القرن الحادى والعشرين، وهذه الفرصة متاحة بالفعل لأكثر من ثلث الشباب فى البلدان المتقدمة، فهل ذلك يجعل الناس

أكثر سعادة ؟ وبلا أدنى ريب فإن ذلك يحقق السعادة وإن كان على المستوى الأدنى، ويحقق إنجاز محو الأمية إشباعًا هائلاً، وكان لدى طلاب فى نيويورك من أبناء الهنود فى أمريكا الجنوبية، لم يكن آباؤهم يعرفون حتى الإسبانية لكنهم شقوا طريقهم فى بلدانهم الأصلية بتعلم المبادىء الأولية للغة الإسبانية واكتساب مهارات العمل الأساسية مثل قيادة السيارات، وقد قدموا تضحيات ضخمة لكى يتمكن الجيل التالى من الحصول على التعليم. ويتعين علىَّ القول إنه من أى وجهة نظر كانت، فإن هذه الأسر - التى ما زالت غير موسرة - تظهر جميع الأمارات التى تدل بالفعل على الاستمتاع بنوع من الإنجاز؛ لأنها أنجزت ما كان يعتق أجدادهم أنه يستحيل تحقيقه، وقد أصبحوا قادرين على اختيار أساليب حياة مغامرة لتلك التى كان مقدراً عليهم الاقتداء بها، وهذا ما يجعلهم سعداء بلا أدنى ريب.

وثمة عنصراً آخر يتعين أن يؤخذ فى الحسبان، أى ذلك التأثير الذى أحدثته الكوارث المروعة التى اجتاحت القرن العشرين على أولئك الذين عاشوا أثنائها، ويمكن القول إن هذه الكوارث قد أفرزت على نحو متناقض وبصورة انفصامية - تقريبًا - تأثيرات سيكولوجية إيجابية على أولئك الذين شاركوا فيها سواء أكانوا من المدنيين أو العسكريين، ومن الواضح أن ذلك لا ينطبق على الضحايا أو العدد الضخم من أولئك الذين تم طردهم أو اجتثاثهم من جذورهم أو جرى ذبحهم، لكن كان ذلك بالنسبة لأولئك الذين بقوا على قيد الحياة، وثمة بعض الشك - مثلاً - فى أن المعاناة المادية التى قاساها الروس إبان الحرب الأخيرة تفوقت إجمالاً على الإحساس بالرضا والفخر، بأنهم كانوا أقوياء؛ لكى يتحملوا الحرب وأن يتغلبوا عليها، وهذا الشعور الجماعى يدعم بشكل أو آخر الجماعة. وفى أيرلندا الشمالية التى اجتاحها ما يشبه الحرب الأهلية لزمن طويل فإن مستويات الصحة العقلية للسكان أعلى منها فى بقية المملكة المتحدة، والحق أنه حدث - عقب توقيع اتفاقات السلام - صعود مفاجئ فى حالات الانتحار والاكتئاب. ومن الناحية الأخرى، فإن القطيعة مع النماذج والقيم التقليدية يمكن بلا أدنى ريب تتسبب فى عدم الإحساس والسعادة، ويمكن أن تكون شديدة الإيلام : خاصة عندما لا تعرف ما الذى يتعين عليك أن تفعله، وإلى أين تذهب، ومن ستكون،

وليس من قبيل المصادفة أن العلاج النفسى - مهنة القرن العشرين - قد انتشر على نحو خاص بين جماعتين اتسمتا بحراك منتظم وعدم يقين بالغ: اليهود والأمريكان، وفى كلتا هاتين الحالتين من الشائع للغاية أن تتلمس العون من شخص ما فى وسعه المساعدة فى مواجهة أوضاع لا يقدم عنها الماضى أى إيضاحات أو نماذج.

وأخيرًا فإن المشكلة الحديثة والمهمة بصدد السعادة تتعلق بالمسنين الذين تتزايد نسبتهم بين السكان فى العالم المتقدم، وهم فى وضع ملتبس، ويحتفظون فى حالات كثيرة بقدراتهم لفترة أطول من ذى قبل، وكثرة منهم ثرية وأقل اعتمادًا على الآخرين؛ ولذلك، فإن قطاعًا واسعًا من كبار السن فى البلدان المتقدمة أكثر رضاءً؛ لأنه لم يعد يشارك فى ساعات الازدحام لكى يكسب رزقه، ونحن جميعًا نشاهد السائحين الأمريكيين المسنين الذين يسافرون أيام العطلات ويعيشون حياتهم كما لو أن السن لم يعد يشكل عقبة تحول دون الاستمتاع بالحياة، وكان المرء فى المجتمعات التقليدية فى الماضى إما أن يتوفى صغير السن - نسبيًا - أو إذا عمر طويلاً، يكون عادة قوى البنيان متمتعًا بصحة جيدة. واليوم؛ ولأن الطب والعلم يتيحان لنا أن نعيش طويلاً للغاية فإن عدد الضعفاء عقليًا وبدنيًا فى ازدياد مستمر، وذلك هو سبب شدة الحزن (عدم السعادة) وسوف يتزايد ذلك الإحساس؛ لأن متوسط العمر المتوقع يسجل ارتفاعًا تدريجيًا، وامتداد الحياة فيما يتجاوز التقديرات التوراتية - حيث قدرت التوراة مدة حياة الإنسان بسبعين عامًا، والتى جرت مراعاتها حتى سبعينيات القرن العشرين، من جانب أغلبية البشر - بدأ يغمر العالم مع وجود أولئك الذين بلغوا الثمانين أو التسعين من عمرهم، ومن وجهة النظر هذه فإن طول العمر لا يعد ضمانة لتحقيق السعادة.

وماذا سيكون الوضع فى القرن العشرين ؟

فى اعتقادى على وجه الإجمال فإن الحد البالغ الشديد من العمق ظواهر مثل الفقر المتوطن وتحرر البشرية من سطوة العوز والحاجة سيكون له تأثيره الإيجابى على السعادة.

– لقد وجد دومًا نزوع لدى النخب فى كل أمة إلى المشاركة فى ثقافة "عالمية" أو "كونية"، لكننا اليوم، نواجه شيئًا جديدًا تمامًا : عملية تسعى إلى جعل الثقافات متماثلة على نطاق الكوكب الأرضى بأسره، الانتشار الكونى لثقافة شعبية جماهيرية، وقد أشرت آنفًا إلى أن ٩٠٪ من الأفلام التى تتم مشاهدتها فى العالم من إنتاج أمريكى (باستثناء لا يستهان به للهند واليابان). ويصدق الشىء نفسه على موسيقى الروك : وتعد كرة القدم مثالاً صارخًا : فأنا من المعجبين بفريق إيطالى لكرة القدم لا تكاد تجد فيه سوى لاعبين اثنين من الإيطاليين.

أسباب ذلك بعضها تكنولوجى وبعضها اقتصادى، ومن الجلى أن اختراعات القرن العشرين مثل التصوير والسينما والإذاعة والتليفزيون والاستنساخ الآلى للصوت كانت لها أهميتها البالغة، وتعاظمت هذه الأهمية بالتطورات التكنولوجية الأحدث التى تستمر فى توليد الآثار ولا سيما من خلال تصغير الآلات والمعدات والأجهزة، مما جعل هذه التكنولوجيا قابلة للنقل والحمل وأن تغدوا متاحة فى كل مكان، كما أن انتشار الإنترنت له مغزاه؛ لأنه يجعل نطاقًا واسعًا من التكنولوجيا فى متناول الجميع، بيد أننا ينبغى أن نتذكر أنه فى نهاية القرن العشرين فإن أقلية ضئيلة هى التى تتعامل مع الانترنت برغم ما تشهده من توسع سريع، ويكاد ينحصر استعمالها حاليًا فى الولايات
ة وأوروبا والسبب الأساسى فى ذلك إلى جانب أسباب أخرى هو أن الشرط المسبق للوصول إلى شبكه الإنترنت يستلزم معرفة القراءة والكتابة والإلمام باللغة الإنجليزية فى أغلب الأحيان.

ثم هناك الجانب الاقتصادى: فنمو السوق العالمية جعل الاتصالات السريعة ممكنة لدرجة أن برنامج التليفزيون نفسه أو الفيلم نفسه يمكن بثه على نطاق العالم بأسره فى الوقت نفسه، مما عمل على تحويل البرامج المذاعة على الهواء مباشرة – مثل مباريات كرة القدم – إلى ترفيه دولى حقيقى، حيث لم تعد الفرق الرياضية مرتبطة ببلد معين وأصبح ارتباطها أقل كذلك بمدينة معينة، وهناك تجمع دولى من اللاعبين الذين تم اختيارهم وانتقالهم حول العالم بأسره بطريقة كانت تحدث فى الماضى فقط بالنسبة لنجوم الأوبرا وكبار قادة الفرق الموسيقية، ولا يوجد أفضل من كرة القدم؛ لكى يصوروا

العولمة فى العقد الأخير من القرن العشرين. بيد أن ثمة اختلافاً بين الثقافة التقليدية الرفيعة التى سادت القرن التاسع عشر والثقافة الجماهيرية الحديثة، ولنترك الرياضة جانباً؛ لأنها بحكم طبيعتها ذاتها موحدة القواعد إلى حد بعيد، فالثقافة التقليدية تنتشر عبر نموذج أوروبى جرى تقبله وتبنيه على نطاق عالمى، ومن ثم أصبح معولماً : فالحفلة الموسيقية (كونسير) سوف تقدم الرصيد التاريخى نفسه من الأعمال الموسيقية (الريبيرتوار) أى الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية فى أوزاكا أو شيكاغو أو جوهانسبورج، ولا يصدق هذا على الأدب بسبب وجود قيد بالغ القوة مفروضة على العولمة: الاختلاف اللغوى، وحتى الأدب الكلاسيكى الذى أنتجه القرن التاسع عشر لم يصبح معولماً أبداً بالطريقة نفسها التى حدثت للموسيقى والفنون المرئية، فهناك قلة من البشر خارج إيطاليا تفكر فى أعماق قلبها أن دانتى أعظم الشعراء؛ لأنها لم تستطع البتة قراءة أعماله كما أن الروس وأولئك الذين يقرأون اللغة الروسية هم الذين يعتقدون فقط أن بوشكين من أعظم الشعراء الذين وجدوا على ظهر البسيطة.

ومن الناحية الأخرى، فإننا نواجه انتشار التوفيقية فى الثقافة الشعبية السائدة فى نهاية القرن العشرين، ويتمثل أوضح مثال على ذلك فى الموسيقى الشعبية التى تستوعب عناصر شتى من موسيقى السود الأمريكيين والريف الغربى الأمريكى والويسترن وأمريكا الجنوبية، وأخيراً من الثقافات الإفريقية والهندية – وباختصار – من كل شىء، وهناك مجموعة مؤتلفة من جميع الموروثات الموسيقية المختلفة تسافر حول العالم، فالثقافة الشعبية الكونية هى ثمرة هذا الاستعداد لمزج عناصر مختلفة مستمدة من شتى بقاع العالم، ولكن الثقافة الرفيعة لاشتراك فى هذه القوة الدافعة، وثمة مشكلة أخيرة بخصوص العلاقة بين الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية، فالثقافة الشعبية يشترك فيها الجميع بما فى ذلك، أولئك الذين يألفون الثقافة الرفيعة، لكن العكس ليس صحيحاً حتى لو كنت تحب موزار، فسوف تألف بلا أدنى ريب موسيقى الدول وستكون قد استمعت إليها وربما استمتعت بها أيضاً، ولهذا السبب فإن الأيقونات العالمية مصدرها الثقافة الشعبية، وقد لا تشكل حتى جزءاً شديد الالتصاق بها، ويمكن أن تكون أيضاً

أشياء جامدة (غير حية) وعندما اخترع اندى ورهول Andy Warhol[1] - أحد فنانى القرن العشرين البالغ الحساسية لمعنى الثقافة الشعبية - المجموعة الشهيرة من الأيقونات العالمية فإنه اختار مارلين مونرو وماوتسى تونج وتشسى جيفارا، وعلبة صفيح الشوربة المسماة "كامبل" وغدت هذه المحاكاة الرمزية (إعداد الأيقونات) ممكنة بفضل إتاحة هذه الصور بشكل متزامن على نطاق الكرة الأرضية، ولكن إلى أى مدى ستكون دائمة ؟ اعتقد ورهول نفسه أن غالبية هذه الأيقونات ستكون مؤقتة، ونستطيع أن نبلور حكمًا انطلاقًا من الأثر الكونى الفريد لشخصيات مثل ديانا، ويتراءى لى أن الأحداث التى أحاطت بموتها ستكون بعد انقضاء خمسين عامًا مجرد حاشية مثيرة للاهتمام ولن تمثل فصلاً من فصول تاريخ الثقافة الشعبية فى القرن العشرين.

- لكن وبرغم انتشار ثقافية كونية جماهيرية، هناك مقاومة جلية وحتى إحياء لثقافات قومية وإقليمية ومحلية، ولماذا يريد سكان ويلز الذين - من حسن الصدف - يتكلمون الإنجليزية فى نطاق عالم يتحدث الإنجليزية، لماذا يريدون إعادة اكتشاف اللغة الويليزية ؟ ولماذا تريد الفتيات المسلمات اللاتى تعيش فى لندن ارتداء ملابس الجدات عندما تذهبن إلى المسجد؟ وفضلاً عن هذا فإنه يلوح أن العولمة نفسها تنمى التنوع والاختلافات الثقافية مثلما تتيح الفرص السوقية التى تدر أرباحًا، برغم توجهها إلى أسواق معينة.

- لا أعتقد أنه ثمة مفارقة بينها ولا تناقض، أولاً لا أرى أى أمارات مقنعة تدل على أن الثقافات المحلية فى الوقت الراهن تقف موقفًا مناوئًا بشدة للعولمة، وهناك بعض حالات محدودة من هذا النوع، ولكن ليس على نطاق كبير وإلى حد بعيد، وما يحدث عادة بين الجماعات المهاجرة هو استيعاب الغرب لها على نحو متزايد، مع الإبقاء على التقاليد والممارسات الأصلية للأجيال الأقدم، ومازال هذا هو رأيى، فقد جنح

(١) (١٩٣٠ - ١٩٨٧) فنان أمريكى بدأ حياته كفنان تجارى ثم أصبح من أبرز أعلام الفن الذى أصبح يسمى "البوب" pop art وحقق شهرة واسعة فى هذا المجال خلال ستينيات القرن العشرين ثم اتجه إلى السينما فقدم عدة أفلام اشتهرت بطولها المبالغ فيه (م).

الجيل الأول من المهاجرين إلى أن يتكيف قدر الإمكان مع المجتمع الجديد، ولكنه اضطر فى الوقت نفسه إلى الإبقاء على صلة ما بالموروث؛ لأن جميع روابطه وخبراته لا تزال متجذرة فى المجتمع الذى جاء منه، ولهذا فإن درجة الاستيعاب تكون ضئيلة نسبيًا، ويكون أطفال الجيل الأولى أكثر وأسرع تمثلاً واستيعابا، وشباب جزر الهند الغربية أو الهنود أو الباكستانيين الذين يعيشون فى لندن يتحدثون الإنجليزية تمامًا مثل معاصريهم دون أدنى نبرة من لغتهم الأصلية، ومع ذلك فإنهم يمكن أن يصبحوا من المجاهدين الأصوليين الإسلاميين.

وأعتقد أن الاتجاه السائد مازال ينزع إلى الاستيعاب، ليس كمثل أعلى لكن بوصفه ممارسة تفرضها المعيشة فى مجتمع مختلف عن المجتمع الأصلى، وربما بدأ الجيل الثالث فى التنمية رد فعل مناصر للعودة إلى الجذور وهو وما اكتشفه الأمريكيون فى ستينيات القرن العشرين، عندما تم اختراع مجموعة جديدة من المفردات المستمدة من ثقافات متعددة، وعندما لم يرغب الشباب فى أن يكون مجرد أمريكى بل أمريكى أسود أو أمريكى يونانى أو أمريكى إيطالى، واكتشف من جديد الجيل الثالث من اليهود الأمريكيين الأرثوذكسية الدينية، ومع ذلك، لا أميل إلى الاعتقاد بأن هذا يمثل رد فعل عام ضد العولمة، ومن الحقيقى أن اليهود الأمريكيين المتطرفين ذهبوا إلى الضفة الغربية وعدلوا بعض جوانب ممارستهم الدينية، لكنهم استمروا يسلكون مثل بقية اليهود الأمريكيين فى جميع سبل الحياة الأخرى. وبمعنى أخر، فإن الاستيعاب يسود أو يجنح لأن تكون له الغلبة، ويصدق الشىء نفسه على العادات والأزياء، وإذا ذهبت إلى جماعة من المهاجرين فى مدينة متعددة الأعراق فسوف تجد عدد الأشخاص الذين يرتدون بطريقة مختلفة عن قصد وعمد مثل اليهود الأرثونكسى، إنما يمثلون أقلية، وهذا حقيقى أيضًا عند اليابسبورا الإسلامية : وليس الأصوليين فقط هم الذين يمكن أن يرتدوا الرموز الخارجية للأصولية.

وفى رأيى، أنه من الأرجح ألا يعتبر ذلك رد فعل مناهض للعولمة بل هو نوع من الجمع التلفيقى بين ثقافات عدة مثل أفلام الكونج فو(المصارعة الصينية) التى تنتج فى هونج كونج، حيث تجمع بين أشتات من الويسترن والمصارعة الصينية التقليدية

وممارسات أخرى عديدة، وبهذه الطريقة تتم تنمية وصهر عدة أشكال محلية متغايرة من ثقافة كونية، بدلاً من أن تتصادم فيما بينها، وإن رد الفعل المناهض لتماثل الحياة في بلدان مثل الولايات المتحدة يعبر عن نفسه بدلاً من ذلك من خلال تكوين جماعات الهُوية، التى تفرز أساليب حياتية معينة كثيراً ما تكون ذات طابع غريب شاذ مثل جوالة العصر "العصر الجديد"[١] وتعتبر تلك بمثابة تجمع من ردود الأفعال الفردية وليست ردود أفعال جماعية.

ومن الواضح حقا أنه يتعين وجود قدر من رد الفعل، إن لم يكن فقط بسبب بلبلة (بابل) اللغات فى العالم التى تعد قيداً أساسياً مفروضاً على العولمة، وإن زيادة التعليم ومعرفة القراءة والكتابة سوف تجعل هذه المشكلة حادة على نحو خاص من أجل تماثل العالم، والفكرة القائلة إن العالم قاطبة سوف يتكلم اللغة الإنجليزية تبدو لى فكرة يوتوبية ولن تتحقق، ويعد تعدد اللغات - بحكم تعريفه - عقبة فى وجه العولمة، ويجب ألا تختلط علينا الأمور : فالعولمة وهى ظاهرة حقيقية وواسعة الانتشار بالغة الاختلاف عن الكوزموبوليتية (المواطنة العالمية) التى مازالت محدودة للغاية.

- إن أنت لا تتفق مع ما كتبه عالم الاجتماع أنتونى جيدنس **A. Giddens** قائلاً : "إن الصدام بين الاعتماد على الموروث والاستقلال الفردى هو أحد قطبى العولمة، وهناك فى القطب الآخر صدام بين الكوزموبوليتية والأصولية" ويزعم جيدنس أن الأصولية وليدة العولمة؛ لأنه "من غير الممكن للمرء أن يكون لديه أى مبرر للعيش، ما لم يكن لديه ما يستحق أن يموت من أجله".

- لا أعتقد أنه توجد أى صلة بين العولمة والأصولية، باستثناء حقيقة أن أى شىء يفسد التراث ويقلبه رأساً على عقب له بعض التأثير على الأصولية، ومن البين أن العولمة هى أحد هذه الأمور، والحق أن رد الفعل الأصولى أقل شيوعاً على وجه الدقة فى تلك البلدان التى غدت أكثر عولمة، والأصولية هى رد فعل مناهض لكل ما يأتى من العالم الخارجى، وما إذا كان معولماً أو لا فذاك أمر قليل الأهمية.

(١) جماعات تعيش على هامش المجتمع وفقاً لأسلوب حياة غير تقليدى جوال ومتنقل وتتسم ببعض النزعات الروحية والصوفية وحماية البيئة والدفاع عنها، محاولة تقديم نهوج جديدة للثقافة الغربية التقليدية (م).

والسؤال عما إذا كان يوجد ما يستحق الموت من أجله لا علاقة له أيضًا بالعولمة، وإنما يتعلق بتدهور القيم الجماعية فى نمو مجتمع فردى النزعة إلى حد بعيد، وأظن أن الحرب في كوسوفا قدمت المثال المتطرف، وقد مورست باسم أسمى القيم الأخلاقية وارتكزت فى الوقت نفسه على أساس ألا يموت جندى واحد من حلف الناتو فى ظل أى ظروف، وهو يختص أساسًا بالولايات المتحدة التى ربما كانت البلد الوحيد فى العالم، التى يتوقع أن يقوم جنودها بالقتل دون أن يتعرضوا لخطر الموت، ولكنى أعتقد أن الناس لا تنقصها الدواعى والأسباب التى تجعلها على استعداد للموت فى بقاع كثيرة من العالم، وقد اختفى بعضها ومازال مثل الأسباب الجيدة التى تدفع للموت لكن مازال هناك الكثير من الأسباب السيئة وهى قوية كما كانت من قبل، وتدل السرعة التى اندفع بها المهاجرون الألبان إلى كوسوفا للالتحاق بحرب العصابات على أنه مازال يوجد أناس كثيرون على استعداد لتعريض حيواتهم لخطر حقيقى، والمثال الأخير لصراع واسع النطاق كان الناس على استعداد للموت من أجل القضية تمثل فى الحرب الإيرانية العراقية، وفضلاً عن هذا، فإنه يمكن توقع حرب فى المستقبل بين الصين والولايات المتحدة قد تحمل الأمريكيين على قبول مخاطر المعركة تمامًا كما فعل أجدادهم وآباء أجدادهم.

وتضفى فترة السلم الممتدة طويلاً طابعًا جذريًا أو راديكاليا على السلوك وتقسم الناس إلى مجموعتين : مجموعة على استعداد للتعرض للخطر - وليس بالضرورة فى القوات المسلحة - ومجموعة أخرى ترفض المجازفة، وعلى سبيل المثال، هناك اليوم عدد متزايد يمارس أنواعًا متطرفة وخطرة من الرياضة تنطوى على احتمال أن يفقد المرء حياته، وهناك من يقبل المشاركة فى القتال كنشاط مهنى مدفوع الأجر، ومن الناحية الأخرى، خلق السلام الدائم أغلبية كبيرة هادئة فى البلدان الثرية، تعتبر أن مفهوم الموت من أجل قضية ما لا يحجر التفكير فيه مليًا، ومع تضاؤل التجنيد العام الإجبارى من المقدر أن يتأصل هذا الموقف، وليس من اليسير تخيل كيف يمكن أن يتغير هذا، أو ما إذا كان ممكنًا العودة إلى واقع القرن العشرين، حيث جعلت الحروب كل فرد يواجه سؤال الموت إما فى منزله تحت وقع القنابل أو على جبهة القتال، ويصدق هذا على

العالم الغربى المتقدم والهادئ، ولا يعنى ذلك أن أماكن أخرى تفتقر إلى من هو على استعداد لكى يموت من أجل قضية ما لأن هذا يعتبر - إلى حد ما - جزءاً متأصلاً فى الطبيعة البشرية.

- عن معظم الروابط التقليدية التى تربط الفرد بواقعه قد ضعفت مع العولمة مثل الولاء للأسرة والقرية والمجاورة والشركة، ويتعين على الشباب الأمريكى الذى يبدأ الآن حياته العملية أن يتوقع تغيير الشركة التى يعمل فيها حوالى عشر مرات وكذلك المهنة التى يمارسها، والمنافسة تفضى إلى ضغوط نفسية وعصبية بالغة والحسد الاجتماعى يبتلى المستويات العليا فى المجتمع.

- دعنا ألا نخلط بين أمور مختلفة : العولمة والقطيعة مع أساليب الحياة التقليدية، والجانب الوحيد من هذه القطيعة الذى يمكن أن تكون له صلة مباشرة بالعولمة هو عدم توفر الأمن للعمالة؛ لأنه من المفترض أن تجبر العولمة الشركات على تبنى مرونة أكبر فيما يتعلق بالقوى العاملة لكن حتى هذا - وفى معظم الحالات - لا يرجع إلى التنافس الدولى، فعدم توفر الأمن للعمالة هو إستراتيجية جديدة وتكنيك لتعظيم الأرباح عن طريق تقليل الاعتماد قدر الإمكان على العمل البشرى أو من خلال دفع أجور أقل للعاملين، وفى الاقتصاد الرأسمالى الحديث فإن العامل الوحيد الذى لا يمكن أن تزيد إنتاجيته بسهولة كما لا يمكن تخفيض تكلفته بيسر هو الكائن البشرى، ولذلك هناك ضغط هائل لاستبعاده من العملية الإنتاجية، وهو ما يمكن أن يكون حقيقياً سواء وجدت أم لم توجد منافسة عالمية. وبالأصح إن هذا هو العذر الذى تبرر به هذه العملية حالياً، وحدث مؤخراً جدا أن قرر مصرف إنجليزى تحميل زبائنه خمسة جنيهات عن كل عملية تتم بمعرفة موظفى الشباك فى الفروع، وقد عمدت الإدارة إلى ذلك لأنها لا تريد فى الواقع أن يتجه الزبائن فى معاملتهم إلى موظفى الشباك كما تسعى إلى إقفال بعض الفروع، وتفضل أن يستخدم الزبائن فى معاملتهم بأجمعها الأجهزة الأوتوماتيكية، وباختصار فإنها تريد إتمام العمل دون تدخل من موظفى المصرف، وهذا قانون حديدى

للإنتاج الرأسمالي في حد ذاته ولا يتعلق بالمنافسة العالمية، وإن المصارف سوف تعمل على تخفيض عدد موظفيها، إذا كان التشغيل الآلي (التلقائية الآلية) يسمح بذلك، بصرف النظر عن أي منافسة تأتي من مصرف في هونج كونج.

ويتعين علينا أن نكون قادرين على التمييز بين الأمور، وإن كان من الحقيقي بلا أدنى ريب أن هذا سيكون إحدى المشاكل الكبرى التي ستواجه القرن الحادي والعشرين، ونميل اليوم إلى أن نتقبل كأمر قاطع أننا لم نعد في احتياج إلى الحوافز التقليدية التي أبقت من قبل المجتمعات البشرية معًا كما عملت - أيضًا - على تسيير عجلة الاقتصاد، وخير مثال لها هو الأسرة وقيمة العمل، وقد اعتبر آدم سميث الدافع على الاقتصاد السوق الحرة لا يمثل فقط حاجة نفسية مسلمًا بها لتبادل السلع - بيعًا وشراءً - بل يعد أيضًا نزوعًا نموذجيًا للإنسان صوب العمل وحسن استعداده يجعل الإشباع الفوري الذي يحقق له العمل يأتي في المرتبة الثانية من الأهمية ودون هذا الموقف فإن جوانب كثيرة من السوق لن تكون قادرة على العمل إطلاقًا.

وهذه الركائز التي ينهض عليها مجتمعنا حطمتها الثورة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي اجتاحت الجزء الأخير من القرن العشرين.

ومما يذهلني عدم إبلاء الاهتمام الكافي لحقيقة أن هذه الآثار يمكن أن تحطم السير الفعال للنظام الرأسمالي نفسه، وعلى سبيل المثال فإن حياة شركات كثيرة نهضت في الماضي على أساس القبول العام لقيم التضامن والروابط الأسرية، وهو ما زال حقيقيًا في إيطاليا وأعمالها التجارية الصغيرة المسماة "المعجزة"، وما زال يصدق أيضًا على الدياسبورا الصينية المقدمة (المولعة بالمغامرة) والمفعمة بالحيوية التي تعيش في جنوب شرق آسيا، فالتضامن الأسري في هذه الحالات يوفر موردًا يعتمد عليه في الحصول على الكوادر الذين هم على استعداد للمشاركة في اهتمامات الشركة، وحيث تعتبر مشاعر الالتزام والواجب لديهم غير مفروضة من الخارج، لكنها مدونة بشكل أو آخر في دستورهم الأخلاقي، ويلوح لي اليوم أن الفكرة التي تكسب أرضًا - في حقبة السوق الحرة هذه - هي أن هذه الدوافع القديمة لم تعد مهمة، وإنه يمكن نبذها دون أن يترتب على ذلك أي عواقب، وإنه يمكن إدارة الاقتصاد كلية دون الإفادة منها.

ويعتبر ولاء العمال لشركاتهم أو ولاء الإدارة للشركة لا تأثير له، ويعتقد أنه من الممكن تمامًا أن يتعايش نجاح الشركة مع عدم توفر الأمن بشكل دائم ومع التغير والتبدل المستمرين لمستخدمى الشركة.

وهناك خصائص أخرى لهذا الاتجاه، فمن المفترض حاليًا أن الإنسان لم يعد مستعدًا للانتظار لكى يحصل على مكافأة أو جزاء عن كدحه عمله أو مشروعه التجارى، وأنه يقتضى الحصول على إشباع فورى، ولم يعد أحد يستثمر فى تكوين شركة جديدة تعمل فى غضون عشر سنوات فى أقرب تقدير وتبدأ فى تحقيق أرباح بعد عشر سنوات أخرى، ويتمثل المنطق الوحيد للاستثمار الصائب حاليًا فى الاشتراك فيما يثمر عائدًا فوريًا، ومن الأكثر شيوعًا فى الواقع شراء شركات قائمة بدلاً من تأسيس شركات جديدة، وفى هذه الأيام المجيدة لعمليات المضاربة المالية الدولية فإن الناس لا يقدرون نتائج نشاطهم التجارى فى نهاية عقد من الزمان ولا حتى فى نهاية السنة، فمدى نجاح أى استثمار يجرى احتسابه يوميًا وربما حتى ساعة بساعة. والسؤال هو : إلى أى مدى تستطيع الرأسمالية أن تعمل بطريقة العمل الاقتصادى المعينة هذه ؟ وبالنسبة لشخص مثلى أتى من جيل آخر فإنه يشق عليه أن يقدم إجابة عن سؤال كهذا، وفيما يتعلق بالكثير منا فإن فكرة عدم توفر أى قدر من الأمن لما قد يحدث غدًا تعد مفزعة وغريبة تمامًا وكلية، وربما سيغدوا من الممكن أن تتكيف الأجيال القادمة مع هذا النظام وتعتبره عاديًا، لكن إذا ما أفلحت فى ذلك فإن الثمن سيكون قدرًا من الضغط العصبى والتوتر المرعب، ولا يساورنى أدنى شك فى ذلك، والأمر غير الواضح هو ما إذا كان من الممكن تحمل هذا الوضع مع استدامته لأجل طويل.

ومن رأيى أنه ثمة أنشطة يتعذر تنظيمها بهذه الطريقة على الإطلاق أى على أساس الحصول على أكبر تعويض ممكن وعلى الفور وبقول آخر، وفقًا لقواعد السوق التنافسية، والعلم هو أحد الأمثلة على ذلك. وإن أحد الأسباب التى تزيد كربى وغمى إزاء المستقبل هو ما إذا كان العلم – الذى اعتبر أحد الأشياء القليلة النادرة التى قاومت قطيعة هذا النظام مع القيم التقليدية – سوف يتغير أيضًا مع الواقع الجديد، ويعد العلماء فى أمريكا من بين القلائل الذين لا يكون الدافع إلى نشاطهم على وجه الحصر هو توقع

الحصول على الربح الأقصى، ويتمثل خطر الثورة البيولوجية والجينية فى أن العلماء يدركون مقدار النقود التى يمكنهم كسبها فيما لو انضموا أكثر ما ينبغى إلى هذا المنطق، وهل سوف يمتصهم تمامًا النسق الذى تعمل بموجبه السوق المالية بالفعل؟ وإذا حدث هذا وعندما يحدث فإن العواقب يمكن أن تكون مهمة لدرجة أنه يستحيل حاليًا حتى محاولة تخيلها، وهو ما قد يصدق أيضًا على تمويل البحوث العلمية، والذى تم فيه معظم الأوقات فى الماضى دون أن يؤخذ فى الحسبان حساب الربح والخسارة، وهناك بحوث مثل تلك التى تجريها المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية (c e r n) تستغرق سنوات ولا تستهدف تحقيق ربح فورى أولاً تتم لمتطلبات عسكرية، لكن لأن الحكومات اعتبرت ذلك بمثابة أحد جوانب التنافس العالمى بين الدول، غير أنه إذا كان معيار التنافس الدولى هو تحقيق أقصى قدر من الأرباح فهل ستكون هناك حاجة بعد إلى هذه المنظمة (c e r n).

وأميل إلى الظن بأن هذا الواقع الشديد بقيم السوق لن يدوم، وهو نسق يمكن أن يعمل على خير ما يرام بالنسبة لبعض أنواع الأنشطة مثل أعمال المضاربة المالية أو الصناعة الترفيهية، وإذا نظرنا إلى النجاحات الكبرى التى حققتها عمليات التصنيع فى نهاية القرن (اليابان، كوريا، الصين) فسوف نرى أنها لم ترتكز أبدًا على إلغاء الروابط بين الشركة والعمال، والحق أننى أعتقد - وعلى أقل تقدير - طالما ظل البشر لاغنى عنهم فى العملية الانتخابية ولم يتم استبعادهم كلية منها فسوف يستحيل تقريبًا استبعاد أهمية إحساسهم بالرضى ومراعاة دوافعهم وبالتالى مشاعرهم الجماعية مثل الولاء للأسرة والجماعة والشركة والدولة.

- إن الحاجة الملحة إلى التحقق الذاتى واستبعاد جميع ضروب المعاناة أفسحت المجال لتدفق مستحضرات تجميل جديدة، ولم يعد يكفى أن يكون المرء فى صحة جيدة ويعتمد على نظام صحى فعال، فنحن نريد أيضًا أن نظل نشطاء جنسيًا بعد تجاوز مرحلة الشباب والاقتراب من الشيخوخة، ومن ثم نحتاج إلى الفياجرا، ولم نعد نبغى الحزن والكآبة أو فتور الهمة ولهذا نتجه إلى تعاطى البروزاك Progac (دواء مضاد للاكتئاب) ونريد أن نكون من النحفاء دون وجود "الكرسن" ولذلك نتعاطى الأقراص التى تزيل

الدهون أو ننغمس فى نظام غذائى (رجيم) مفرط لدرجة أنه قد يتسبب فى إحداث أمراض جماعية جديدة، مثل نقص الشهية للطعام (Amorexia) أو الشر المرضى "بوليميا" (Bulimia) . فهل تعتقد أننا نخاطر بإيجاد أشكال جديدة من التمييز، لم تعد ترتكز على الإيراد وإنما على البدانة أو القبح أو الخجل أو عدم الاهتمام بالجنس؟

– أعتقد أن هذه المشاكل مقصورة على البلدان الثرية، ولا أظن أنها تقلق التأميل (سرى لانكا) أو الألبان بدرجة كبيرة، ومع ذلك فإنها مشكلة جديرة بالنقاش، وإمكانية الحصول على هذه الأنواع الجديدة من العلاج سوف تتوقف على التكاليف، والسبب الذى يجعل الناس يفكرون فى التمييز إزاء أنواع معينة من المرضى من أمثال ذوى الوزن الزائد أو المدخنين فى نطاق العلاج الطبى المجانى، هو سبب يتعلق بالتكلفة، ويجب على النظام الصحى العمومى أن يحدد استخدام بعض الأدوية مثل الفياجرا، كما حدث فى بريطانيا، وفضلاً عن هذا هناك حالات نادرة للغاية قد تبرر توزيعه مجاناً على أساس طبى، والمشكلة فى المجتمعات الديمقراطية هى أن أى فرد يستشعر رغبة ما – مثل أن يكون أكثر قوة من الناحية الجنسية – فإن ذلك يخلق حقا فى العلاج الطبى، ومن ثم فهناك ضغط هائل من الرأى العام.

وثمة مثال جيد آخر يتعلق بالإيدز (A I D S) ولسنوات عديدة فى الولايات المتحدة، حيث لم يكن المرض بالغ الانتشار ولم يمثل حالة طوارئ صحية خطيرة، فإن جماعات الضغط التى اهتمت بهذه القضية كانت بالغة الفعالية فى استرعاء اهتمام عام واسع النطاق وفى تحصيل موارد مالية ضخمة، ومن الناحية الاجتماعية كانت هناك شرور اجتماعية كثيرة استحقت على الأقل مثل ذلك الاستثمار والبحث، والآن حيث أصبح الإيدز حقا مشكلة جماهيرية فى إفريقيا فإن الموقف مختلف والاهتمام متدنى ويرجع ذلك جزئيًا إلى عدم وجود مجتمعات ديمقراطية وجماعات ضغط فى إفريقيا.

بيد أن الأمر الأكثر أهمية – فى الإجابة عن السؤال المطروح – يتعلق بتحليل كيفية تشكيل أنواع التسلسل الهرمى (التراتب) الاجتماعى، ونستطيع أن نتنبأ على وجه اليقين بأنه كلما أصبح العالم أكثر ثراء كلما قلت المساواة بما فى ذلك المساواة

السياسية والقانونية، وقد تأسست النظم المناصرة للمساواة بين البشر - أى النظم الاشتراكية - كما فى روسيا وصين ماوتسى تونج، على حقيقة أن كونها من البلدان الفقيرة فلن توجد آليات تعمل على إنتاج طبقة ثرية، ومن الطبيعى أن توجد أقلية تعيش حياة أفضل من بقية السكان حتى فى الاتحاد السوفيتى وبدرجة أقل فى الصين. ومع ذلك، فإذا ما تمت مقارنة معايير الثراء هذه بما يوجد فى الغرب فإنها تبدو تافهة بل مثار سخرية وضحك، ويعتبر "الداشا" - البيت الريفى الروسى الذى يعود إلى ستالين أو إلى عضو فى momenklatura السوفيتية - رمزًا للمكانة الاجتماعية الرفيعة لكن أى مهنى ثرى نسبيًا فى ميلانو مثلاً يمتلك منزلاً ثانويًا أكثر جمالاً يقع على بحيرة كومو(بحيرة فى جبال الألب شمال إيطاليا "م").

وفى البلدان الغنية حيث يكون الاقتصاد مطلق العنان من الناحية العملية، فإن تنوع الإيرادات ضخم للغاية وفى طريقة الازدياد دومًا، وكم عدد المليونيرات فى إيطاليا أو فى فرنسا أو بريطانيا العظمى؟ وإن عدد أولئك الذين يمتلكون أصولاً إجمالية تبلغ أو تتجاوز المليون دولار كبير للغاية حتى فى أوروبا، ولو أن معدل النمو لا يماثل المستويات الأمريكية. ومن الناحية الأخرى، فإن المزايا التى تحققها الثروة الضخمة لم تعد واضحة كثيراً، ويرجع السبب الأساسى إلى أن السلع والخدمات المتاحة للجميع غدت معقدة تقنيًا ومنتشرة لدرجة أن الاستمتاع بها لا يميز بين الغنى الفقير، وعندما يمتلك أكثر من ٩٠٪ من السكان أجهزة تليفزيونية فإن ميزة الحصول على شاشة عملاقة شديدة الوضوح أقل أهمية نسبيًا من حيازة التليفزيون عندما كان ذلك الامتياز لا تحظى به إلا القلة القليلة، وهكذا، فحتى رموز الثروة تتغير، ويتمثل اليوم رمز المقام الرفيع للغنى حقا فى امتلاك طائرة خاصة، وذات مرة أوضح لى أكاديمى أمريكى - مهمته جمع التبرعات لجامعته - أسرار مهنته قائلاً : "أولاً، عليك أن تحب الأثرياء، وثانيًا، أن تعرف ما يجب أن تتحدث به اليوم، ومن المؤكد أن الموضوع الذى يثير اهتمامهم هو طائرتهم الخاصة".

وتتمثل السمة الجديدة حقا للتمايز التى خلقتها الثروة فى أن المزايا والمنافع التى تحدد وضع الأغنياء يجب أن تكون مقصورة على فئة واحدة حصراً، والأثرياء فقط

هم الذين يعرفون أين يذهبون لقضاء العطلات؛ لأنهم يوجدون وحدهم هناك، فى حين أن أحد الأسس التقليدية للتراتب الاجتماعى تمثل بوجه عام فى إمكانية أن يراه الجميع ويتعرفون عليه ويقدرونه، وبهذا المعنى فإن الثروة تحقق اليوم قدراً أقل من الرضا والإشباع، وفى الماضى - مثلاً - وجد ارتباط ضخم بين كون المرء غنياً وكونه موفور الصحة وحسن المظهر، وكانت الطبقة الحاكمة من ملاك الأرض الإنجليز أكثر طولاً وقوة وأبهى منظراً، بيد أن هذا التميز يذوى تدريجياً أيضاً ومع ذلك، فإننى أعتقد أن الثروة ستظل محورية فى تحديد التراتب الاجتماعى، ولا أستطيع أن أرى أى تراتب بديل فى طريقه إلى الظهور لكى يتنافس مع توفر الأموال.

وقد ظلت الكنيسة لزمن طويل تمثل تراتباً بديلاً، ومركز البابا ما زال لا يرتكز على عدد الطائرات الخاصة التى فى حوزته، غير أن العلمانية تقوض أيضاً التراتب الاجتماعى القائم على ممارسة السلطة الدينية، وماذا عن السياسيين ؟ هم رجال ونساء متعلمون، وكان التعليم فى الماضى عاملاً حاسماً فى التراتيب الاجتماعية، ومن المحتمل أن يستمروا فى احتلال مرتبة أعلى من غيرهم ولكنهم يشغلون درجة أدنى من الأثرياء، وربما الموهبة الفنية ؟ التى سوف يكون لها فى نهاية الأمر اعتبارها المهم وهو ما يرجع جزئياً إلى أنه يمكن ترجمتها إلى مكاسب مالية، والكمال الجسمانى ؟ لقد نالت البراعة الرياضية دوماً الكثير من التقدير، ومن المؤكد حقا أن الرياضة خضعت اعتباراً من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر لموضات المجتمع الأرستقراطى الذى ولدت فيه، وأولئك الذين استثارتهم مهارات راكبى الخيل (الجوكى) وأبطال الملاكمة، عاشوا فى نطاق ثقافة نظمها على نحو مهيمن المجتمع الأرستقراطى وقد اختفى هذا حالياً، وغدت الرياضة كذلك نشاطاً من أنشطة السوق. ولا أعتقد أن ذلك قلل من الإعجاب الفريد الذى تثيره المنجزات الرياضية الباهرة، وحتى وقت قريب جدا، لم يرتبط هذا الوضع بأى صلة بمقدار الأموال التى يكونها الرياضى. والحق، أن كبار النجوم الرياضيين لم يكونوا أموالاً كثيرة على أية حال فى معظم القرن الماضى - على الأقل خارج الولايات المتحدة - ويكفل النجاح الرياضى تحقيق سلطة إضافية فى نطاق تحديد التراتب الاجتماعى، وقد رفع بيليه (لاعب الكرة البرازيلى الشهير "م")

إلى ذلك المركز الرفيع بحيث أصبح وزيراً، ولا أظن أن هذا العامل سوف يختفى، والحق أنه سوف يتركز فى الأفراد وصورتهم الشخصية، بينما يتجاهل فرقهم أو بلدانهم الأصلية.

– هل من رأيك أن المرأة خرجت من حرب التحرر التى خاضتها منتصرة ظافرة ؟ وهل حققت فعلاً المساواة مع الرجل؟ وهل هذه المساواة هى الشىء نفسه مثل التحرر أو ربما كانت وسيلة للتطابق مع أساطير الذكر والسلطة والمظاهر الجنسية ؟

– لا مراء فى أن تحرر المرأة يعتبر من أعظم الأحداث التاريخية فى القرن العشرين، ومشكلة القرن الحادى والعشرين هى أن يحدد ما الذى يتعين عليه أن يفعله وماذا سوف يحدث على الأرجح، وقد اقتصر تحرر المرأة فى القرن العشرين بالفعل على بعض أجزاء العالم وبعض قطاعات المجتمع، ومازالت هناك بقاع كثيرة من الكرة الأرضية لم تحدث فيها هذه الظاهرة، وقد وجدت مرحلتان كبيرتان : تمثلت المرحلة الأولى فى المعركة من أجل الحصول على الحقوق السياسية نفسها والحق فى التصويت، وانصبت المرحلة الثانية على المساواة فى الوصول إلى المهن نفسها. ومن الناحية العملية، فإن هذه الأهداف تحققت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى ذلك الحين فإن البلدان التى لم تستطع فيها النساء التمتع بحق التصويت كانت تعد أقلية ضئيلة، ثم اختفت، والتقدم الذى أحرزته المرأة فى المهن المختلفة قد شجعت عليه كثيراً الحرب وزيادة حاجة الأسر فى السنوات الثلاثين الأخيرة، إلى حصولها على دخلين بدلاً من دخل واحد. وأعتقد أن النجاحات التى تحققت فى موقع العمل تعد مرضية، برغم أنه يمكن القول بكل تأكيد إنها غير كافية، ومع ذلك فإننى أعتقد أن انتشار العمالة النسائية يعد ظاهرة مذهلة للغاية خاصة فى بلدان مثل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.

بيد أن ثمة مشكلة خطيرة – بل وتزايدت خطورتها – تتعلق بالمصاعب غير العادية التى تواجه المرأة التى تجمع بين شغل وظيفة مهنية رفيعة المستوى وبين دورها كأم ولا يندرج هذا الوضع فى نطاق التميز ولكن يتصل بالقانون الطبيعى، حيث إن المرأة هى التى تنجب الأطفال ويمكن نظرياً إيجاد حل لهذه المشكلة بأن يعهد بالأطفال إلى أشخاص يتولون رعايتهم أثناء غياب الأم أو إلى دور الحضانة أو أن يعهد بتربيتهم

إلى أشخاص خلاف الأم الطبيعية ويدلنا التاريخ على أنه من الممكن حدوث ذلك : وقد مارسته الأرستقراطية على نطاق واسع ولكن يتفـق الجميع حاليًا على أن هذا الوضع لا يعتبر الحل الأفضل بالنسبة للأطفال، ومن ثم هناك مشكلة من المرجح أن تحمل الأجيال القادمة تكلفة عاطفية واجتماعية مما يفسر سبب تدنى نسبة النساء اللاتى يصلن إلى قمة المهن عن نسبة الرجال، ولهذا السبب فإن كثرة من النساء تعجز ببساطة عن التنافس فيما يتجاوز نقطة معينة وفضلاً عن هذا، فمن الخطل افتراض أن ذلك محض مسألة إحصائية يتعين حلها عن طريق تحديد نسبة معينة (كوتا) تستهدف تقيم أنواع العمل بالتساوى بين الرجال والنساء ولا أرى أى سبب تاريخى يبرر جعل التكوين المثالى لمهنة ما - مثل البرلمان - مناصفة بين الرجال وبين النساء، ومن الناحية الأخرى فقد وجد اتجاه فى الماضى يرمى إلى تقسيم العمل على أساس الجنس، وقد كان فى بعض الحالات قديمًا للغاية من الناحية التاريخية وعلى سبيل المثال فإن الرجال كانوا يذهبون إلى الجيش وتذهب النساء إلى صناعة الولادة وقد حدث ذلك - فى مناسبات أخرى - لأسباب تاريخية عرضية مثل تأنيث المهن التعليمية والممارسة الطبية فى الاتحاد السوفيتى.

بيد أنه حدث تغير عظيم فى ستينيات القرن العشرين، لا علاقة له بالتنافس الجنسى : تحكم المرأة فى الإنجاب وقد كان بمثابة حدث تاريخى حقا وفعلاً : نوع من إعلان استقلال المرأة عن الرجل، وإلى حد ما عن القواعد التى حكمت الجماعة الاجتماعية بأسرها، ولعل أهم ما برر فى ذلك الوقت هو قرار المرأة بألا تقبل بعد تعاليم الكنيسة وسلطتها المعنوية، ولاسيما فى بلدان ذات شهرة كاثوليكية مثل إيطاليا وأيرلندا وبولندا، وقد امتدت هذه الظاهرة فيما يتجاوز الدائرة المحدودة للمرأة المتعلمة التى شكلت طليعة الحركة الداعية إلى المساواة، وكانت لها تأثيرات بعيدة المدى؛ لأنها حولت الآلية الكاملة لإعادة نتاج الجنس البشرى من جيل إلى الجيل التالى، وسمحت للمرأة أن تمارس الحق فى عدم إنجاب أطفال وكانت السرعة التى انتشرت بها مذهلة ومازالت العواقب من الصعب التكهن بها.

وسيكون التحرر الأكبر للمرأة إحدى سمات القرن الحادى والعشرين، وأكثر أسلحته فعالية سوف تتمثل فى انتشار التعليم على مدار الكوكب الأرضى بأسره، حتى فى أقصى البلدان تخلفًا وسوف تنتشر هذه الثورة عن طريق اكتشاف أن الناس الآخرين يتعرضون بطريقة مغايرة لما كان يعتبر قوانين طبيعية غير قابلة للتغيير، ومن هذه النظرة فإن تحرر المرأة ليس إلا فى مراحله الأولية، لأنه لم يخاطب بعد غالبية سكان العالم وفى المجال السياسى، من الناحية الأخرى فإن صعود المرأة كان للغرابة أقل إرضاءً بكثير؛ لأنه ولو أن المرأة دخلت البرلمان أو أصبحت وزيرة أو رئيسة وزراء فى بلدان عديدة، فلا نستطيع القول إن السياسة تغيرت بأية طريقة أو غدت أكثر نسوية

- أود أن أعرف أفكارك بصدد الثورة التكنولوجية، التى تعتبر فى أحيان كثيرة من أقوى العوامل التى تسهم فى تحقيق الديمقراطية؛ لأنها تقدم المعلومات إلى كل منزل وتجعل من الممكن العمل خارج وحدات الإنتاج التقليدية، وبالتالى فهى أكثر مرونة وقدرة على التكيف مع المواهب الفردية فهل تشارك هذا التفاؤل ؟

- من المؤكد إن تكنولوجيا المعلومات تحدث تغيرات هائلة فى مجال العمل ولكن يساورنى الارتياب فى أماكن حدوث تغير جذرى، تمامًا مثلما ارتاب فى مقدرة الاقتصاد الحديث على أن يعمل دون وجود مرجعية من التقاليد الاجتماعية، ومن الواضح أنه يمكن - من الناحية التقنية - العمل انطلاقًا من المنزل والاتصال بالعالم منفردًا من خلال البريد الإلكترونى (E- MAIL) والواقع أن الناس لا تنشد العمل بهذه الطريقة وحتى رواد التكنولوجيا المتقدمة لم يعيشوا متناثرين عبر الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، لكنهم تركزوا فى مناطق معينة بحيث يمكنهم الالتقاء والاتصال فيما بينهم، ومن غير المريح كثيراً ألا يجد الإنسان من يبادله الحديث، وأن يتخلى عن الاتصالات الشخصية التى يعد أحد العناصر الأساسية تمامًا لتحقيق الإنتاجية والفاعلية فى العمل وكل هذا الحديث عن العمل المنزلى اللامركزى هو مجرد دعاية؛ لتبرير الاستغناء عن العمال "العمالة الزائدة" وتستعد هيئة المواصلات البريطانية (BRITISH TELCOM) للتخلص من ١٠٪ من قوة العمل بافتراض أنهم سوف يستطيعون العمل من منازلهم، وفضلاً عن هذا، فتلك مسألة تتعلق باليوتوبية التكنولوجية التى تتجاهل حقيقة أن الإنسان كائن لا يود أن يعيش بمفرده ويفضل أن يعمل مع الآخرين.

وفى مجال العمل فإن المشاركة فى النشاط الاجتماعى مازالت وستبقى ضرورية تمامًا وكلية ونحن نعلم أن الناس فى الريف يذهبون إلى السوق ليس بغرض شراء حاجاتهم فحسب، بل أيضًا للقاء الآخرين وتبادل الأنباء والثرثرة وأنت لا تستطيع بناء مجتمع على أساس احتساب نسب المنافع للتكاليف، بل وحتى من هذه النظرة فإن وجود مركز أبحاث لميكروسوفت يعد أكثر فعالية بكثير من تشتيت الباحثين فيما بين كندا والفلبين، ويعد وادى سيليكون SILICON VALLEY مثالاً نموذجيًا لكيفية التوصل إلى جمهور مهم من العمال لابد منه؛ لتشغيل حتى أكثر الصناعات تقدمًا، ويعيش معظم أولئك الذين يعملون فى وظائف البرمجيات (SOFTWARE) فى الهند فى بانغالور (عاصمة ولاية كارناتاكا فى جنوب الهند) وحتى أولئك الأكثر حماسة لمزايا الاتصال عبر مسافات طويلة يفضلون الاجتماع فيما بينهم فى الحانات نفسها (البارات) لكى يتبينوا كيف تسير الأمور، ومعرفة أخر ما وصل إليه التقدم فى هذا المجال ويصدق الشىء نفسه على الجامعات وأول سؤال يطرحه العالم الجيد عندما تعرض عليه الجامعة وظيفة هو : كم عدد من سيعملون معه ومع من يستطع أن يتحدث عن عمله ؟

– ألا تخيفك قوة العلم وسطوته ؟ مثل إمكانيات الاستنساخ البشرى والتهجين الحيوانى ونقل الجينات أو القتل فى الحرب ما بينما يكون المرء جالسًا أمام الكمبيوتر؟

– من الطبيعى أن يختفى ذلك – ليس بسبب القوة التى يخلو لها فحسب – بل أيضًا لأن تلميذ الساحر لا يعرف غالبًا كيفية الاستخدام، وإذا ما توفر بعض الضمان الذى يكفل أن الأشخاص الذين يجعلون هذه التطورات ممكنة يعرفون – أيضًا – ماذا يفعلون بها وكيف يستخدمونها ومتى لا يجب استخدامها على الإطلاق، فسأكون أقل خوفًا لكن هذه الضمانة غير موجودة ويجرى التلاعب بقوى طبيعية هائلة، ولا يحسن دومًا فهمها فهمًا كاملاً ولا يوجد تنظيم أو مؤسسة يمكن أن تقول ما الذى يجب فعله وما لا يجب فعله، والقاعدة الوحيدة التى توجد فى ظروف السوق الحرة، أى تعظيم النمو الاقتصادى والربح إلى أقصى حد ممكن، سوف تحدث على وجه اليقين – تقريبًا – تأثيرات سلبية.

الفصل السادس

١٢ أكتوبر ١٩٩٩

– ١٢ أكتوبر ١٩٩٩ هو يوم مولد الطفل رقم ٦ بلايين نسمة فإلى أى مدى سوف يعيش هذا الطفل حياة كريمة ومنتجة وسعيدة ؟

– سيكون عدم التكافؤ فى الفرص أحد العوامل الحاسمة فى مستقبل البشرية بصفتها الجماعية أو كأفراد : سواء تعلق الأمر بضروب اللامساواة الإقليمية واللامساواة الجغرافية فى نطاق البلد الواحد، واللامساواة الاجتماعية والمشكلة الكبرى التى تواجه الألفية الجديدة هى أنه يستحيل التنبؤ عمومًا بمستقبل الطفل رقم ٦ بلايين نسمة.

– كيف تفسر الاتجاه الديموغرافى فى أوروبا فى ظل معدل النمو السلبى أو حتى معدل الصفر الذى يعد سمة نموذجية للعالم المتقدم ؟

– هذا حقيقى. ولا تقتصر هذه الظاهرة المهمة على القطاع الثرى فى أوروبا إنما تمتد أيضًا إلى أوروبا الشرقية، وهناك بلدان كثيرة فى الاتحاد السوفيتى السابق وفى بلدان أخرى مثل المجر ورومانيا ينخفض فيها عدد السكان، وفى القارة القديمة فإن البلدان التى أعاق البرنامج السوفيتى تجديدها وتحديثها هى التى تشهد أسوأ الأوضاع.

ومن ثم فإن تدهور معدل المواليد تشترك فيه البلدان الثرية ثراءً فاحشًا مع تلك التى على النقيض تمامًا، وأعتقد أن التفاوت الديموغرافى فى مختلف مناطق العالم سيمثل فى خاتمة المطاف مشكلة من أعظم المشاكل فى القرن العشرين.

ودعنا نمعن النظر أولاً فى المستوى الذى بلغه العـدد الشامل لسكان العالم : ٦ بلايين نسمة، ويتوقع علماء الديموغرافيا - حاليًا - أن هذا النمو سوف يستقر خلال النصف الأول من القرن الحادى والعشرين فى حدود ١٠ بلايين نسمة، المشكلة هى أن التنبؤات الديموغرافية فى المدى البعيد لم يثبت أبدًا أنها بالغة الدقة والتحديد، ويرتكز الاستقرار المتوقع على افتراض أن العالم الثالث فى مجموعة - أو معظمه على الأقل - سوف يتبع نمط الاتجاهات الديموغرافية نفسها التى سادت من قبل فى العالم الأول، أى أنه سوف يشهد انخفاضًا مفاجئًا ولافتًا للنظر فى معدل المواليد ويكون ذلك مقترنًا بزيادة كبيرة فى متوسط العمر المتوقع، وهناك دلائل وأمارات على حدوث ذلك، ومع هذا فإننا نتعامل مع تنبؤ يرتكز فقط على الخبرة والنماذج الرياضية، ولهذا يتعين علينا مراعاة الحذر الشديد.

وقد أُجريت من قبل محاولات عديدة للتنبؤ بالاتجاهات السكانية إبان القرن العشرين، وعلى سبيل المثال، انتشر التخمين فيما بين الحربين العالميتين بحدوث انخفاض وشيك الوقوع فى سكان أوروبا، وبدلاً من ذلك فقد اكتشفنا انفجار المواليد وزيادتهم عقب الحرب العالمية الثانية حتى فى أكثر البلدان تقدمًا، وما يمكن أن نقوله بيقين مقبول عقلاً هو أنه ما لم يحدث هذا الاستقرار التنبوئى، فآنذاك سوف تفضى المعدلات الراهنة لنمو السكان فى العالم حتمًا إلى كارثة من نوع أو آخر، ويجب أن يوجد حد إذا ما تم تجاوزه فسوف تحدث تأثيرات سلبية ضخمة على نطاق كونى.

وهكذا لا يسعنا إلا أن نتعلل انطلاقًا من هذا بالأمل فى وقف معدل النمو والزيادة، ولكن حتى فى هذه الحالة تظل أسئلة كثيرة دون إجابة، فنحن لا نعلم ما إذا كان هذا الاستقرار سوف يقتضى أثر النماذج السابقة، التى انطوت جزئيًا على حدوث تغييرات فى السلوك الاجتماعى مثل الزواج، وعبرت جزئيًا عن التدخل عمدًا وعن قصد فى العملية التناسلية، مثل تحديد النسل والإجهاض، وأعتقد أنه إذا حدث هذا الاستقرار فسيكون ثمرة تدنى معدل المواليد وكذلك تدنى معدل الوفيات فى الوقت نفسه، ويمكن أن يفرز هذان العاملان معًا تشكيلاً عمريًا معينًا بالنسبة للسكان، ومن الناحية الأخرى ليس لدينا أدنى خبرة بماذا يعنى حقا الاستقرار الديموغرافى طويل الأجل، وما أعنيه

هو أننا لا نعرف كيفية تحقيق ذلك فحسب، بل إننا لا نعرف كذلك كيفية الحفاظ عليه عبر فترات زمنية طويلة، بل يكفل أن يكون كل جيل مماثلاً فى الحجم تقريبًا للجيل السابق، وهل سوف تحدث تقلبات، صعودًا وانخفاضًا بصورة دراماتيكية ؟ علينا أن نعرف ذلك، إذا أردنا معرفة ما سوف يحدث، لكن يستحيل التنبؤ.

وما أقل ما نعرفه حاليًا عما سوف يحدث عندما يتوقف قطاع من العالم - كما يحدث الآن - عن التناسل، فى حين يتحقق فائض ضخم من السكان فى بقية العالم، مما يزيد من احتمالية زيادة عدد المهاجرين.

والشيء الوحيد الذى نعرفه هو أن التحضر العمرانى - وعلى نحو متناقض - يجعل الوضع أفضل قليلاً؛ لأنه يعمل جزئيًا على تخفيف الضغط البالغ على البيئة، نتيجة للحاجة إلى إيجاد أرض للقاطنين الجدد فى العالم، وفى العصور الوسطى حدث الاستيطان لهذا السبب بالتحديد : فإذا تجاوز نمو السكان حدا معينًا، فإنه يتعين على البعض أن يهاجر، ويجتث الغابات لكى يستقر هناك، وقد حدث الاستيطان فى آسيا - وإلى حد ما فى أوروبا - نتيجة لإخضاع الأراضى الجديدة للزراعة مما عمل بالتالى على تغيير البيئة. وفى بلدان مثل الهند، وهى من الأمثلة القليلة الباقية فى العالم حيث مازال هذا العدد الضخم من السكان يعتمد إلى حد كبير على الزراعة، فإن الآثار يمكن مشاهدتها إذ لم يتبق سوى القليل من الغابات والأرض غير المزروعة والحيوانات البرية.

واليوم فإن الأمور يمكن أن تسير لأى اتجاه مغاير، ولحسن الحظ، فإننا إذا أخذنا العالم فى مجموعة فإن التحضر العمرانى يوفر لنا حلاً مختلفًا، إذ يتيح مكانًا لكى يستقر فيه القادمون الجدد دون أن نلجأ بالضرورة إلى استغلال مساحات شاسعة جديدة من الأرض على نطاق كبير، وإن وجدت مشكلة أكثر إلحاحًا تتمثل فى سوء توزيع السكان حول العالم، وستكون النتيجة التى لا محيص عنها تزايد الضغوط الشديدة من أجل الهجرة إلى الخارج من البلدان ذات معدلات المواليد المرتفعة للغاية إلى البلدان الثرية، ولكن - وكما رأينا - فإن إحدى الخصائص الأساسية للعالم الحديث هى أن الهجرة يزداد كبحها أو عرقلتها فى البلدان الثرية، ومع ذلك، يلوح لى أنه من

المحتم أن تقوم - بطريقة أو أخرى - البلدان التى لا يتكاثر سكانها - مثل إيطاليا - باستيراد عمالة رخيصة أو أولئك الذى يمكنهم القيام بالوظائف التى لم يعد السكان الأصليون يودون القيام بها. كما يبدو أنه لا مفر بالنسبة لى من استيراد قوة العمل هذه من البلدان الفقيرة، وعلى نحو متزايد من العالم الثالث، وقد رأينا بالفعل عمليات تبادل متعلقة بالهجرة من هذا النوع : وأشهرها استخدام الفلبينيات فى الخدمة المنزلية، وقرأت مؤخراً دراسة مهمة عن سالونيك : وقد كانت حيناً من الدهر مدينة متعددة الثقافات تقنطها كل شعوب الإمبراطورية العثمانية، وكانت بادىء ذى بدء مدينة يهودية وإسلامية، وقد حولتها عملية تطهير عرقى تمت تدريجياً عبر القرن العشرين إلى مدينة يسكنها ٩٩٪ اليونانيين، بيد أن ظاهرة هجرة حديثة فى سبيلها إلى تغييرها مرة أخرى؛ لأن الطبقة الوسطى اليونانية تلجأ تشغيل الخدمات الفلبينيات، فضلاً عن قيام الألبان العمل البستانى على نطاق ضخم، وهو ما يحدث فى كاليفورنيا نفسه مع اختلاف وحيد هو أن المكسيكيين هم الذين يقومون بالعمل البستانى، وإن الطلب على الخدمات التى لا يمكن أن يؤديها السكان الأصليون، بسبب ندرة قوة العمل الرخيصة، سوف يفضى بلا أدنى ريب إلى انتقال عدد كبير من البشر من العالم الثالث إلى العالم الأول.

وسوف يطرح هذا الوضع مشكلة سياسية واجتماعية ضخمة؛ لأن أوروبا مجتمع مناصر للحمائية بشكل متميز يرغب فى إقصاء الأجانب خارج حدوده، حتى ولو كانوا من اللاجئين القادمين من كوسوفا، ويتزايد عزوف البلدان الثرية عن منح حق الدخول أو المواطنة للغرباء، وينطوى الوضع الراهن المتمثل فى الطلب القوى على اليد العاملة من ناحية والإجراءات التقليدية من الناحية الأخرى على أخطار خلق مجتمعين : يتمتع المجتمع الأول بالمواطنة الكاملة وكافة الحقوق ويتكون المجتمع الثانى من الغرباء، وتبدو عليه جميع القسمات الدائمة لأكثر الفئات فقراً وسوف يحصل بعضهم على بعض أشكال المواطنة، لكن الغالبية سوف تعتبر من بعض النواحى منتمية إلى جنس أدنى، على الأقل من حيث التمتع بحقوق المواطنة، ويعيش بالفعل نصف المهاجرين الذين يوجدون فى أوروبا بطريقة غير مشروعة وفى الخفاء (تحت الأرض). مما يعنى عملياً عدم تمتعهم بأى حقوق، وباختصار فإن ضحايا هذا الوضع لن يشعروا بوطأته الكاملة؛

لأن إذا كان المهاجر قد جاء من إفريقيا السوداء فسوف يكسب عيشه فى فلورنسا بطريقة أفضل مما لو كان فى موطنه الأصلى، حتى بدون التمتع بحقوق المواطن. بيد أن هذه العملية سوف تخلق مجتمع الفصل العنصرى (الأبارتهيد APARTHEID) وفى الواقع فإن السمة الحقيقة للفصل العنصرى ليست هى الفصل بين الأجناس، كما تعتقد غالبية البشر، ففى جنوب إفريقيا كانت جميع الأجناس مختلطة فى كافة ميادين الحياة الجماعية، لكن البعض تمتع بحقوق حرم منها الآخرون.

ومادام المهاجرون أقلية ضئيلة نسبيًا فقد لا توجد أى مشكلة سياسية خطيرة، لكن اليوم لم يعد الوضع كذلك، إذ يمثل الأجانب فى ألمانيا والنمسا بالفعل قرابة ١٠٪ من السكان، ومن الواضح أن التقييدات الصارمة المفروضة على الهجرة فى أوروبا لن تكون قادرة على الحيلولة دون زيادة نسبة الهجرة، وهو ما قد يخلق توترات سياسية ومعضلات أخلاقية خطيرة.

ومن هنا تتأتى أخطار العنصرية التى تنبع من حقيقة أن أكبر الهجرات مصدرها العالم الثالث، ولبعض الأسباب التى لا أفهمها تمامًا ولكنها ثبتت تاريخيًا، فإنه يصعب قبول نوى الملامح المختلفة ونوى لون الجلد المتباين، وإننى على ثقة من أن المسألة الكبرى التى لم يفصل فيها بعد، والمسكوت عنها فى الاتحاد الأوروبى هى إلى أى مدى يمكن أن يتسع نطاقه ليشمل بلدان إسلامية – وهذا هو السبب – فى رأيى، لترك تركيا واقفة على عتبة الباب. ويعد الاتجاه صوب الأصولية الإسلامية فى بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا فى الأساس بمثابة رد فعل على عنصرية البلدان الأوروبية، مما يزيد الأمور تعقيداً ويتسبب فى بروز التوترات المحلية القومية، على نحو ما شهدته بالفعل فرنسا وبريطانيا العظمى، ولذلك لا يعد إخفاق البلدان الثرية فى أوروبا فى تكاثر سكانها مجرد مسألة ديموغرافية.

وترى ماذا سيحدث لبلدان أوروبا الشرقية الأقل ثراءً التى تبتدى فيها اتجاهات مماثلة للتدهور السكانى، وقد أكون على يقين من أن هذا الوضع سوف يفرز اضطرابات ضخمة هناك أيضًا وسوف يصبح بالفعل عدد السكان فى بلدان الاتحاد السوفيتى

سابقًا ويوغسلافيا سابقًا أقل مما كان عليه منذ خمسين عامًا، ولا يرجع هذا إلى انخفاض معدلات المواليد فحسب، بل أيضًا إلى نزوح ضخم للسكان بفعل الهجرة، وقد غادر كثيرون عن طيب خاطر، وطرد آخرون من ديارهم كما في البوسنة وكوسوفا، وهم عازمون على عدم العودة، ومن الممكن مثلاً أن ينزع الكوريون والصينيون إلى عبور الحدود مع روسيا؛ لكي يذهبوا إلى الأراضي الشاسعة غير الآهلة بالسكان في سيبيريا.

وسوف تعاني بلدان كهذه أيضًا مشكلات ديموغرافية أكبر؛ لأنها لن تستطيع توفير الهياكل الأساسية الاقتصادية التي لابد منها لدعم استمرار حياة هذه الأعداد الضخمة من السكان، ولا يمكن استبعاد أنها سوف تعالج الوضع عن طريق محاكاة قلب الاتجاه وتشجيع زيادة معدلات المواليد، كما أن استقرار النمو السكاني، أو الإخفاق في تحقيق ذلك، ستكون له تأثيراته المهمة على اقتصادات البلدان النامية؛ لأن البلد الذي ترتفع فيه معدلات المواليد يتعين عليه تخصيص موارد أكبر؛ لإعالة الأمهات والأطفال وتوفير الرعاية الصحية والالتحاق بالمدارس، وبالتالي يتعين عليه أن ينأى عن مواصلة النمو في عدد السكان.

ثم علينا أن نمعن النظر في التطورات المصاحبة والتي برغم أنها قد تكون أقل وضوحًا إلا أنها ليست أقل شأنًا، ومن الجلي حاليًا أنه حتى في البلدان التي يتدنى منها عدد السكان فإن الطلب على التعليم لن يتراجع كذلك، وأولاً وأساسًا بسبب ازدياد عدد الشباب الذي يتجه إلى الدراسة لفترات أطول، ولكن أيضًا بسبب أن كبار السن وأرباب المعاشات يبدون كذلك الاهتمام بالتعليم المستمر المتواصل، وتلك ظاهرة قد يتم التغاضي عنها. وأعتقد أنه توجد سوق ضخمة للتجارة التعليمية التي تشهد توسعًا سريعًا مثل الدورات الدراسية الخاصة وجامعات المسنين والتدريب المهني الدائم الذي يستمر طوال الحياة العملية بأسرها.

– إن ١٠ بلايين نسمة في عام ٢٠٥٠ هو التوقع الأكثر تفاؤلاً وهو الرقم الذي سوف يتحقق إذا ما نجحت برامج الأمم المتحدة لتحديد النسل عبر العالم، لكن إذا أخفقت هذه البرامج فيمكن

للرقم أن يرتفع إلى ١٢ بليون نسمة، أى ضعف الرقم الحالى في فترة وجيزة تصل إلى نصف قرن، فهل ستصبح البيئة قادرة على الصمود إزاء هذا الضغط الهائل ؟

– لا أعتقد أن أخطر المشاكل يتمثل فى إنتاج ما يكفى من الطعام لكل فرد، ففى السنوات الخمسين الماضية أنتج العالم ما يكفى وأزيد من الطعام لمجاراة الزيادة فى عدد السكان ثلاثة أضعاف، وتم ذلك بتكنولوجيا مختلفة نسبيًا أو حديثة على وجه الخصوص، مثل التربية الانتخابية (للمواشى) وليس باستخدام البيوتكنولوجيا التى غدت متاحة حاليًا، ولا أرى أى سبب يحول دون استمرار هذا الاتجاه الإنتاجي فى القريب العاجل، وأستطيع القول إن كمية الطعام المتوفرة فى العالم اليوم فى وسعها أن تقيم أود زيادة كبيرة فى كل السكان، ولهذا فإننى غير مقتنع بالحجج التى تقدمها الصناعات التى تنتج الأغذية المعدلة وراثيًا، والتى ترى أن هذه هى الطريقة الوحيدة لإطعام العالم، وليست هذه الحقيقة الواقعة – على الأقل – بالاسترشاد بالتنبؤات الحالية المتعلقة بالنمو السكانى، ولا يعنى هذا أننى ضد البيوتكنولوجيا، إنما أقول ببساطة إن هذه ليست حجة صائبة؛ لأننا لا نقف على أعتاب نقص فى الأغذية، وأغلبية الشر فى العالم – باستثناء قلة سيئة الحظ – تتغذى اليوم بصورة أفضل مما كانت تتغذى من قبل، كما أن هناك إسرافًا ضخمًا فى الطعام فى العالم نتيجة لتوزيعه على نحو غير متكافئ.

وسوف تكون هناك عواقب وخيمة تؤثر على البيئة والنظام الأيكولوجى، فللمرة الأولى فى التاريخ تغدو البشرية قادرة على استنفاد رصيد بعض الموارد غير القابلة للتجدد، وعلى سبيل المثال، لم يكن أحد يحلم أبدًا إننا يمكن أن نستنفد أسماك بحر الشمال من جراء عمليات الصيد ومع ذلك فهذا ما حدث على وجه الدقة، ونحن قادرين اليوم على جعل العالم غير قابل للعيش فيه بسبب السموم أو التلوث أو الطريقة التى تغير بها الصناعة الغلاف الجوى، ولم يتم إلا مؤخرًا الوعى بهذه المشكلة – إذ لم تكن موجودة قبل بسبعينيات القرن العشرين – على الصعيد الكونى على الأقل، وعلى الرغم من أنه

برز اتجاه باعث على الأسى لمناقشة هذه الموضـوعات بتعبيرات كارثية على الأصح، فلا مراء فى أن قدرة البشرية على إفساد البيئة قد أضحت خطيرة للغاية ومن الطبيعى أنه كلما زاد عددنا كلما أصبحنا أكثر خطورة.

ولم يساور القلق أى شخص بشأن مستقبل مـوارد الطـاقة غير القـابلة للتجدد – مثل الفحم – قبل منتصف القرن التاسع عشر، كما أنه ثمة حفنة ضئيلة للغاية توجست من استنفاد الاحتياجات البترولية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، ونستطيع اليوم أن نلتمس قليلاً من الراحة أو نسترخى بعض الشىء؛ لأننا نعلم أنه تم اكتشاف الموارد البديلة، لكن تظل حقيقة أن تلك الموارد القديمة غير قابلة للتجدد، وحالما يتم استنزافها كليةً فلن توجد أبدًا على أية حال، وعلى الرغم من أنه من غير المرجح أننا سوف نستنفدها فى العقود القادمة أو حتى فى القرن القادم، فإن حقيقة كونها سوف تنتهى ذات يوم، سجلها حاليًا كتاب التاريخ.

والواقع هو أننا قد غيرنا البيئة، ولكى نحكم على ما الذى سوف يحدث فى المستقبل، فإنه يتعين علينا أن نرتكز على خبرات الماضى وكيف تصرف الشر حتى الآن، وقد شهدنا عبر القرون ظاهرة تاريخية ذات أهمية ضخمة – مثل اجتثاث الغابات من منطقة البحر المتوسط – جزئيًا من خلال انتشار الزراعة، وهو ما كان له تأثيراته التى لا راد لها على البيئة الإيطالية مثلاً، وهناك مواقع قليلة للغابة فى إيطاليا هى التى حافظت على الغابات القديمة مثل تلك التى مازالت موجودة فى جبال سيلا فى كالابريا calabrha (جنوب غرب إيطاليا)، وهكذا فإن تدهور الأوضاع البيئية ليس ظاهرة جديدة ولكنه كان يتسم فى الماضى بطابع إقليمى ويصبح الآن كونى الطابع، ويجرى حاليًا إزالة الغابات المطيرة ويزعم الكثيرون أن هذا الوضع ستكون له تأثيرات مهمة أكثر بكثير من اجتثاث غابات البحر المتوسط.

وتثير كل هذه الأوضاع أسئلة مهمة. فإلى أى مدى يمكن عكس هذه الآثار والارتداد عنها ؟ وما هو المجال المتاح للقيام بعملية وقاية للطبيعة ؟ ودعنا نفترض أن العالم قد تحول بالفعل نتيجة للتدخل الإنسانى إلى شىء لا يمكن تسميته بالعالم الطبيعى (الفطرى) ودعنا نفترض أن ما نسميه الآن بالطبيعة لم يعد طبيعة، بل هو تركيب من المناخ

والطبوغرافيا (وصف تضاريس الأرض) والبيئة الأصلية (المحيط) وتأثيرات التاريخ الطويل للتدخل الإنسانى، فماذا ستكون هذه البيئة شبه الإنسانية التى لم تعد بيئة طبيعية ؟ وما هو الفرق عندما يبدو العالم المحيط بنا شبيهًا بحديقة بدلاً من أن يكون غابة بكرًا ؟ ومعظم المناظر الطبيعية هى من صنع الإنسان، وقد تحولت البيئة حتى القرن العشرين عن طريق الزراعة أولاً وقبل كل شىء وكذلك فى جميع أماكن العالم المتقدم وفى أوروبا بلا أدنى ريب، لكن - فى المستقبل - علينا أن نمعن النظر فى تأثيرات التحضر العمرانى فى المناظر الطبيعية التى لم تتم زراعتها بعد، وماذا سوف يحدث للمناطق الريفية حيث لم تعد الزراعة التى أفسدت هذه المناطق لزمن طويل غير ضرورية؛ لأنها غير فعالة ؟ ولدينا أمثلة جيدة تشمل تلك المناطق المتحررة من متطلبات الزراعة، فهناك اتجاه يسود الطبقة الوسطى الأوروبية يدفعها إلى الانتقال إلى الريف وإرساء أنواع جديدة من البنى الأساسية، وذلك هو ما حدث فى توسكانى (وسط إيطاليا) حيث تدهور الشكل المعين من الزراعة المسمى **meggadrha** . وتلك مشكلة؛ لأن الأشكال القديمة من الزراعة فى كثير من أجزاء أوروبا هى التى حمت المناظر الطبيعية، وماذا سوف يحدث حالما تذهب وتنفض ؟ ويمكن أن تتحول الأرض إلى أرض حرجة أو ربما إلى غابة، ولا نعرف ماذا سوف يحدث، غير أن ما أريد تأكيده هو أننا فى هذه الحالة لا ندافع عن الطبيعة بل ندافع عن طبيعة أثمرتها الزراعة التى تلاعب بها البشر.

وماذا سوف يحدث فى تلك البقعة من العالم التى لا توجد بها طبقة وسطى تبنى لها منزلاً ثانويًا ؟ وقد تصبح البيئة خالية من البشر، كما يحدث فى بقاع كثيرة من الغرب الأوسط الأمريكى، لكن المنظر الطبيعى المهجور يمكن أن يغدو قفرًا كاملاً بعد قرن أو قرنين من الزمان، وتجرى مناقشات مستفيضة بصدد كيفية الحفاظ على البيئة القائمة، تشغل بها فى الأساس القطاعات المثقفة فى مجتمعات الرفاهية، ولا يعنى هذا أنه لا ينبغى أن تؤخذ بجدية : فحماية النمور أو الكركدن (وحيد القرن) مثلاً يمكن أن تكون لها أهميتها من الناحية العلمية، وربما أمكن إبادتها جميعًا إذا ما ترك أمرها للسكان المحليين فى إفريقيا، وقلة ضئيلة للغابة من النمور هى التى تركت فى آسيا. ومهما يكن من أمر فثمة شىء واحد أرى أنه يتعين علينا أن نقاومه فى القرن الحادى

والعشرين ألا وهو - على وجه التحديد - تلك المحاولة الرامية إلى الوقاية والمحافظة عن طريق إنشاء متاحف حية وإيجاد مناطق خاصة ورمزية فى العالم فمن المفترض أن تحافظ على خصائصها "الطبيعية".

وهنا أسباب اقتصادية جيدة بجلاء تبرر هذا النوع من التطوير، كما هو الحال فى السياحة. ويمكن توضيح الأمر للشعوب الإفريقية أنه من الأفضل عدم قتل الكركدن والغوريلا، بسبب الأموال التى قد تتحقق من السياح الذين يحضرون لتصوير هذه الحيوانات، ولذلك سوف يحاول الناس تحويل بعض بقاع العالم إلى مراتع ضخمة ذات موضوع واحد، لكن هل يمكن القيام بذلك فعلاً ؟ وهل سوف يتم بالنسبة لبعض الأجناس التى يمكن ألا تظل حية لولا ذلك كما هو الأمر بالنسبة للحيوانات، وأنا لا أبالغ فى القول فقد جرت مناقشة كهذه تماماً فيما يتصل بالقبائل التى تعيش فى غابات الأمازون. إن سؤال كيفية إدارة البيئة والتعامل معها يغدو أكثر فأكثر مشكلة عملية لا نظرية، مما يتطلب تقديم إجابات محددة.

لكن دعنا نفترض أنه من غير الممكن أخذ بقعة من العالم ووقايتها كما كانت، ويدلنا تاريخ إيطاليا على أن هذا الوضع ممكن نظرياً، وهو تاريخ جدير بالملاحظة لأنه برغم تدمير الأمريكيون لبيئتهم - أكثر من أى حضارة أخرى - كانوا أيضاً من الرواد فى نهج سياسات الوقاية والصون التى ارتكزت على المراتع الوطنية، ولكن - كما أقول - دعنا نفترض أن هذا الوضع غير ممكن، وفى الواقع فأنا أعتقد أنه يتعين علينا أن نتعلم فى القرن الحادى والعشرين أن نشاهد مساحات شاسعة من العالم كما هى عليه أى مكونة من بيئات شبه اصطناعية، وعلى سبيل المثال، فإننا نكتشف أن الضواحى السكنية - أى تلك الجماعات المكونة من منازل تسكن كل منها أسرة واحدة وتحيط بها حدائق وهى شاسعة كثيراً فى بريطانيا وأمريكا الشمالية - تعد بيئة مناسبة للحيوانات البرية، وربما تعتبر أفضل بيئة ممكنة للطيور، وهناك طيور فى ضواحى المدينة البريطانية أكثر مما يوجد فى المناطق الزراعية حيث قضت عليها المخصبات الزراعية، وينبغى علينا أن نتيقن من أن تغيير وجه البسيطة لا يفضى بالضرورة إلى كارثة كاملة، إذ يمكن للبيئة أن تتغير بطرائق جانبية وليس فقط من خلال تحولات رأسمالية عنيفة صارمة من الحسن إلى السىء.

وثمة جانب من هذه الإمكانيات التى نمعن النظر فيها شديد الوضوح فى بريطانيا العظمى. فما يحدث عندما تنتهى الصناعات وتزول ؟ وقد تبدى هنا ثانية الاتجاه إلى بناء متاحف تسمى : الأركيولوجيا الصناعية، وهو ما أكثر إثارة للاهتمام تلك المحاولات التى تبذل لترميم أو تجديد البيئات التى غيرتها فترة التصنيع الأولى، وأعتقد أنه يصبح ممكنًا أكثر فأكثر رد الاعتبار أو تأهيل مساحات شاسعة من العالم تبدو حاليًا مدمرة تمامًا من جراء الصناعة، وجرب مثلاً الذهاب إلى جنوب ويلز، وهى منطقة كانت تتركز فيها مناجم كثيرة، ومنذ حوالى ثلاثين أو أربعين سنة خلت لم تكن تنمو فيها شجرة واحدة نتيجة للتلوث، ولكن إذا زرت وادى **Swansea** حاليًا فلن تتعرف على تلك المنطقة ويصعب عليك أن تصدق أنه وجدت بها من قبل صناعة كانت تضم مئات الآلاف من عمال المناجم عاشوا فى ظل ظروف غير صحية، وغدت اليوم ذات مناظر ريفية.

وهكذا ثمة إمكانية لتدبير شئون البيئة، والمشكلة هى كيف يتم ذلك. وأعود هنا إلى أحد الأسئلة الكبرى المطروحة على القرن الحادى والعشرين : من سيفعل ذلك ؟ وما هى السلطة التى ستقوم بالتخطيط والتنفيذ ؟ وسلطات كهذه موجود على الصعيدين المحلى والقومى لكنها غير موجودة على الصعيد الكونى، وأعظم الأخطار البيئية الآن تقع على صعيد كونى، ومن المؤكد أن النتائج أن تكون عظيمة إذا تركنا السوق تقرر - والبحر المتوسط مثال جيد فى هذا الصدد - وهناك حالتان نقيضتان توضحان كيف يمكن تدمير البيئة البحرية وكيف يمكن إنقاذها، فالتطورات الاقتصادية غير المتحكم فيها عدة أميال من الساحل الإسبانى بينما نجد أن تطور الصناعة السياحية على الساحل دلماسيا (جنوب غرب كرواتيا حاليًا على بحر الأدرياتيك) جرى تخطيطها بعناية فى ظل حكم تيتو، بحيث غدت منطقة رائعة الجمال وقدرتها على جنب أحجام ضخمة من النشاط يمكن أن تستمر وتتواصل ودون أن تترتب على ذلك أية كوارث، وإذا تطلعت إلى جانبى بحر الأدرياتيك، ريمينى **Rimini** من جهة (التى تقع على الساحل الإيطالى) ودلماسيا على الجهة الأخرى فسوف تعتقد أنك تتطلع إلى عالمين مختلفين، فكيف تضمن التجانس على نطاق عالمى ؟ ذلك هو السؤال.

– ألا يعد فى رأيك انخفاض المواليد فى أوروبا دلالة أيضًا على انعدام الثقة فى المستقبل على نحو مأسوى وإيثار بالغ للنفس أو أنانية مفرطة ؟ وهل هناك أخطار تعرض بلدان مثل إيطاليا إلى الاختفاء التدريجى للإيطاليين ؟

– لا أعتقد أن عدم إنجاب الأوروبيين لمزيد من الأطفال مرجعه عدم وجود مستقبل لهم، وأعتقد بالأحرى أن المرأة كانت تنجب كثرة من الأطفال فى الماضى؛ لأنها لم تكن تتصور أن تعيش بطريقة أخرى فتلك كانت إدارة اللورد، وإذا كان معدل المواليد يدل على أى شىء فهو يدل على ارتفاع مستوى التعليم وحتى ارتفاع مستوى التخطيط المالى، وهناك مرحلتان فى الحياة عندما يقع الأفراد تحت وطأة ضغوط مالية شديد : الأولى عندما يكون لديهم أطفال صغار السن والثانية حالما يصبحون من المسنين ولا تتوفر لديهم المدخرات التى تجعلهم مستقلين، ومن الجلى أن عدم إنجاب أطفال يعتبر ميزة اقتصادية كبرى، وكان الأطفال فى الماضى يمثلون دعمًا لميزانية الأسرة عندما يشرعون فى العمل كفلاحين أو عمال، فى سن صغيرة للغاية فى كثير من الأحيان، أما اليوم فإن الأطفال لن يكسبوا رزقهم قبل بلوغ سن العشرين أو حتى الثلاثين، وكلما امتدت فترة تعليمهم وكلما ازداد تأهيلهم المهنى كلما تحملت الأسرة العبء لفترة أطول، ولذلك فإن تحديد النسل يجعل من الممكن بادىء ذى بدء اتخاذ قرار مالى.

وقد اضطلع النظام القانونى الذى نظم الملكية والميراث فى القرن التاسع عشر بدور مهم فى المجال الديموغرافى، وقد تبطأ معدل المواليد فى فرنسا؛ لأن قانون نابليون استلزم تقسيم الأراضى بين الأبناء بينما تكاثر أبناء الطبقة الارستقراطية الإنجليزية، لأن الابن البكر – فقط – هو الذى يكول إليه الميراث وبذلك ظلت الملكية على حالتها الأصلية سليمة فى الحجم والقيمة، وكما ترى فإن العوامل الاقتصادية يمكن أن تكون ذات أهمية بالغة، لكن الأمر الأكثر أهمية أيضًا فى الوقت الحالى هو وعى المرأة وإدراكها بأنها يمكن لها اختيار أساليب حياة بديلة؛ لأنه لم يعد يوجد النموذج الوحيد للأمومة، وتلك خطوة كبرى إلى الأمام بكل وضوح، لكنها أيضًا خطوة نحو المجهول.

– وماذا عن متوسط العمر المتوقع فى القرن الجديد؟ إذ من المتوقع أن تعيش المرأة الإيطالية حتى تبلغ سن الثمانين بينما لا يمكن للرجل الأوغندى أن يتطلع للعيش أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، ألا يعد هذا بمثابة ظلم فادح فى عالم المستقبل ؟

– من رأيى أن الفارق فى متوسط العمر المتوقع بين البلدان الغنية والفقيرة سيكون من الأيسر تخفيضه وعلى نحو متناقض من ذلك الفارق الموجود داخل المجتمع نفسه بين فئاته العليا وفئاته الدنيا، وإذا أخذنا – كمثال – بلداً فقيراً شهد توسعاً اقتصادياً ضخماً للغاية مثل كوريا الجنوبية – وهو أروع مثال يرد سريعاً على خاطرى – فقد تضاءل الفارق فى العمر المتوقع بين كوريا والسويد بشكل مذهل بالمقارنة مع ما كان عليه منذ ثلاثين عاماً مضت.

وما لا يزال واضحاً للعيان تماماً فى البلدان الثرية هو أن أولئك الذين يستهلون حياتهم – وهم يتمتعون ببعض المزايا – يمكنهم أن يتوقعوا مضاعفتها مرات عديدة إبان حيواتهم، وقد أثبتت بحوث عديدة أن الفقراء لا يمرون طويلاً كالأغنياء ولا يتمتعون الصحة الجيدة نفسها، ولا أشك فى أن الأثرياء لديهم مشاكلهم، لكن الميزة النسبية التى يتمتعون بها فيما يتصل بمتوسط العمر المتوقع – مثلاً – تتجاوز أى شك.

وتبرهن مأساة الاتحاد السوفيتى السابق على هذا تماماً للغاية، فقد حدث انخفاض مذهل فى متوسط العمر المتوقع للسكان؛ لأن عملية الإفقار تضعف بشدة الدعامة التى يمكن للإنسان أن يشد عليها مستقبله.

خـــاتمة

آمال المستقبل

- لقد كان القرن العشرين هو قرن "عامة الناس" فمن يمثلهم حاليًا ؟

- في مستهل القرن العشرين كان الفلاح هو الإنسان النموذجي الذي ينعم بخيرات الأرض لكن في نهاية القرن تغير الوضع ولم يعد كما كان، كما نستطيع اختيار العامل عضو الطبقة العاملة التي نمت نموًا ضخمًا إبان القرن، وربما بلغت الذروة في الربع الثالث من القرن العشرين لكن حجمها ونفوذها ينكمشان بسرعة حاليًا، وماذا عن موظف المكتب ذلك الشخص الجالس على مكتبه وأمامه الكمبيوتر ولا يمكنه أن يفعل أي شيء آخر ؟ قد يكون هذا الموظف مناسبًا لأوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، لكن مازالت هناك مناطق شاسعة في العالم قد لا تعني هذه الصورة الكثير بالنسبة لها.

وإذا كنت تصر على البحث عن رمز للقرن العشرين فإنني أقترح صورة أم ومعها أطفالها ولعل أقصى ما هو مشترك بين البشر يتمثل في الأمهات، أينما عشن على ظهر البسيطة وبرغم اختلاف الثقافات والحضارات واللغات فيما بينهن، وتعكس تجربة الأم - من بعض النواحي - ماذا حدث لقطاع كبير من البشرية في القرن العشرين، وما لم يعد نموذجيًا في الحقبة التي نعيشها هو البنية الأسرية التقليدية التي تتطور من حول الأم، وبطبيعة الحال لم يوجد نمط أو نموذج واحد، لكن وجدت في جميع الأرجاء تقريبًا بنية أسرية ما، وهو ما لم يعد حقيقيًا اليوم.

لكنه بالرغم من حقيقة أن تنوع البشرية والسرعة التى تغيرت بها إبان القرن العشرين يجعلان من الصعوبة البالغة اختيار رمز يشير إلى "عامة الناس"، وإذا ما تعين أن يوجد مثل هذا الرمز فإننى أختار رمز الأم ومعها أطفالها.

– لقد استحوذ عليك أحد كبار الشياطين فى القرن العشرين : الولع بالسياسة، فقد كنت شيوعيًا نشطًا منذ زمن بعيد أى منذ عام ١٩٣٦ ، وطوال أحداث الحرب والفترة التى أعقبتها حتى عام ١٩٥٦ ، وبعد ذلك لم يتغير توجهك السياسى، لكنك غدوت منفصلاً على نحو متزايد، فهل شعرت بالأسف فى أى لحظة للنشاط الذى انغمست فيه ؟ وهل فكرت فى أى وقت من الأوقات أن ذلك الوضع أعاق أو عرقل حريتك الفكرية ؟

– أعتقد أنه لم يقيد حريتى الفكرية البتة، بيد أنه علىَّ أن أسلم بأن أى ارتباط حقيقى قوى، دينى أو سياسى يجنح إلى أن يفرض – لا أود أن أقول التزامات – لكن تفضيلاً أو تحيزًا مناصرًا لكى تحرز القضية التى تؤمن بها تقدمًا، وتدرك هذا عندما تحجم عن انتقادها، وعندما تحجم عن تطبيق الفكر النقدى نفسه عليها كما تستخدمه فى الحكم على القضايا الأخرى، والدارس الكاثوليكى أقل حماسة – بحكم تحيزه – فى تجريه عن محاكم التفتيش من الملحد أو البروتستانتى، وبالمثل فإنه من الواضح أن الدارسين النافدين للشيوعية كانوا أقل ترددًا فى دراسة ظاهرة مثل الجولاج (gulags)(١) بينما يفضل المؤرخ الشيوعى بكل تأكيد تفادى التعرض لها، ولذلك علىَّ أن أعترف أنه بينما كان فى عزمى ألا أكتب أو أقول شيئًا على الإطلاق عن الاتحاد السوفيتى قد يشعرنى بالذنب، فقد نزعت إلى تفادى تناوله مباشرة، لعلمى أنى إذا فعلت ذلك فقد كان يتعين علىَّ أن أكتب أشياءً كان من الصعب على الشيوعى أن يقولها دون أن يؤثر ذلك على نشاطه السياسى ومشاعر رفاقه.

(١) نظام معسكرات العمل الذى ظل قائمًا فى الاتحاد السوفيتى من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٥، وأدى إلى وفاة أعداد غفيرة، وتعنى هذه الكلمة بالروسية "الإدارة المركزية لمعسكرات العمل الإصلاحى" (م).

ولهذا السبب - أيضًا - اخترت أن أصبح مؤرخ القرن التاسع عشر بدلاً من مؤرخ القرن العشرين. وفى وسعى أن أدرك أن ما صدر عن الحزب الشيوعى السوفيتى خاصًا بالتاريخ المعاصر لم يكن مقبولاً، وهكذا لم أرد أن أشترك فى مناقشات إما أن تحملنى إلى الجانب الآخر أو تدخلنى فى صرا ع مع ضميرى كدارس أكاديمى.

وبعد عام ١٩٥٦ تحول نشاطى العملى إلى شىء مختلف وأكثر انفصالاً، فقد اتضح لى منذ ذلك الوقت أن الحلم ولى الأدبار، وقد اعتاد السكرتير العام للحزب الشيوعى فى بريطانيا العظمى - الذى ظللت عضواً فيه حتى وقت حله تقريبًا - أن يقول فى الأوقات العصيبة إنه كان يمكنه أن يعالج الموقف وينهى الوضع عبر خط هاتفى مباشر مع موسكو، وقد أعتبر الحزب جيشًا من الرسل، بينما أدرك العاملون فى مجال المهن الفكرية والثقافية أن يتعين علينا أن نحاول التفكير انطلاقًا من أوضاعنا الخاصة بنا.

وفى عام ١٩٥٦ أبلغت قادة الحزب أننى عاقد النية تمامًا على الحفاظ على صداقتى مع أولئك الذين تم طردهم من الحزب، وعلى الأخص مع تومبسون E.P. Thomson وغيره من المنشقين الذين أتعاطف معهم، وإذا لم يكن ذلك متوافقًا معهم ففى وسعهم إقصائى أو طردى. غير أننى لم أرد ترك الحزب فى ذلك الوقت؛ لأننى لم أرغب فى أن أنهى حياتى فى صحبة كل أولئك الشيوعيين السابقين النين أصبحوا معادين للشيوعيين.

ولماذا بقيت فى الحزب كل تلك السنوات بعد أزمة ١٩٥٦ ؟ لقد كان فى اعتقادى نوعًا من الولاء لقضية كبرى، ولكل أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجلها فعندما غدوت شيوعيًا فى عام ١٩٣٢ كان ذلك هو ما كنا جميعًا على استعداد للقيام به، وأستطيع أن أتذكر جميع الأصدقاء والرفاق الذين ماتوا فى سبيل هذه القضية والذين عانوا مرارة السجن والتعذيب من قبل النظم الشيوعية وكذلك النظم الرأسمالية، ولا ينبغى لنا أن ننسى الرجال والنساء الذين تخلوا عن فرصة الحصول على مهنة ناجحة؛ لكى يعملوا ساعات طويلة على نحو مدهش ولا يصدق فى ظل فقر نسبى كمسئولين فى الحزب ويحصلون على أجر ضئيل مثل الأجر الذى يحصل عليه أى عامل، ولم أضطر

أبداً إلى القيام بمثل هذه التضحيات، وإن أقل ما كنت أستطيع أن أفعله هو أن أبدى بعض التضامن عن طريق رفض المزايا المادية وتلك المرتبطة بالمستقبل المهنى والتى يمكن للمرء أن يجنيها من وراء ترك الحزب الشيوعى.

وفضلاً عن هذا فإن الشيوعية لم تكن متمثلة فى روسيا بل هى قضية كونية شاملة، وفى بداية خبراتى السياسية عندما أصبحت عضواً فى الحزب أثناء دراستى فى برلين جرت مناقشة بينى وبين الرفيق الذى كان مسئولاً عن تجنيدى، وقد أثرت ارتباكه واضطرابه لأننى قلت له : "حسنا، نحن نعلم أن روسيا بلد متخلف، ولذا فنحن نتوقع أن تلاقى الشيوعية فى روسيا "الهزائم". ولم يكن هو - بوضوح - من أنصار هذا الرأى، بينما لم أتوقف أنا أبداً عن الاعتقاد به، ولم أوافق إطلاقًا على تلك الأشياء المرعبة التى حدثت فى ظل هذا النظام، وذلك على غرار كثير من الشيوعيين الآخرين، غير أنك إذا فكرت فى أن الشيوعية هى أعظم وأكبر من التاريخ البلدان المتخلفة التى حدث أن تسنم فيها الشيوعيون السلطة، فعندئذ لن يكون هذا التاريخ علة كافية أو سبباً يبرر هجر القضية المختارة ونبذها.

هل أنا آسف على ذلك ؟ لا أعتقد وأن كنت أدرك جيداً إن القضية التى أعتنقها وآمنت بها قد ثبت أنها لم تجد طريقها إلى التنفيذ، وربما كان ينبغى ألا أختارها، ولكن - من الناحية الأخرى - إذا لم يؤمن الناس بمثل أعلى لعالم أفضل فعندئذ يخسرون شيئًا ما، وإذا كان المثل الأعلى الوحيد الذى يؤمن به الرجال والنساء يتمثل فى الجرى وراء السعادة الشخصية، من خلال نيل المزايا والممتلكات المادية فآنذاك تصبح الإنسانية جنساً أو نوعًا منتقصاً.

لقد استوقفت نظرى شخصية أندرو كارنيجى المليونير الأمريكى الوحيد الذى كان ملحداً وراديكاليًا سياسيًا، وقد قال ذات مرة "إن صاحب المليون الذى توافيه المنية وهو صاحب ملايين فقد أضاع حياته سدى" ويعنى هذا وجود شىء آخر له معناه ومغزاه بالإضافة إلى كون المرء ثريًا وشهيراً، وقد تكون هذه الرغبة أو لا تكون متأصلة فى الطبيعة البشرية أو ملازمة لها، غير أنها كانت على وجه اليقين ظاهرة تاريخية منذ

القرن الثامن عشر فصاعداً، حالما بدأت الإنسانية تدرك أن ثمة إمكانية لتحسين العالم وانعتاقه.

ولا تتمثل المشكلة فى الرغبة فى عالم أفضل، بل فى الاعتقاد بيوتوبيا عالم كامل، والمفكرون الليبراليون محقون عندما يوضحون أن أسوأ الأمور المتعلقة لا بالشيوعية فحسب، وإنما جميع القضايا الكبرى هو أنها عظيمة لدرجة أنها تبرر جميع التضحيات التى تتم باسمها، سواء فرضها المرء على نفسه أو فرضت على الآخرين. وهذه الحجة الليبرالية صحيحة عندما تزعم أن أولئك الذين لديهم تطلعات معتدلة إلى العالم هم – فقط – الذين فى وسعهم تفادى إنزال الأضرار الرهيبة ومعاناتها، وليس فى مقدورى أن أتحاشى الشعور بأن الإنسانية لا يمكنها أن تعمل وتسير بدون كبار الآمال والعواطف المشبوبة، حتى عندما تنهزم وتتكسر هذه التجارب، ويغدو واضحًا أن الفعل الإنسانى لا يستطيع إزالة البؤس الإنسانى، وقد كان الثوريون العظام يدركون حقيقة أن بعض جوانب الحياة الإنسانية تتجاوز جهودهم، مثل عدم السعادة فى الحب، لكن عندما يبلغ المرء السادسة عشر من عمره فإنه يعتقد فى هذا ويؤمن به أيضًا.

وإذا نظرت إلى القضايا الكبرى التى اشترك فيها ممن كانوا فى مثل سنى مثل الحرب لمناهضة النازية، فإنه يستحيل القول إن الثمن الذى دفع يتجاوز النتيجة التى تحققت، فهل كان يمكن، للعالم أن يكون أفضل ما لم نقاوم ؟ لا أعتقد أنه يوجد شخص واحد اشترك فى تلك المعركة على استعداد اليوم، لكى يقول إنها لم تكن جديرة بذلك، وحتى مع تصور الأحداث بعد وقوعها أى مع إدراكنا المتأخر، فإنه يستحيل ألا نعترف ونقر بأننا فعلنا قدراً كبيراً من الشر، ولكن فعلنا أيضًا قدرًا كبيراً من الخير.

والمشكلة ليست مشكلة التزام سياسى، بل بالأحرى طبيعة هذا الالتزام، فهل هو موجه صوب قضايا التنوير الكبرى : العقل، والتقدم، وتحسين أوضاع الإنسان ؟ أو هو موجه نحو قضايا أخرى يمكن أن تستمد قوتها من مجرد طبيعتها العاطفية والشعورية على غرار النزعة القومية والعنصرية، وهذان النوعان من القضايا مختلفان وليس من النوع نفسه، وأعتقد أن الشيوعية تشكل جزءًا من موروث الحضارة الحديثة التى ترجع

جذورها إلى عصر التنوير وإلى الثورتين الأمريكية والفرنسية، ولست نادمًا على ذلك، وعلى أية حال، فإن أولئك النشطاء الذين وجدوا فى بلدان مثل إيطاليا أو بريطانيا العظمى لا يمكن اعتبارهم مسئولين عما حدث فى بلدان أخرى، ولا فى روسيا على وجه اليقين، وأقصى ما يمكننى أن أقوله عنا هو أننا عرفنا فى بعض الأحوال أو خمنًا بالبداهة أشياءً احتفظنا بها لأنفسنا، غير أنه كل ما كان فى وسعنا أن نقوله لم يكن من الممكن أن يؤثر فى الاتحاد السوفيتى.

– هل يراودك نوع من الحنين إلى القرن الذى شارف على نهايته ؟ وهل تناصر ما قاله إ. برلين Isaiah Berlin[1] "التفت إلى الوراء متطلعًا إلى القرن العشرين بوصفه أكثر القرون فظاعة فى التاريخ العربى" ولكن هل يمكن استخلاص أو استرداد شىء منه ؟

– ما قاله أ. بيرلين حقيقة ولكنه ليس الحقيقة الكاملة، فقد كان قرنًا حارقًا للعادة من أى وجهة نظر كانت وليس لمجرد كوارثه، والحق أن العالم فى نهاية هذا القرن أفضل مما كان فى مطلعه مع استثناءات طفيفة، وليس من الصواب إذن أن نطرح جانبًا القرن العشرين بأسره، فأطفال هذا القرن عاشوا فى ظروف أفضل ماديًا وروحيًا مما عاشوا آباؤهم وأجدادهم.

والمشكلة هى ماذا سوف يشبه المستقبل ؟ ذلك هو مثار قلقى، ومن المؤكد أن الإنسانية – من الناحية التكنولوجية – سوف تواصل الاحتفاء بالانتصارات التى سوف تحققها العبقرية البشرية، كما سوف تكون فى حال أفضل من الناحية الاقتصادية، وربما سوف تقدر على التكيف مع البيئة الجديدة وتتعلم استخدام القوى الهائلة الموضوعة تحت تصرفها دون أن تعمل على تدمير ذاتها وظروف الحياة كما نعرفها، وما إذا كانت ستفعل ذلك فعلاً وحقًا سوف يتوقف على اتخاذ قرارات سياسية شاملة وكونية وتلك مسألة أخرى.

(١) فيلسوف بريطانى (١٩٠٩ – ١٩٩٧) ولد فى لاتيفيا اهتم بتاريخ الأفكار، ومن أشهر أعماله "كارل ماركس" (١٩٣٩) و "أربع مقالات عن الحرية" (١٩٥٩) و "فيكو وهردر" (١٩٧٦). (م).

وقد تعرضنا فيما سبق لافتقاد وجود سلطات قادرة على اتخاذ قرارات كهذه، ولهذا لست واثقًا من إمكانيات حدوث ذلك، إلا أنه لا مثيل للخوف الذى يتضخم إلى درجة الذعر والهلع بفعل عملية الانتشار الذاتى للرعب، الذى تبثه وسائل الإعلام، فهو وحده - أى ذلك الخوف - الذى يعجل باتخاذ إجراءات، ولا سيما فى الولايات المتحدة التى تتمتع بحق النقض (الفيتو) فى هذه المسائل. وإذا ما أسفر ارتفاع درجة الحرارة على النطاق الكونى وتصاعد منحنى الأعاصير والفيضانات عن مركب مرعب من الكوارث المناخية، فإن هذا الوضع يمكنه - ويمكنه فقط - أن يفى ذات يوم بالغرض الذى نحن بصدد الحديث عنه.

وما هو أكثر إزعاجًا - وليس لأسباب أخلاقية فقط - ذلك الاتساع المثير للمشاعر فى ضروب التفاوت الاجتماعى والاقتصادى سواء داخل الدول أو فيما بين المناطق والبلدان الثرية على أساس أنه لا يهم اتساع الفجوة بين الأغنياء "على نحو جاد" وبقية الناس، ما دام الفقراء (أى أولئك الذين يحصلون على أقل من نصف متوسط الدخل القومى) فى حال أفضل من الناحية المادية، وإن أدنى الفئات الاجتماعية لا تمثل على أى حال سوى أقلية ضئيلة من السكان، ولا أعتقد أننا نستطيع أو ينبغى لنا أن نتغاضى عن ذلك، فهل فى وسعنا أن نكون راضين - فعلاً - عن وضع موجود فى الولايات المتحدة ازدادت فيه نسبة أجر كبار المسئولين التنفيذيين فى الشركات إلى أجر عمال المصانع بعشرة أضعاف فى أقل من عشرين عامًا، وبلغت فى عام ١٩٩٨ رقمًا غير عادى عبارة عن ١٠٤١٩ وفقًا لما ذكرته صحيفة **International herald tribune** فى ٦ سبتمبر ١٩٩٩ . وهل قد ترتضى بالفعل وضعًا آخر يحصل فيه أفقر ٢٠٪، بعد عقدين من الثراء القومى المذهل، على دخل أقل نسبة ١٠٪ (بعد احتساب التضخم) مما كان فى عام ١٩٧٧ ؟

ومع ذلك - ومهما يكن من أمر - فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن الزيادة غير العادية فى الفجوة العالمية بين الأغنياء والفقراء فى حقبة أصولية السوق الحرة، وبإجراء تقدير واحد، فإن الفئة العليا من سكان العالم البالغة نسبتها ٢٠٪ تتمتع بدخل يزيد ١٥٠ مرة عن دخل الفئة الدنيا من السكان البالغة نسبتها ٢٠٪ كما جاء فى الصحيفة المذكورة أعلاه بتاريخ ٢ فبراير، وتواصل الفجوة الاتساع.

ومن الجلى أن "بليون شخص يعيشون فى فقر مدقع إلى جانب بليون شخص يعيشون فى فخامة مطردة، وذلك فى كوكب يزداد صغراً وتكاملاً على الدوام ولا يعد ذلك سيناريو يمكن استدامته وتحمله".

ولا يمكن أن يدوم أو يحتمل حتى ولو تحسن قليلاً الوضع الأساسى للبليون الذين يعيشون فى القاع، خاصة فى حقبة تتسم بتغير متسارع ووضع عالمى غير مستقر بشكل لافت للنظر ولا يمكن التكهن به، والحق أن هذا قد يعنى أنه من الأفضل لفقراء العالم أن ينظروا فى وضعهم وأن يشرعوا فى العمل بدلاً من تبديد وقتهم وقوتهم فى السعى وراء سد الرقم فى اليوم التالى.

وعلاوة على ذلك، فإن استقطاب الثروة يضغط بشدة وقسوة على الطبقة الوسطى من السكان التى اعتمد الوضع الراهن السياسى والاجتماعى فى البلدان الرأسمالية وبصفة دائمة على رضائها القنوع ولا سيما عندما تتعرض لزلازل اقتصادية التى تفرزها السوق الحرة العالمية غير المتحكم فيها، ومنذ أن سجل مقياس ريختر الاقتصادى فى تسعينيات القرن العشرين هزات متواضعة فقط فى أمريكا الشمالية والاتحاد الأوروبى، فإننا نميل إلى الحط من شأن التأثير المحتمل لمثل تلك التقلبات، وماذا عن انخفاض السوق الأمريكية أو الأوروبية للسيارات التى انخفضت أخيراً بنسبة ٤٠٪ فى مدى عامين على غرار سوق السيارات البرازيلية منذ ١٩٩٧ ؟ (انظر frank furter allgemeine فى ١٩٩٩/٩/٢٠) وقبل الركود الذى شهدته بسنوات ١٩٩٧ - ١٩٩٩ فإن ٦٪ من قراء إحدى الصحف فى كوريا الجنوبية اعتبروا أنفسهم ينتمون إلى "الطبقة العليا" و ٧٠٥ ينتمون إلى "الطبقة الوسطى" و ٢٤٪ ينتمون على "فئة ذوى الدخل الأدنى"، وفى يونيو ١٩٩٩ فإن الأرقام المقبلة أصبحت : ١٪ و ٤٦٪ و ٥٣٪ ، وقد قال آنذاك حوالى نصف من تم استجوابهم فى هذا الاستفتاء إن دخلهم انخفض بقرابة الثلث منذ بداية الركود.

وتتمثل خطورة هذا الاستقطاب المتنامى، فى ظل عالم يجرى اندماجه أو تكامله بطريقة واحدة عن طريق العولمة، فى أن العالم يزداد انقسامه بطريقة أو أخرى إلى غالبية من الدول فى وضع أدنى بصفة دائمة وأقلية من الدول تتمتع بامتيازات وترضى

عن نفسها، وتحظى هذه الأقلية بتفوق يتعزز ذاتيًا فى مجال الثروة والتكنولوجيا والقوة (بما فى ذلك القوة العسكرية) وذلك التفوق والرضا الذاتى من المرجح للغاية أن يثير الشعور بالاستياء والامتعاض على نحو ما أثاره فى الأيام الخوالى فى زمن تفوق الإمبراطوريات، وربما ازداد هذا الاحتمال حاليًا لأنه يمكن للمعلومات التى غدت متاحة أكثر من أى وقت مضى أن تجعل من الأيسر تبين أوجه التفاوت والتناقض، وحتى اليوم فإن هذين الفريقين من البشرية ليس فى وسعها التفاهم أو تبادل الاتصالات فيما بينهما.

وإبان الحرب التى شنها الناتو على صربيا فإن أحد الصحفيين الإيطاليين – الذى أجرى مقابلة معى – هاله أن أدلى بالبديهيات عندما قلت : إن مناقشة مشروعية هذا الحرب، برغم أنها ملحة ومبررة لا تعد.

"مناقشة عالمية وإنما هى تتعلق بالمركزية الأوروبية قديمة الطراز أو بالأحرى قضية شمال الأطلنطى... وبالنسبة للشطر الأعظم من العالم، بما فى ذلك المثقفون فإن هذه القضية لا شأن لها بالموضوع الأساسى، الذى يعتبره معظمهم بمثابة عملية إمبراطورية للغرب فى البلقان... ولا تعنيهم مسألة ما إذا كانت حربًا عادلة أو كيف يمكن تبريرها... ولا تندرج هذه المسألة فى اهتمام المثقفين فى الصين أو الهند أو أمريكا اللاتينية، لعدم اعتقادهم – ببساطة – أنها تمثل حربًا من نوع جديد".

وعلى المنوال نفسه تقريبًا فإن المراقبين فى العالم الثالث وجدوا أنه يكاد يكون من غير المتصور عقليًا ألا يعد ضرب السفارة الصينية فى بلغراد بالقنابل تأكيدًا للهيمنة العالمية، وأنه مجرد مثال – وإن كان والحق يقال مثالاً صارخًا – على عدم الكفاءة العسكرية – البيروقراطية.

ومن الناحية الجوهرية فإن هذين العالمين لا يتحدثان اللغة نفسها، لأنهما عندما يلتقيان فإن ما يستطيع أن يراه العالم الفقير فى العالم الغنى هو تفوقه الكاسح، وربما المطلق : وتأكيده لصالحه الخاص – الثراء والتكنولوجيا والقوة. ولا يساورنى كثيرًا من الشك فى أن تلك هى الطريقة التى يبدو بها تدخل الأمم المتحدة فى تيمور الشرقية

فى نظر معظم السكان - جنوب وجنوب شرق آسيا - الذين اهتموا به حتى ولو كانت حجتها - على خلاف ما حدث فى كوسوفا- تبدو مقنعة باستخدام المعايير المقبولة فى المنطقة.

وبالعكس فإننا نواجه باطراد بالمنظرين الإيديولوجيين الغربيين - وهنا يرد على الخاطر المستر فوكوياما، الدكتور بانجلوس Pangloss[1] لعام ١٩٩٠ - الذين يرون أن تفوق العالم الغنى يعبر ببساطة عن اكتشافه لأفضل الخطط الممكنة كافة من أجل ترتيب الشئون الإنسانية، كما أثبت ذلك انتصاره التاريخى، وبقول أبسط فإن هؤلاء المنظرون الإيديولوجيون على اقتناع بأن الغربيين يعرفون أفضل من غيرهم - وهو أمر بعيد عن أن يكون بديهيًا - وكما يبين السجل التراجيدى للمستشارين الاقتصاديين الغربيين فى روسيا ما بعد السوفيتية، فإنه قد يشق على الأكاديميين الأذكياء وحسنى البنية حتى أن يدركوا ماذا يحدث فى بيئات مختلفة عن بيئتهم، والتى شكلتها تلك الأحداث التاريخية والثقافات المختلفة.

والحق أنه فى عالم ملئ بكل هذه التفاوتات فإن تعيش فى مناطق متميزة يجعلك فعليًا فى عزلة عن الخبرات والتجارب - بصرف النظر عن ردود الأفعال - التى يعيشها الناس الذين يوجدون خارج هذه المناطق، ويقتضى الأمر بذل جهد تخيلى ضخم وتوفير قدر هائل من المعلومات والمعارف للتخلص من معازلنا المريحة والمحمية والمنهكة فى شئونها الذاتية، والولوج إلى العالم الأوسع غير المريح وغير المحمى الذى تقطنه غالبية الجنس البشرى، ونحن معزولين عن هذا العالم حتى ولو كان المجموع الكلى للمعلومات المكدسة سهل المنال فى كل مكان بمجرد الضغط على الزر أو استعمال "ماوس" الكمبيوتر، حتى ولو وصلتنا الصور من أقصى بقاع المعمورة فى جميع الأوقات، - ليلاً ونهاراً - ولو أكثرنا من السفر وتجولنا فى الحضارات المختلفة بأكثر من ذى قبل.

ذلك هو التناقض الظاهرى للقرن الحادى والعشرين المعولم.

(١) وصيات "كانديد" أو التفاؤل لفولتير (١٧٥٩) التى ترمز إلى التفاؤل الشديد برغم أى شىء آخر(م.)

بيد أن هناك جانباً، آخر للمستقبل لا أستطيع أن أتوقع إبعاده بأى قدر من الوضوح ويتعلق بالعلاقات السياسية والثقافية.

لقد دمرت الديناميكية غير العادية للاقتصاد الذى نعيش فيه الكثير من الحلول والهياكل، التى كانت متوفرة لنا فى الماضى، مما يلقى بعدد متزايد من الرجال والنساء فى وضع لا يمكنهم من الاحتكام إلى معايير واضحة والتطلع إلى آفاق مختلفة والتمسك بقيم مشتركة، وهو وضع لا يعرفون فيه ماذا يفعلون بوجودهم الفردى والجماعى.

ويصدق ذلك على مؤسسات مثل الأسرة وكذلك على مؤسسات السياسية التى هى ركائز الحضارة وعمدها والتى يسميه هبير ماس Habermas "المجال العام". فالسياسة والأحزاب والصحف والمنظمات والهيئات التمثيلية (النيابية) والدول : لا يعمل أى منها بالطريقة التى كانت متبعة من قبل، والتى افترضنا أنها يمكن أن تواصل العمل لزمن طويل قادم، فمستقبلها مبهم؛ ولهذا السبب فإننى لا أستطيع مع مستدار قرن ومطلع قرن جديد أن أتطلع إلى المستقبل بتفاؤل كبير.

المؤلف فى سطور

إريك هوبسبوم

وُلِد فى الإسكندرية عام ١٩١٧ ، ويُعد من أشهر المؤرخين الأوروبيين المعاصرين تخصصًا فى تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر ، له إسهاماته المهمة فى التاريخ العمالى البريطانى وفى دراسة التمردات الفلاحية وهبات المزارعين فى الفترة السابقة على العصر الصناعى ، وهو من الرواد الذين درسوا التاريخ فى حركته بين الجماهير وعامة الناس الصانعة لأحداث التاريخ .

وهو كاتب غزير الإنتاج ، خصب القريحة ، رفيع الثقافة ، تصفه المراجع العلمية بالصانع الماهر ، ولقد أكسبته ثلاثيته الشهيرة مكانة علمية جعلته يتربع على عرش التاريخ الأوروبى .

المشروع القومى للترجمة

المشــروع القومـــى للترجمــة مشــروع تنميــة ثقافيــة بالدرجـــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحـيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التـقـدم وحـضـور العلم وإشـاعـة العـقـلانيـة والتشجيع على التجريب .

٤- ترجـمـة الأصـول المعرفـيـة التى أصـبـحت أقرب إلى الإطار المرجـعى فـى الثقـافـة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	چون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	چورج چيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوڤا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إڤيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	ڤيسواڤا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديڤيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	چان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	چون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	چون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	چيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	چان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديڤيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٢٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٢٨-	نقد الحداثة	الن تورين	أنور مغيث
٢٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنچامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوييا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روچسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرا متى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيدرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	چى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩-	الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روچر ألن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١-	مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدي
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥-	جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٣١٦-	محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايتري سبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفي برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو يوجين كليناور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامي صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣-	الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩-	تاريخ الأدب في إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وأخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- ألام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وألن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زيادون ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سپنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ڤرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى ڤارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٢-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجناتس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرووز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوايو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافي	أجنر فوج	شوقي جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	علي إبراهيم منوفي
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيري إيجلتون	فخري صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسيني	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التي وقعت في بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيريني	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولي	عايدة الباجوري
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعي
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعي
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أي تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازي
٦٢٣-	نوادر جحا الإيراني	سعيد قانعي	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلواني
٦٢٥-	الجرح السري	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق علي منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدي محمود المليجي
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسي
٦٣٠-	سيرتي الذاتية	أحمد بللو	صبري محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقي المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا	دولورس براموت	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوي
٦٣٥-	التثبيت والتكيف في مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعي
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعي
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشي
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدري عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السلطة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر نبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدييار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول داڤيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تاديوش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاثيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	چيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وچودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود ڤيڤيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: ڤالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	بشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	پول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	چون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثاليبس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	چيرار دى چورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريڤور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالڤيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروری
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩- النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	جون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣- العولمة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورج وپول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧- العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨- سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩- الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠- الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢- دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريفيس	رءوف وصفى
٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧-	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨-	الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩-	سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠-	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١-	نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢-	مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣-	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس پاترسون	عزة الخميسى
٨٠٤-	سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرڤيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥-	من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦-	الطبقة العليا المصرية	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧-	يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨-	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وچوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١٠-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وچوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١١-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢-	تمثل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣-	لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤-	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥-	فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦-	العدو الأمريكى	فيليب روچيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧-	مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨-	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩-	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠-	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١-	هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢-	فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣-	وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤-	لغة الدراما	داڤيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥-	عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦-	عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧-	أهل مطروح البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨-	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩-	مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠-	رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١-	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوپولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢-	تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	چوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣-	الفلسفة الألمانية	ڤرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤-	كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوريان	علاء عزمى
٨٣٦- بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى
٨٣٧- عناكب فى المصيدة	ناتاليا ڤيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين ڤان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠- الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١- هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣- من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥- غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦- الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧- الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨- تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس فلهاوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩- سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠- الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١- الطب التجريبى (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢- العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب	چيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧- نادجا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨- جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم	إيف شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠- مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا	چين سميث	محمد الخولى
٨٦٢- ببغاء الكاكادو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣- لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤- أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥- فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦- رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧- المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨- الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩- تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠- عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١- عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢- كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات فى الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنرى جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع فى العربية	موريتس شتينشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغانى شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغانى شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عرودكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخدومقلى فراغى	الصفصافي أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادى الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدى
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار فى القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز چيرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالدة حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	چووست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. لينديس	مى رفعت سلطان

٩١١-	غبار النجوم	جون جريبين	عزت عامر
٩١٢-	ترجمات يحيى حقى (جـ١) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقى
٩١٣-	ترجمات يحيى حقى (جـ٢) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقى
٩١٤-	ترجمات يحيى حقى (جـ٣) (ميراث الترجمة)	ديزموند ستيوارت	يحيى حقى
٩١٥-	المرأة فى أثينا: الواقع والقانون	روجر چست	منيرة كروان
٩١٦-	الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندى وعبدالعظيم حماد
٩١٧-	موسوعة كمبريدج (جـ١)	نخبة	إشراف: أحمد عتمان
٩١٨-	موسوعة كمبريدج (جـ٤)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى
٩١٩-	موسوعة كمبريدج (جـ٩)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور
٩٢٠-	خليل جبران: حياته وعالمه	چين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل
٩٢١-	لله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثريا إقبال
٩٢٢-	الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى	ميكيل دى إبيالثا	جمال عبد الرحمن
٩٢٣-	ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب
٩٢٤-	حتشبسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٥-	رمسيس الثانى: فرعون المعجزات	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٦-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٧-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٨-	سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر
٩٢٩-	نشأة الإنسان (مجـ١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٠-	نشأة الإنسان (مجـ٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣١-	نشأة الإنسان (مجـ٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٢-	حدائق السحر فى دقائق الشعر (ميراث الترجمة)	رشيدالدين العمرى	إبراهيم الشواربى
٩٣٣-	اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى
٩٣٤-	محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب
٩٣٥-	تاريخ الفن الألمانى	فولكر جيبهارت	علا عادل
٩٣٦-	بيولوجيا الجحيم	إد ريچيس	أحمد فوزى عبد الحميد
٩٣٧-	هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم
٩٣٨-	الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر	پيير بورديو	سعيد العليمى
٩٣٩-	سجن العقل	ستيفن چونسون	أحمد مستجير
٩٤٠-	اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين
٩٤١-	الجماليات لم يولدن بعد	أى كوينى أرماه	صبرى محمد حسن
٩٤٢-	القرن الجديد	إريك هوبسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٢١٦٩ / ٢٠٠٥





هذا الكتاب محاولة جادة للمساهمة فى جعل المستقبل أكثر إشراقا من الماضى حيث إن التنبؤ بالمستقبل لا بد أن ينهض بالضرورة على معرفة الماضى والسعى للحد من مشاكله وصعوباته وأخطائه.

وهذا يتجلى من خلال المحادثة التى عقدها المؤلف مع مراسل صحيفة لا ريبابليكا الإيطالية فى لندن: أنطونيو بوليتو، الذى أسهم بإجابته الموجزة والدقيقة عن الأسئلة المطروحة عن القرن الجديد متعرضاً لمختلف القضايا وشتى المعضلات فى جميع مجالات الحياة فى نسج حياة أفضل ومستقبل ساطع بالأمل فى تخطى عقبات العولمة.



الغلاف / عبد العزيز السماحى